



السُلطانتان
خُرّم وَ مِهرماه

قرينة القانوني وسليلته



جانْ ألْبجُوونْج

دار النيل

السُلطانتان
خُرّمْ وَمِهرِماه

قرينة القانوني وسليلته

لقد كانت الهوايةُ المفضّلة لدى النساء العثمانيّات هي الأعمالُ والأنشطةُ الخيريّة، فلقد ضربتِ السلطاناتُ العثمانيّاتُ أروعَ الأمثلة في القيامِ بأعمالِ الخيرِ ومدّ يدِ العونِ إلى الفقراء والمحتاجين، حتى أصبحتِ الأعمالُ الخيريّة مَيدانَ سباقٍ ومنافسةٍ فيما بينهنّ، بل إنّهنّ جعَلْنَ الأعمالَ الخيريَّةَ منهجَ حياةٍ يسِرْنَ عليه، ويبذلْنَ لِضمانِ استمراريّته الغاليَ والنفيس، فلقد قُمْنَ بتشييدِ العديدِ من الجوامعِ والمدارسِ والأوقافِ والمستشفياتِ والحمّاماتِ وسُبُلِ المياه، إلى جانبِ العديدِ من الأنشطةِ الخيريّةِ الأخرى...

وبناءً على ما سَبَقَ: فإنّ السلطانةَ "خرّم" وابنتَها السلطانة "مهرماه" كانتا سيدتينِ محبتَينِ للخيرِ، مسارعتينِ إلى بذلِ الجهودِ وإنفاقِ الأموالِ لتحقيقِ ذلك...

وهذا بخلافِ ما عمَدَ إليه أعداءُ الدولةِ العثمانيّة من تزييفٍ للوقائعِ وتزويرٍ للحقائقِ، ضمنَ سلسلةٍ من المحاولاتِ لتشويهِ صورةِ هاتين السيدتين الخيّرتين...

لقد حافظَتْ مجموعةٌ من الأوقافِ والأعمالِ الخيريّةِ على صفةِ العطاءِ والبذلِ وخِدمةِ الناسِ إلى يومِنا هذا حتى رأيناها بأمّ أعيُنِنا، ونرجو من الله أن تبقى هذه الأوقافُ شامخةً حتى تراها الأجيالُ المتعاقبةُ من بعدِنا إلى الأبد...





السلطانتان

خُرّمْ وَمِهْرِماه

قرينة القانوني وسليلته



السلطانتان

خُرّم ومِهرِمَاهْ

قرينة القانوني وسليلته

تحرير

إسماعيل كابار

مراجعة

يوكسل جلبنار

تصحيح

سليمان أحمد شيخ سليمان

تصميم

أحمد علي شحاتة

غلاف

ياووز يلماز

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-6183-28-5

رقم النشر

1011

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 جـ- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - خلف سيتي بنك - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402-5

Mobile: 0020 1000780841

E-mail: daralnile@daralnile.com

مركز التوزيع: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة - مصر

Mobile: 0020 1141992888

www.daralnile.com

القاهرة - 2014م

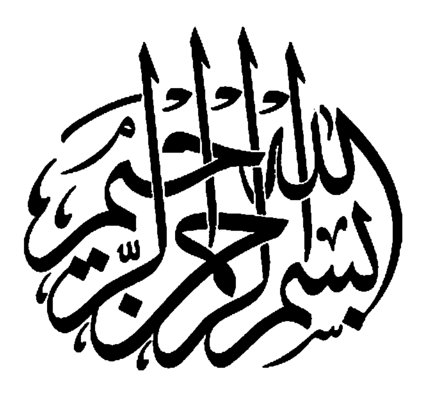
السلطانتان
خُرّم ومِهرماه
قرينة القانوني وسليلته

تأليف

جَانْ أَلبجُوَنج
(Can Alpgüvenç)

ترجمة

د. وليد عبد الله القط


بسم الله الرحمن الرحيم

سيرة ذاتية للمؤلف

ولد جَانْ أَلْبجُوَنْج (*Can Alpgüvenç*) في إسطنبول عام (١٩٥٤م)، وتخرج في كلية الاقتصاد بجامعة إسطنبول، عمل في إدارة إحدى الصحف القومية بين عامي (١٩٧٠ و١٩٨٤م). بعد ذلك عمل رئيسًا للتحرير في العديد من المجلات كان في مقدمتها "مجلة سور"، وقدم العديد من البرامج الإذاعية والتليفزيونية، وفي الوقت الحالي يتابع الكاتب أبحاثه التاريخية، وهو متزوّج ولديه ابنة واحدة.

هناك العديد من الأعمال التاريخية المنشورة لهذا الكاتب، وهذه طائفة من أسماء تلك الكتب:

- موت فرعون
- السلطانات المتسابقات في الخيرات
- من أعلام العثمانيين
- السلطان عبد العزيز والباشاوات المتمردون
- العدالة الصامتة
- البستان وروضة الورود
- إسطنبول العثمانية وآثارها

فهرس

مقدمة

كانت مراعاة الدولةِ العثمانيةِ للإنسـانيةِ مراعاةً عظيمةً وغيرَ مسـبوقة، فقد اتّسـمت الدولة العثمانيةُ بالتسامحِ مـع مختلف الأديان والمعتقدات، إلى جانبِ سـعيها الحثيثِ نحو ضمان الحقوق وحريات الشـعوب، وقد اسـتمرت على تلك الحال قرابة سـتّةِ قرون، استطاعت خلالها تكوينَ قوّةٍ عظمى تهيمن على العالم، وكانت هذه السـمات بمثابة الركائز الأساسـية التـي جعلت الدولة العثمانيـة تعتلي مكانة مرموقةً على رأس دول العالم، بحيث يمكننا أن نقول: إن هذه المكانة ستظل آثارُها باقيةً إلى أن يشاء الله.

* * *

فعلى سـبيل المثال، إذا نظرنا إلى المهندس المعماريّ الكبير "سـنان" الـذي عاش فـي العصر الذهبيّ للدولـة العثمانية، نجـده يعمل بكلّ جهد وعزم، ويتجوّل في الأماكن والبلدان الأخرى فيُلاحِظ ويُسجّل مُشاهَدَاتِهِ، كالبَرْجَل الذي نرى إحدى ساقيه ثابتةً ومستقرةً في مكانها وساقه الأخرى تتحرّك هنا وهناك، لقد اسـتطاع هذا المهندس المعماريّ أن ينحت اسـمَه فـي تاريـخ الهندسـة المعماريّـةِ العالميّةِ بحـروفٍ من ذهـب، وأن يحقّقَ نجاحًـا باهـرًا يظهرُ جليًا في نحو أربعمائة تُحْفَةٍ معمارية؛ منها مائة وسـتة وثلاثـون مسـجدًا فـي ربـوع الإمبراطوريـة العثمانية، وسـبعة وخمسـون مدرسـةً، والعشـرات مـن الأضرِحـة، ودور تحفيـظ القرآن، والمَشـافي،

وقنوات المياه، ومياه السبيل، والحمامات، والجسور، والأقبية، والنُّزُل[١]، والقصور، ودور إطعام المساكين.

وتحكـي لنـا "ديـل (*Diehl*)" الخبيرة فـي تاريخ بيزنطة، وهـي مُنْبَهِرة بتُحفة "السُّلَيْمَانِية" التي بناها "سنان"، فتقول:

"إنها أَكْثَرُ رَوْعةً وجلالًا من كاتدرائية جسـتنيان (*Jüstinyen*) (أياصوفيا)".

وفيما يتعلق بمسجد "السَّلِيمِية" الذي نجح المعماري الفذ "سنان" في تغطية مسـاحة كبيرة منـه بقُبَّة واحدة، وأخرجه تحفةً معماريّـةً فائقةَ الدقّةِ والجمال فيقول:

"لقـد كان أسـاطينُ المِعمـار فـي الغـرب يزعمـون أنهـم قد انتصـروا علـى المسـلمين؛ لعدم تمكُّنهم مـن بناء قبَـةٍ واحدةٍ في الدولة الإسلامية تُضَاهِي قُبّة (أياصوفيا)، وكانت حجّتهم في ذلك أنه من الصعب على المسلمين إنشاء قبّةٍ كبيرةٍ بهذا الحجم كتلك الموجودة في "أيا صوفيا"، فلقد أَدْمَتْ هذه الكلماتُ قلبي، وبعثت في داخلي روح المنافسة".

فمـا كان مـن ذلك المعماريّ الفـذّ إلا أن اجتهدَ بكلّ ما أُوتِيَ من قوةٍ ومهـارة، حتى اسـتطاع أن يُخَلِّـفَ لنا في تاريخ العمارة تحفةَ "السَّـلِيمِيّةِ" الرائعة، التي فاقت في روعتها وجمالِها ودقّةِ بنائِها (أياصوفيا).

* * *

وعلـى مسـتوى آخر، فإننـا إذا عقدنا مقارنةً بيـن الوضـعِ الذي كانت عليـه مدرسـة الفاتـح، والوضـعِ الـذي كانت عليـه جامعـةُ "فرانكفورت (*Frankfurt*)" أو "السوربون (*Sorbonne*)" في بدايات القرن السادس عشر، فسنلحظ تلك النتائج المُبهِرة:

(١) النُّزُل: بمعنى المنزل، وهي تطلق قديمًا على أماكن الإقامة العامة، مثل الفنادق حديثًا. (المترجم)

وهي أنه في الوقت الذي كانت جامعة "السوربون" تشتمل على أَحَدَ عَشَرَ كتابًا في الطبِّ، وجامعة "فرانكفورت" اثني عشر كتابًا، كانت مدرسة الفاتح تشتمل على تسعمائة وستة عشرين كتابًا في الطبّ.

بل إن سبعةً من الكتب الموجودة في جامعة "السوربون" و"فرانكفورت" كانت عبارة عن ترجمات للعالِمَيْنِ "البيروني" و"ابن سينا"، فهذه المميزات التي امتازت بها مدرسةُ الفاتح عن غيرها من الجامعات، نجدها تزدادُ ازدهارًا بحلول منتصف القرن السادس عشر.

لقد كان عصرُ السلطان القانوني يُمثِّل حِقْبةً فريدةً قامت على أيدي فنانين مبدعين، حيث ظهرت في تلك الفترة أعمالٌ فنيّةٌ بلغت الغايةَ والذروةَ في الروعة والإبداع؛ كتلك التي نراها في مجالات العمارة العثمانية والفنّ والخطِّ والشعر والأدب والتذهيب[٢] والزخرفةِ والتطريزِ والمشغولات الخشبيّة.

كما بَرَزَ في تلك المرحلة شعراءُ عظامٌ كُثُر، يكاد يكون على رأسهم السلطان سليمانُ نفسُه بمَخْلَصه الشعريّ "مُحِبّي" الذي فتح الباب أمام ظُهورِ روائِعَ أخرى تأثّرت بها بعد ذلك، هذا إلى جانب إبداعات شعراء آخرين؛ مثل: "فضولي" و"باقي" وغيرهما، كما لَمَعَ في ذلك العصر أيضًا الفنان "قَرَاحِصَارِي (*Karahisari*)" الذي بَرَعَ في فنّ الخطّ وأمتع الأمّةَ بكتاباته الفنّيّةِ الجميلة، أما في علم القانون فقد ظهر رجالٌ أفذاذٌ مثل: "زَمْبِيلّي علي أَفَنْدِي (*Zembilli Ali Efendi*)"، و"ابن كمال أفندي"، و"أبو السعود أفندي"، وفي التاريخ نجد علماء أَكْفاءً؛ كأمثال: "سَالَانِيكِي (*Selâniki*)"، و"عالي"، و"رَمَضَان زَادَه (*Ramazanzâde*)"، وفي الجغرافيا نجد: "بيري رئيس (*Pirî Reis*)"، و"سيدي علي رئيس (*Seydi Ali Reis*)"،

---

(٢) التذهيب: هو فن التزيين بماء الذهب والألوان. (المترجم)

وأمـا فيما يتعلّقُ بأسـاطينِ البحر فإننا نجدُ عمالقـةً في هذا المجال منهم: "بارباروس (*Barbaros*)"، و"بِيَالَه باشـا (*Piyale Paşa*)"، و"تُورْغُوث رئيس (*Turgut Reis*)".

وفـي الآونـة الأخيـرة، نرى ثُلَّةً مـن الكُتاب -من غيـر الأتراك- ممن يحمِلـون الجنسـية التركية اسـمًا فقـط، لكنهم ينتسـبون فـي الحقيقة إلى هُويـات أخرى، وقد تَجَاسَـرَ هـؤلاء الكُتاب وتجـرّؤوا، فأخذوا يوجهون أكاذيـبَ وافتـراءاتٍ مثيـرةً للاشـمئزاز، فـي حق الدولـة العليـة العثمانيّة وحكّامهـا الأبطالِ أحيانًا، وأحيانًا أخرى في حقّ نسـاء القصر اللواتي كنّ يعشْنَ في الجناح الخاصّ بالحريم.

كان هـؤلاء الكُتَّاب المُدَّعونَ الذين يعملون لصالح جهات وأجِنْداتٍ خارجيّةٍ مختلفة، يُرَدِّدون ادعاءاتٍ باطلةً لا أساسَ لها من الصحّة، منبَعُها كُتّـاب ومؤرِّخـون أجانـب يُناصِبون الدولـةَ العثمانيةَ العَدَاءَ؛ فـي مُحاوَلةٍ منهـم إلـى تقليصِ وتحجيمِ دور تلك الحضارة الفريـدة التي أَثْرَتْ العالَمَ لعـدةِ قرون مُدَّعِينَ أنها حضارة الدم والسـيف ويقـول أحد الذين اتّخذوا لأنفسهم اسمًا تركيًا -مـع أنه غيرُ تركيٍّ أصلًا- وهو يتحدّث عن السلطانِ سليمان ووليّ عهدِه الأميرِ مصطفى:

> "ولقـد أمرَ سـليمان جنـوده المقرّبين بخنق ابنـه ووليّ عهده (مصطفى)...وجلـَس داخـلَ خيمةٍ مجاورةٍ يسـتمـعُ إلـى أنينِ ابنه ووليّ عهـده -الـذي كان يقبّله ويشـمّه عندما كان صغيـرًا- وقد شـرع الجلادونَ يخنقونَهُ بصمتٍ خبيـث.. يالَلْعجب..! أترى هذا حسنًا!؟".

وهكذا نرى هذا الكاتب يمدُّ يدَ الافتراءِ على هذا الحاكم العادل الذي كان قلبُه عامرًا بالرحمة والمحبة، والذي كان يراقب نفسَه ويخشى ربَّه في معاملته لرعاياه حتى في أبسط الحقوق.

لكننا إذا أمعنّا النظر والتّدقيقَ في هذه الحادثةِ نجدُ أنَّ الأمير مصطفى قد انخدع بالفعل، وحاول القيام بثورةٍ على الدولة وعلى والده، أما السلطان سليمان القانوني فقد قام من جانبه بتقصّي الحقائق والتأكُّد من صحّةِ هذه الادِّعاءات عن ابنه، واعتمد في هذا الصدد على مصادرَ مختلفةٍ وحاسمةٍ ودقيقةٍ تُمِدُّه بالمعلومات، حتى توصَّل في نهاية عمليّةِ البحثِ والتحرّي إلى أن ابنَه مصطفى كان يسعى بالفعل إلى التمرّد عليه؛ كي يستولي على الحكم.

كان السلطان القانوني يهتمّ بالشرعية ويولي الدولة أهمّيّة فوق كلّ شيء، فكان يحرِص أشدَّ الحرص على عدم إتاحة المجالِ أمام أيِّ فرصةٍ قد تؤدِّي إلى إلحاق الأذى بالشعب، أو إلى نُشُوب حربٍ أهلية تُرَاقُ فيها الدماء، لقد كان حرصه على الدولة فوقَ أيِّ ضعفٍ أو عاطفةٍ إنسانيَّةٍ، فلولا تصدِّيه لاستمرار ابنه في الانحراف عن جادَّة الطريقِ، ولولا أنه منعَ ابنَهُ من اقترافِ الأعمال المؤدِّيةِ إلى نشوبِ الصراعات بين الإخوة من أجل الوصول إلى الحكم؛ لولا ذلك كلّه لكانت النتيجةُ الحتميّةُ هي تفتُّت الدولة وانهيارُها.

لقد كان شغلُه الشاغل مُنصَبًّا في المقام الأوّل على حماية وَحْدَة الدولة ونظامِها وقوانينِها، واستحوذَ شعورُ الحفاظ على الدولة وكيانِها على كاملِ عقلِه ووجدانِه، بحيث صار مُقدَّمًا على ما سواه من مشاعرِ الشفقةِ والأبوّةِ.

إن الادِّعاءَ بأن سليمان القانوني كان يُتابِع عمليةَ إعدامِ ابنه من الغرفةِ المجاورةِ، لَهو مَحْضُ ادِّعاءٍ ملفّقٍ وافتراءٍ زائفٍ وعارٍ تمامًا مِن الصحة، ولا يعدو كونه تزييفًا للحقائق.

فقد رُوِيَ أن السلطان سليمانَ أراد أن يَؤُمّ المصلّين في صلاة الجنازة علـى جُثمانِ ولـده، إلا أنه اضطرّ إلى الخروج مـن الصلاة وعدم إكمالها بسبب البكاء الشديد الذي سيطر عليه رغمًا عنه.

هـل من السـهل علـى أبٍ أن يضحّيَ بفلْـذَةِ كبده، ويقتـلَ ابنَهُ الأكبرَ الشجاع!

لقـد تَردَّد كثيرًا بيـن "بقاء الدولة" و"عاطفة الأبوة "، حاسِـمًا أَمْرَه في النهاية باختيار طريق التضحية بعواطفِه من أجل بقاء وسلامةِ الدولةِ.

وإذا كان البعض يحاولُ استغلالَ الشعُور بالشفقةِ تجاهَ الأمير مصطفى، فـلا يفوتنـا أن نتذكّر أنه كانت هناك حروبٌ طاحنةٌ بين السـلطانينِ "بايزيد (*Bayezid*)" و" جَـم (*Cem*)"، وكلاهمـا مـن أبناء السـلطان "الفاتـح"، وقد قُتِـل مِـن جَرَّاء تلك الحروب مئاتُ الجنود، كذلك فقد كانت بين "بايزيد" ووليّ العهد "سـليم"، -وهما من أبناء السـلطان القانوني- صراعاتٌ سَقَط ضَحِيَّتهـا أبطـالٌ وصناديد، وعلى الرغم من هذا، فلا نرى من يترحّم على هـؤلاء الضحايـا الذين سـقطوا مِن جَـرَّاء تلك الحروب، بـل إن أحدًا لم يكترث لهم على الإطلاق.

إن الهاجِـسَ الوحيدَ لدى أتباعِ المدرسـةِ الغربيّةِ الذين يسـيرون على خُطَا سـادة العالم الغربيّ، ممّن تحملُ ظهورُهم آثارَ ركلةِ العثمانيين، هو رغبتهم في تشـويه سُـمعة هذه الدولة العظيمة التي حكمت العالـم لقرون، فصار شغلهم الشاغل هو الانتقام منها ومحاولة تشويه تراثها العريق.

* * *

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن جناح الحريم، فإن مما ينبغي لنا أن نعلمَه -أوّلًا وقبل أيّ شيء- أنه دارٌ تابعةٌ للسلطان، ومستودعٌ لأسراره.

وإن الهجوم بأبشعِ الأساليب على الحياة الأُسَرِيّةِ الخاصّة والمسائل الشخصيّة المتعلّقةِ بالعثمانيين، وتحريفَ الأحداثِ والوقائعِ التي عايشوها، وتصويرَها من خلال جوٍّ مثيرٍ وشهوانيّ، كلّ هذا ما هو إلا سمومٌ نفثتها بُؤَرٌ خارجيةٌ شرّيرةٌ، والحقيقة أن جناح الحريم كان يُعتبر لدى العثمانيين بمثابة المَهْد، الذي تنشأُ وتترعرعُ فيه الأخلاق والعلم والتربية.

والجواري اللواتي سَنَحَتْ لهنّ الفرصة للتواجد في جناح الحريم كانت كلّ واحدةٍ منهنّ يتمّ تدريبها على آداب وأخلاق المعاملة وَفْقًا لقدراتها، ويتمّ كذلك تعليمُها القراءةَ والكتابةَ وأحكامَ القرآن الكريم والعلوم الدينية، هذا إلى جانب فنون الأدبِ والموسيقى والتطريزِ، والمئاتُ من هؤلاء الجواري قد تزوّجنَ بموظفين قد تخرجوا من "أَنْدَرُونْ (*Enderun*)"[٣] ونجحوا في إدارة الدولة.

* * *

أما السلطانة التَّقِيّة الخيِّرة "خُرَّم" زوجةُ السلطان سليمان القانوني، فقد كانت واحدةً من النساء اللواتي امتلأت سيرة حياتهنّ بأباطيلَ صاغتْها ألسنةُ الدُّمَى المحليّة والأجنبيّة؛ حيث أَخَذَتْ هذه الألسنة تُلفِّق في حقّها قَصَصَ الشرّ والتآمرِ المختلفةِ، وتَنسُبُ إليها كُلَّ فِعْل مُشِين.

لقد كانت الأعمالُ الخيرية للسلطانة خُرَّم مُنصَبَّةً بشكلٍ رئيسيّ على مساعدة النساء العثمانيات؛ حيث لم تكن هذه الأعمال الخيريّةُ مقتصرةً على رجال الدولة العثمانيّة، بل شملت النساءَ عمومًا، من داخل

(٣) (أندرون) هو الاسم الذي كان يطلق على الدرجة الأولى من رجال الإدارة الذين ينتمون إلى "الجناح الخاص" الذي يعتبر في الدولة العثمانية مؤسسة هامة للغاية ويحتل المكانة الأولى. وكان أحد الأختام الأربعة للسلطان موجودًا في (الجناح الخاص). وكان هؤلاء الرجال يتحركون مع السلطان أينما ذهب، ويقومون بتلبيس السلطان الملابس في المراسم والمناسبات. وكانوا يُعتبرون في البروتوكول على درجة مساوية لدرجة الوزير.

قصـرِ السـلطان أو حتـى من خارجِه، وشـملت أكثرُ هذه النفقـاتِ الفقراءَ والمسـاكين والمرضى والمُعدمين، وهذا دليلٌ على رحمة السـلطانة خُرّم وعلى مدى حبّها للخير.

لقـد كانـت الثقافـةُ الرئيسـيّة لـدى هـؤلاء النسـاء هي خدمـةُ جميع أفـراد المجتمـع، من خلال إنشـاء المراكز العِلْمية من مسـاجدَ ومدارس دينيـة، بالإضافة إلى تَشْـييدِ العمائر والمُستشـفيات، والحمامات، والنُّزُلِ، والنوافيرِ، فإذا تتبّعنا هذه الناحيةَ من حياتهنّ نجد أنهُنَّ قدَّمْنَ خدمةً كبيرةً للمجتمعِ من خلال بناءِ منشَآتٍ عامّةٍ خيريّةٍ ضخمةٍ.

* * *

هـذا، وقـد تَحدَّثتُ في هذا الكتاب الذي يحمل عنوان "السـلطانتان: خُـرّم ومِهرِمَـاهْ قَرينَـة القانوني وسَـليلَته" عـن شـخصيّتهما النموذجيّتين، مُحاوِلًا الكشف عن حقيقةِ هاتين السيدتين اللتين تَعَمَّدَ الكُتّابُ المُعادون للدولـة العثمانيّـة تَصويرَهُـنَّ على نحوٍ مغايـرٍ للحقيقة؛ رغـم أنهما عُرِفَتا بمَحَبَّتِهِمـا لأعمـال الخيرِ وبناءِ الأوقافِ الخيريّة، وفـي النهاية فإنني أتركُ هذا الأمرَ إلى ضمير القُرَّاء؛ كي يتبيَّنوا حقيقةَ هذا الأمر بأنفسهم.

كمـا تناولتُ بالشـرح الحديثَ عن "مجمَـع خَاصَكِـي" الذي تمّ بناؤُه من قِبَلِ المهندسِ المعماريّ "سِـنَانْ"، وذلك بتكليفٍ من "السلطانة خُرَّم" في المنطقة ذاتِها التي صارتْ تحمِل اسمَها فيما بعد.

حيث كان النظامُ المُتَّبَع الذي أمرت به السـلطانة خُرّم في هذه الدارِ أن يَتِمَّ توزيـعُ الطعام بشكل مُتَساوٍ على كلٍّ من المُسلِمين والمسيحيّين.

* * *

أمـا "مِهْرِمَـاهْ" الابنة الحبيبة للسـلطان سـليمان، فقد بيَّنـتُ أنها كانت سـببًا فـي تحقيق خيرٍ عظيمٍ للبـلاد والعباد، من خـلال تكليفِها المهندسَ المعماريَّ البارع "سِـنَان" بإنشـاء مَجْمَعَيْنِ عِلْمِيَّيْنِ كبيرين؛ أحدهما قربَ سـاحلِ "أسـكودار"، والآخر في "أَدِرْنَه قَابِي (*Edirnekapı*)"، بالإضافة إلى تشـييد المؤسّسات الاجتماعيّة والدينيّة؛ مَرْضاةً لله ﷻ ولرسوله ﷺ ورغبةً في نَيْلِ الشفاعة.

إن أعـداءَ الدولـةِ العثمانيّـةِ من الكُتَّاب الذين تحرّكُهـم أصابعُ الغدرِ الخارجيّـة الحاقـدة لا يزالون يتطاولون علـى الدولة العَلِيَّـة العثمانية عن طريق الهجوم على السلطان سليمان القانوني من خلال اخْتِلاقِ الأكاذيب حول زوجَتِه "السلطانة خُرَّم"، كما نراهم يبذلون قُصارى جهدِهم من أجل تشـويهِ النواحي الإيجابية التي أَوْرَثَتْها الدولـة العثمانية للأجيال المتعاقبةِ من بعدها.

لكن أطماعَ هؤلاء الكتاب لن تتحقق؛ لأن فهمَ وإدراكَ الشعبِ قد بلـغ درجـةً من السُّـموّ والرُّقيّ الأخلاقيّ تجعلـه لا ينخدعُ بمثل تلك التّرّهات الفارغةِ والأباطيل المكذوبة.

إننـي لَأشـعُر بالفخر في المقـام الأول بالصداقة التي كانت سـببًا لما وجدتُـه مـن مسـاعدات قيّمـة أثناء إعـداد هذا الكِتـاب، وأتوجّه بالشـكر والعرفـان بالجميـل إلى كل من السـيد "محمد نِيَازِي (*Niyazi*)، والأسـتاذ المسـاعد الدكتور "علي كايا (*Kaya*)" وصديقي الشـاب الدكتور "سليمان كراجليل (*Karacelil*)"؛ على ما أَسْدَوْهُ إليَّ من عون ومساعدة.

جَانْ أَلْبْجُوَنْج (*Can Alpgüvenç*)

إسطنبول/٢٨ آذار/مارس ٢٠١١م



"يا رياح الصَّبا! احكِ لسلطاني عن حالي المؤلم التعيس. قولي له: إن وردتَك عندما يفتقدها وجهك يصبح حالها كالبلبل الذي يصرخ ويصيح!"

"السلطانة خُرَّم"



السلطانة "خرم"

توشَّح المساء بوِشاح الحمرةِ عند غروب الشمس، ضمن منظرٍ خلابٍ أشبه ما يكون باللوحة الفنّية، حيث تبدو الشمسُ وكأنّها كرةٌ من اللهب تتنزّل إلى سفوح "جِيهَانْجِيز (*Cihangir*)" متناغمةً مع الغيومِ كأنّها تقودُهم من حولِها.

وأما تلال "جَمْلِجَا (*Çamlıca*)" فهي تلوح في الأفق بِقِمَمِها، فتبدو للناظرين كأكوامٍ ذات خطوطٍ حمراء.

وقِطَعُ الغَيْمِ تسبح في سماء إسطنبول، مُلْتَحِفة بقماشٍ مُغَرْبلٍ أرجوانيٍّ ثقيلٍ أما برج "جلطة (*Galata*)" الشامخ فقد تتوّجَ بالنيران.

"السلطانة خُرَّم"، تشعرُ وكأنّه قد شَبَّ في قلبها حريق.

إن مشاعرَ الجاريةِ الشابّةِ قد اشتعلت في جنَبَاتِها، وهي مُحمَّلة بالحب الوحيد الذي في قلبها إلى السلطان سليمان القانوني.

وَجْنَتاها الورديتانِ تبدوانِ كزهرتَينِ تُضيئانِ مِن لَهِيبٍ تحت حُمرةِ الشمس الغاربة... فهي ترتدي رِداءً بديعًا من الحرير المُخْمَلِ الذي ينساب على جسدِها الرقيقِ، وقد طُرّزتْ عليه الورودُ بخيوطٍ من ذهبٍ.

* * *

تقدمت "السلطانة خُرَّم" برشاقتها المعهودةِ تمشي على البُسُطِ الفارسية الفارِهة، ثم جثت على ركبتيها أمامَ الطاولةِ المزيّنةِ بالأحجار

الكريمة والصُّدف الثمينةِ، ثم أمسكت بأصابعها الرقيقةِ قَلَمًا من البوصِ[٤] كانت قد تركته منذ قليل.

و أخذت "خُرَّم" تكتب بذلك القلم بعد أن غمسته في الحبر:

"سلطاني، يا حبيبَ روحي، إن وجهَك كوجه يوسف، وكلماتك أحلى من العسل المصفى !

إنني أتضرّع إلى الله ﷻ، وأبتهلُ إليه، وأرجوه أن يُرِيَني في أقرب وقتٍ وجهَك المبارك.

عجبًا! فلو صارت الأشجار أقلامًا، والبحار مدادًا، فهل ستكفي لتكتبَ وتعبّرَ عن لوعةِ هذا الفراق وألَمِ هذا البُعْدِ؟!

فمن أراد أن يعلم ما أُكابدُه بِبُعْدِك عنّي فليقرأْ سورةَ يوسف، عندها سيدرك آلامَ الفراق..".

وفي السطر الأخير، بَكَتِ "السلطانة خُرَّم" وذَرَفَتْ دمعتين رقيقتين قد سالَتَا من عينيها الزرقاوين النَّجْلاوين، ثم قامت في هُدوءٍ ورِقَّةٍ وطَوَت الخطاب، بعد أن كتبتْ جُملَتَها الأخيرةَ.

وفي تلك الأثناء كانت تحسّ أن صدرها يصعد ويهبط اشتياقًا، وهي تشعرُ بخفقان قلبها، ولا تسمعُ إلا دقّاتِ قلبها المتسارعةِ من فَرْطِ وجدها وشوقها.

* * *

لقد كانت"السلطانة خُرَّم" محبوبةَ السلطان القانوني خلالَ فترةِ حكمه، تلك الفترة التي أُطلِق عليها في تاريخ الدولة العثمانية اسمُ "العصر

(٤) البُوص :جمع مفرده بُوصة، وهو نبات من نباتات المستنقعات المُعمّر، من الفصيلة النجيلية، له سيقان مجوّفة وأوراق عريضة وعناقيد زهرية دائمة مثل القصب وهو يستخدم كثيرًا كقلم كتابة. (المترجم)

الذهبي"، لقد كانت "السلطانة خُرَّم" تتميّزُ بالذكاء وتتمتع بشخصيةٍ غامضةٍ معقّدةٍ، فيُحكى عنها أنها قد اشتركت وانخرطت في الأحداث السياسيّة والدمويّة التي وقعت في ذلك العصر...

إنها المرأة التي يُنسَب إليها فَرْض سَطْوَتِها وهَيْمَنَتِها على النساء في بلاط القصر العثماني...

فقد كانت "السلطانة خُرَّم" -بلا شك- أُولَى النساء التي جَسَّدت سيادةَ المرأةِ وسطوتَها، سواء في قصور الشرقِ أو الغربِ على حدٍّ سواء.

هذا، وينبغي علينا -إذا أردنا العلم والإحاطة بتفاصيل حياة السلطانة خرَّم- أن نمتلك القدرة على التحليلِ الصحيحِ للأحداثِ التاريخيّةِ التي تنسَب إليها المشاركةُ فيها، وأن نعلمَ أيضًا أنّ الفهمَ الدقيقَ والكاملَ لتصرفاتِ هذه المرأةِ العظيمةِ إنما هو أمرٌ في غاية الصعوبة، بل يكاد يكون مستحيلًا.

ويُمكِن إرجاعُ السبب في هذا الأمر إلى أن المؤرخينَ العثمانيّينَ أنفسَهم قد امتنعوا عن تسجيل الحقائق، كما أن بعضَ المؤرخين المعاصرين الأتراك تَعَمَّدوا -في سبيل إعلاء فكرة الجمهورية- تشويهَ سُمعةِ كلِّ الشخصيّات العثمانيّة بكلِّ ما أُوتُوا من جهدٍ وقوَّةٍ، دون تفريقٍ بين رجلٍ وامرأةٍ، كذلك نجدُ أن مؤرّخي الجمهورية قد عملوا على الحَطِّ مِن قَدْرِ كلّ القيمِ والمبادئِ، وتحقيرِ كلّ ما يرتبط بفترةِ الحكمِ العثمانيّ، حتى إنهم وصلوا إلى درجة التنافُسِ فيما بينهم؛ من أجل تحقيق هذه الأهداف الدنيئةِ..

أما إذا انتقلنا إلى المؤرخين الغربيّين، فنجد أن هؤلاء قد امتازوا عن أسلافهم في تناولِهم للأحداثِ والشخصيّاتِ التاريخيّةِ بالانحياز

التامّ وعدم الموضوعيّة والتزييفِ، فصرفوا جُلَّ جَهْدِهِم في سبيل لَيِّ عُنُقِ الحقيقة، وتحريف الوقائع.

البنت اللطيفة اسمها "خُرَّم"

وفقًا لإحدى الروايات، فقد كانت "السلطانة خُرَّم" ابنةً لِأَسْقُف كاثوليكي فقير يُدْعَى "مارسجلي"، وقد نشأتْ في منطقة "روجاتينو" "روهاتين (*Rohatyn*)" على ضفاف نهر "ليبا (*Lipa*)" في "جاليتشيا (*Galiçya*)".

وفي أثناء الهجمات التي قام بها تَتَارُ القِرم على امتداد نهر "دنيستر (*Dinyester*)" -والمناطق التي تقع ضمن حدود أوكرانيا حاليًا- تَمَّ أَسْرُ "خُرَّم"، وذلك في فترة حكمِ السلطان يووز سليم[٥]، وتمَّ إرسالُها إلى القصر في عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م).

وقد اختلفت الآراء حول حقيقة أصل "خُرَّم"، فعلى الرغم من إشارة مجموعةٍ من الروايات من مصادر مختلفة إلى كونها ذات أصلٍ روسيٍّ أو بولنديّ، إلا أن "دَانِشْمَنْد" يؤكد لنا أنها بولنديّة الأصل[٦].

لقد كان سكّانُ منطقة "روجاتينو (*Rogatino*)" -التابعة لحكم دولة "لهستان" البولندية- غالبًا من ذوي الشعر الأحمر، وكانت بِنْيَة "السلطانة خُرَّم" تشبههم.

ويذكر بعض المؤرخين أن "السلطانة خُرَّم" قد وُلِدَت سنة (١٥٠٤م) تقريبًا، وقد تم تقديمُها بوساطة "مقبول إبراهيم باشا" عند دخولها القصر العثماني، وعمرها وقتئذٍ يتراوحُ بين الرابعةَ عَشَرَ والسابعةَ عشَرَ عامًا[٧].

---

(٥) "طَيِّب جُوكْبِيلْجِينْ (*Tayyib Gökbilgin*)"، "السلطانة خُرَّم"، وزارة التربية والتعليم، الموسوعة الإسلامية، إسطنبول (١٩٦٤م)، الجزء الخامس، ص ٥٩٣.

(٦) إسماعيل حامي دَانِشْمَنْد (*Danişmend*)، التسلسل الزمني المشروح للتاريخ العثماني، إسطنبول (١٩٦١م)، الجزء الثاني، ص ١٨٧.

(٧) "جَغَطَاي أُولُوجَاي (*Çağatay Uluçay*)"، نساء وبنات السلاطين، أنْقرة (١٩٨٠م)، ص ٣٤.

اسمها الحقيقي هو "أَلِكْسَنْدَرَا (*Alexandra Lisowska*)" وتعرف في المصادر الغربية باسم "روزا (*Rossa*)"(٨)، وكذلك "روسانا (*Rosanna*)"، ولكننا نجد في تلك المصادر الغربية أن اسم "روكسلان (*Roxelane*)"(٩) هو أشهر الأسماء التي تُنْعَتُ بها، في حين نجد أنها لا تكاد تُعْرَف في المصادر العثمانية سوى باسمٍ واحدٍ فقط، هو "السلطانة خَاصَكِي (*Haseki*)"(١٠).

وخلال الفترة الأولى التي عاشتها في القصر سُمِّيت تلك الفتاة -التي لا نجد معلومات دقيقة حول أُولَى أيامِها في القصر- باسم "خُرَّم (*Hürrem*)"(١١) أو "خُرَّم شاه (*Hürremşah*)"؛ وذلك لأنها كانت بشوشةَ الوجهِ ودائمةَ البهجةِ، وبعد عدة سنوات قَضَتْها "خُرَّم" في قصر القِرِم مُنشغِلةً بالتدريب وتحصيل العلم، تمّ إرسالها كهديّةٍ إلى القصر السلطاني من قِبل حاكم القِرِم.

وعلى هذا النحو، لم تكن "خُرَّم" قد أتمَّتْ في القصر القديم، الذي جاءت منه، مرحلةَ التدريب والتعليم، وقتما تَمَّ تقديمُها إلى السلطان سليمان القانوني عام (١٥٢٠م) الذي لم يَمْضِ على اعتلائه العرشَ العثمانيّ أكثرَ من شهرين.

ويفهم من هذا أنها -حتى ذلك الوقت- كانت قليلة الخِبْرَةِ، ولم تكن على قَدْر من الوعي والثقافة اللذين يؤهِّلانِها لِأَنْ تكونَ زوجةً للسلطان(١٢).

---

(٨) "روسا" تعني في اللغة الإيطالية الأحمر.

(٩) لقد ذكر مثقفو وأدباء عصر النهضة أن اسم "روكسلان (*Roxelane*)" بناءً على معناه يعتبر من أسماء النساء في روسيا، وربما قصدوا أيضًا بذلك التلميح إلى القبيلة التي يشير إليها هذا الاسم، تلك القبيلة التى عاشت في روسيا منذ القدم.

(١٠) جاهد بَلْطَجي (*Baltacı*)، "السلطانة خُرّم"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول (١٩٩٨م)، الجزء الثامن عشر، ص ٤٩٨.

(١١) "خُرّم" هو اسم فارسي معناه المرحة وذات الوجه الباسم.

(١٢) يلْماز أُوزْتُونا (*Yılmaz Öztuna*)، تاريخ تركيا، الجزء السادس، ص ١٨٢.

اللوحات المُجَسِّدة لصورة "خُرَّم"

تعتبر اللوحات التي رُسِمَتْ في ذلك الوقت للسلطانة "خُرَّم" دليلًا مهمًّا يوضِّح لنا الهيئة والصورة التي كانت عليهما "السلطانة خُرَّم"، ولكن على سبيلِ التقريبِ لا المطابقة؛ إذ إنه وفقًا لتقاليدِ ذلك العصرِ، لم يكن من الممكن للسلطانة "خُرَّم" أن تقفَ أمام أحد الرسامين لتأخذ الوضع الذي سيرسمها عليه!

وبِناءً على هذا، فإن الصورَ المتاحةَ بين أيدينا اليوم، والتي تُنْسَب إلى "السلطانة خُرَّم" لا يمكن اعتبار أيٍّ منها صورًا حقيقية لها، وإنما هي صُوَر تقريبية لِما كانت عليه من هيئةٍ وشكل.

ولا يذكر لنا المؤرخون أن "خُرَّم" كانت تتمتَّعُ بجمالٍ بارعٍ، لكنهم يذكرون لنا أنها كانت تتمتَّعُ بجاذبيَّةٍ ذات طابَعٍ خاصٍّ؛ حيث أَحَبَّها القانوني عندما رآها لأول وَهْلةٍ، وارتبط معها برباطِ الزوجية، في علاقة امتدَّتْ طوال سنوات حياته، مانِحًا إياها مكانة خاصة في قلبه[١٣].

وها هو الرحالة الإيطالي "بيترو براجادينو (*Pietro Bragadino*)" يصف لنا "خُرَّم" الروسية، التي شَعَرَ بالسعادة عند رؤيتها عام (١٥٢٦م)، قائلًا:

"ليست جميلةً، لكنها لطيفةً"[١٤].

لم يكن السلطان القانوني مُولعًا بالنساء

باعتِلاء السلطان القانوني عَرْشَ الخلافةِ العثمانيَّةِ، بدأتْ أكثرُ مراحل التاريخ العثمانيِّ عَظَمةً ورَوْعةً، فقد شاع نبأُ اعتلائه العرش في كلِّ أرجاء المعمورة، وعلمت به كلُّ المدن والدول الأوروبية.

(١٣) طَلْعَت خصوجي أوغْلُو (*Hasırcıoglu*)، "السلطانة خُرَّم" بين سيدات القصر العثماني اللاتي حكمن السلطنة، المجموعة التاريخية المصورة، إسطنبول (١٩٥٦م)، الجزء السابع، العدد، ٧٣، ص ١٧.

(١٤) ترجمت هذه العبارة عن الجملة التالية التي كتبت بالإيطالية: (*Giovine non bella ma grassiada*).

"السلطانة خُرّم" وزوجها سليمان القانوني



لقد كان سليمان القانوني الذي اعتلى العرش، وهو في السابعة والعشرين من عمره، يتمتَّعُ بهيبةٍ تُجبِر أيّ شخصٍ على توقيره بمجرّد أن يراه.

كان مستديرَ الوجه، ذا حاجبينِ مقوّسينِ، وعَيْنينِ عَسَليَّتينِ، وشارِبينِ عَظِيمينِ؛ كانت له هَيْبةُ السَّبعِ، وصوتٌ كالرعد، كان من طِرَازِ والِدِه السلطان "ياووز (*Yavuz*)"؛ حيث كان ذا أَنْفٍ معقوف[١٥] تُمَيِّز الرجال المُنْحَدِرِينَ من نَسْل آل عثمان، وكانت أفعالُه توحي بالخصال التي ورثها من أجداده.

تميّز القانونيّ -طوال فترةِ حياته المزدهرةِ- بالاعتدالِ وعدم المَيلِ إلى العصبيّة والتأنّي في جميع الأمور، وقد كان لتلك الخصال دورٌ كبير في اتخاذه القرارات.

ويروي الكثير من المؤلفين عن السلطان سليمان أنه لم يكن يشرب الخمر رغبةً منه لكيلا يكون لديه أيّ نوعٍ من أنواع الهَوَسِ أو التعلّق بالنساء أو ذهاب العقل، رغم عدم وجود ما يحول بينه وبين ذلك.

وكان من المعروف عن زوجته السلطانة "جُلْبَهَارْ (*Gülbahar*)" والدة ابنه الأكبر الأمير مصطفى، أنها كانت للقانوني بمثابةِ قُرَّةِ عينه ومحبوبته الأولى التي تعرَّف إليها أثناء فترةِ ولايته للعهد، ولكنه بعد أن تَعَرَّفَ إلى "خُرَّم"، أصبحتْ هي المسيطرةُ على قلب القانوني، وملأت عليه كلَّ لحظات حياته.

وَلَعَلَّ بَقَاءَه مع المرأة نفسها لمدّة سبعةٍ وثلاثين عامًا من حياته، لَهُوَ أكبرُ دليل مُقْنِع على بُطلان الادِّعاءات التي أشاعت عنه أنه كان فاسقًا و زِيرَ نساءٍ.

---

(١٥) أَنْف مَعْقُوف: اي مُعْوَجٌ بيْنَ أَرْنَبَتِهِ، ومكوَّرٌ من وسطه. (المترجم)

السلطانة الوالدة

قام السلطان سليمان بعد اعتلائه العرش، بإحضارِ والدتِه السلطانة "حفصة (*Hafsa*)" التي كانت مقيمة في "مانيسا (*Manisa*)" إلى إسطنبول، بعد أن هَيَّأَ لها وضعًا يَلِيق بها وبمَكانتِها.

وبذلك يَتَسَنَّى لهذه السيدةِ -التي كانت تعيسةَ الحظِّ، وأقصاها السلطانُ "سليم" من الحريم لسنوات طويلة- أنْ تحيا أخيرًا بسلامٍ وطمأنينةٍ، وأن تنالَ مكانتَها في بلاطِ القصرِ العثمانيّ.

وقد حصلت السلطانة حفصة على لقبِ "السلطانة الوالدة" -الذي أصبح يُطلَق عليها بعد تولّي السلطان سليمان الحكم- وتمكنت مِن الوصول إلى النفوذِ والقوّةِ اللذَينِ لم تستطعْ أن تنالَهما في عهدِ زوجها الراحل.

لقد أصبحت السلطانة حفصة الآن هي المُتحكّمة في قصر السلطان الذي يهيمن على الدُّوَل ويحكم شتّى بقاع الأرض، فلقد أصبحت شؤونُ القصر تحت سيطرتها، والجواري رهنَ إشارتها، وصارت أخصَّ نساء السلطان القانونيّ؛ أي: "جُلْبَهَارْ" و"خُرَّم" تبذُلان قصارى جهدهما لعَدَمِ إبداءِ ما قد يزعجُها أو يُكدِّر صفوَها؛ لِيَنَالَا رِضا السلطانة الوالدة عنهما.

فرحتا السلطان

كان أوّلُ ما قام به السلطان القانوني بعد أن اعتلى العرش هو إخماد التمرُّد الذي تَزَعَّمَه والي الشام "جَنْبَرْدِي غَزَالي (*Canberdi Gazali*)"، الذي انتهزَ فرصةَ انتقال مقاليد الحكم في السلطنةِ، وأعلنَ العصيانَ على السلطان سليمان.

كان الغزاليُّ يطمحُ إلى إعادةِ إحياءِ الإمبراطوريّةِ المملوكيّةِ؛ معتقدًا أنه أمام حاكمٍ شابٍّ جديدٍ بلا تجربةٍ، فأقام حِلفًا مع كلٍّ من إيران وفرسان رودس.

لكن "شَهْسُووَارْ أُوغْلُو (*Şehsuvaroğlu*) علي بَكْ" حاكم "دولقادر" والذي عيَّنه السلطانُ الجديد تَمَكَّنَ مِن إلحاق الهزيمةِ بوالي الشام وضَرْبِ عُنُقِهِ في السادس من شباط/فبراير عام (١٥٢١م).

* * *

وبينما كانت حرب القضاء على التمرّد في الشام مستمرّة، كان السلطان سليمان مشغولًا في إسطنبول بالإعدادِ لحملةٍ عسكريّةٍ جديدةٍ.

حيث إن سفير الدولة العثمانية "بَهْرَامْ جَاوُوشْ (*Behram Çavuş*)" كان قد اغتِيلَ بأمر من "ليوش (*Layoş*)" الثاني ملك المَجَر بعد أن قام بتعذيبه، وكان هذا السفير قد تمّ إيفاده إلى المجرِ مِن قِبَلِ الدولة العثمانية من أجل تحصيلِ الجزيةِ، حامِلًا في الوقت نفسه الخبر السلطانيّ بجلوس السلطان الجديد على العرش، لقد اعتُبِر هذا العملُ الوحشيُّ خرقًا واضحًا للقانون الدولي، وبالتالي كان سببًا لوقوع الحرب.

فمثل ذلك العمل لم يكن مما يجوزُ أن يُرتَكَبَ في حقِّ سلطانٍ يحكمُ العالَمَ مثل سليمان القانوني، فضلًا عن التزامه في الوقت نفسِهِ بكلِّ المعاهداتِ والقوانينِ والحقوقِ مع الدول والكيانات الأخرى.

كان ملك المجر قد أصابه الغرورُ، لا سيّما وأنه كان متزوجًا من أخت الإمبراطور "شارلكان (*Şarlken*)" الألماني، وقد اعتمد في اقترافه هذا الفعل الشنيع على علاقة النسب التي تَرْبُطُهُ بذلك الإمبراطور؛ متوهّمًا أن هناك قوّةً ستقف وراءه وتحميه[١٦].

(١٦) ضيا نور أكْسُونْ (*Aksun*)، التاريخ العثماني، إسطنبول (١٩٩٤م)، المجلد الأول، ص ٢٣٩.

تحرّكَ الجيشُ العثمانيّ مُتَّجِهًا إلى المَجَرِ، قاطعًا شبهَ جزيرةِ البلقانِ، واستمر في الزحف حتى استطاع الوصولَ إلى مشارف نهر "سافا (*Sava*)" في وقت قصير جدًّا، وفي غضون تسعة أيام تمكّن من الانتهاء من إنشاء جسرٍ كبيرٍ على ذلك النهر الذي يبلغ طوله ألفًا وثمانمائة ذراع، ثم استطاع بعد ذلك أن يعبُرَ النهر ويصل إلى منطقة "سيرم (*Sirem*)" التي تضمّ داخل حدودِها "بلجراد (*Belgrad*)".

كانت (بلجراد) واقعةً تحت الحصار منذ قرابة الشهر، من قبل الجيش الذي أرسله السلطان سليمان قبل ذلك تحت قيادةِ الوزير "بيري (*Piri*) باشا"، وبعد أن اشتدَّ الحصار بدعم من القوّاتِ الإضافية ازدادت الهجمات على المدينة.

وفي نهاية الأمر، سقطت مدينة "بلجراد" في يد العثمانيين يوم الثامن من آب/أغسطس من عام (١٥٢١م)(١٧).

أراد السلطان سليمان إعادةَ إعمارِ المدينةِ المدمّرةِ، فأمر بإنفاق عشرين ألف قطعة من الذهب من أجل تحقيقِ هذا الهدف، ثم بعد ذلك القرار -الذي يدلُّ على تحضُّر وحكمةِ العثمانيّين- أخذت المدينة في التطوُّر والازدهار؛ حتى أصبحت مدينةً تجاريةً كبيرةً.

أما أوروبّا فقد تلقت خبر فتح "بلجراد" بحزن عميق، في الوقت الذي أُضِيفَت إلى هذا النصر الكبير فرحةٌ ثانيةٌ أثلجت قلبَ السلطان القانونيّ، وذلك عندما أنجبَتْ له زوجتُه الحبيبةُ "خُرَّم" الأميرَ محمدًا، الذي عمّت البهجةُ الدنيا بقدومه.

---

(١٧) أكشنون، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٢٤١.

وبهذا القدوم السعيد للمولود الجديد استطاعت "خُرَّم"، وهي لا تزالُ جاريةً شـابّةً ذات السبعة عشـر ربيعًا، أن تنالَ وتفوز بلقب "خَاصَكِي"[١٨]، وتمكّنتْ في الوقت نفسه من أن تجعلَ الشابَّ الحاذق ذا الثمانية والعشرينَ عامًا يعيش فرحتين.

"لا أُنكِرُ شعوري بالأسف لما أصاب هذا الكافر"

قضى السـلطان القانوني موسـم الشـتاء من عـام (١٥٢١م) في إعدادِ أسـطولٍ بحـريٍّ جديدٍ؛ لقد كان يرغب في الاسـتيلاء على قلعة "رودس" التـي كانـت بِيد فرسـان "سـانت جيـن (*Saint Jean*)"، لا سـيّما أنّ هؤلاء الفرسـان كانوا قـد دأبوا على القيام بأعمالِ السـلبِ والنهبِ تحت دعوى خِدمـةِ المسـيحيّةِ، وكان هؤلاء الفرسـان يجنونَ ربحَهُم عـن طريق نهْبِ سُفُنِ المسلمين وبَيعِ كلِّ مَنْ كانوا يجدونهُ بها كأَسْرى وعبيد.

كانت "رودس" تتمتّـعُ بالتماسُكِ الداخليّ في ذلك الحين، وكان يُعَدُّ ضربًا من المستحيل الاستيلاءُ عليها؛ فقد قام الفرسان باتخاذِ كافّةِ التدابير اللازمة لتحصينِ القلعةِ ومنـعِ الجيشِ العثمانيّ من دخولها، وسدُّوا مدخلَ الميناء في وجه سـفنِ البحريّةِ التركيّةِ بسلسـلةٍ معدنيّـةٍ طويلةٍ؛ كتلك التي كانت موجودة عند مدخل ميناء بيزنطة.

لكن بفضل ما تمتّع به الجيشُ العثمانيّ من تقنيّاتٍ حربيّةٍ متطوّرةٍ إلى جانـب قوّةِ النيران التي كان يقذفها بِحِرَفِيّةٍ ودقّةٍ، فقد اسـتطاع أن يحسـمَ هذه الحرب بشـكلٍ سـريـعٍ لصالحه، ورغـم الخسـائر الكبيـرة فقد تمكّنَ العثمانيُّون من القضاء على قوّات فرسـان "سـانت جيـن" في الثلاثين من

(١٨) خاصَكية: إنه أطلق على الجواري اللاتي وجدن القبول من السلطان واحتظين بحظوته. (سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، الرياض-٢٠٠٠م)، ص ٩٥. (المترجم)

تشرين الثاني/نوفمبر من عام (١٥٢٢م)، حيث وافق قائدُ قلعةِ "رودس" على تسليمِها بعد أن أدرك أنه لا فائدةَ من المقاومة؛ شريطةَ أن يخرج سالِمًا بسفنه وأن يأخذ معه كلَّ ما يمكن حمله.

وقد فرح السيد الأعظم "فيليرس د. إيسلي (*Viliers de I'Isle*)" فرَحًا شديدًا لدرجة أنه قَبَّل يد السلطان سليمان مُعرِبًا عن شكرِه وتقديرِه لِقَبُولِه بشروط التسليمِ التي عرضوها عليه، وأخذ في الاستماعِ إلى كلمات الشفقة من السلطان سليمان، حيث تحدَّث إلى المسؤول عن جناحه الخاصّ، الذي كان يقف إلى جواره في تلك الأثناء قائلًا:

> "لا أُنكِرُ شعوري بالأسف؛ إذ أُخْرِج هذا الرجل في مثل هذه السن من دياره".

وبالطبع، فإن مثل هذه الكلمات لا تشير سوى إلى رجاحةِ عقلِ القانونيِّ، وكيف كان إنسانًا مُرْهَف المشاعر رقيقَ الإحساس[١٩].

لقد أحدثَ سقوطُ رودس أثرًا كبيرًا وصَدًى واسعًا في أوروبّا، وكان هذا السقوط إيذانًا ببدايةِ صفحةٍ جديدةٍ من الصراع بين الشرق والغرب.

مِنْ مسؤول الجناح الخاصِّ إلى منصب الصدر الأعظم

كانت هناك مفاجأةٌ جديدةٌ بانتظار السلطان أثناء عودته إلى إسطنبول عابرًا بحر "مرمرة (*Marmara*)"، فقد أنجبتْ له حبيبَتُه وأم ابنه "خُرَّم" مولودةً جديدةً هذه المَرَّة[٢٠].

كذلك فقد شهد القصر السلطاني في السابع والعشرين من حزيران/يونيو من عام (١٥٢٣م) حدثًا آخَرَ غير مُتَوَقَّعٍ، فبعد أن خدمَ "بيري باشا"

---

(١٩) أكشون، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٢٤٥.

(٢٠) "السلطانة مِهْرِماة" هي الابنة الوحيدة للسلطان "القانوني" و"السلطانة خُرّم"، يعتقد أنها قد ولدت عام (١٥٢٢م)،

بنجاح لمدة خمسِ سنواتٍ وتسعة أشهرٍ وأربعة عشر يومًا في منصبِ الصدرِ الأعظمِ فقد تمَّ عَزْلُه، وخُصِّصت له مكافأة تبلغ مائتي ألف عملةٍ عثمانيّةٍ، وعُيِّن مكانه "إبراهيم أغا"(٢١) مسؤول الجناحِ السلطانيّ الخاصّ (الذى سيصبح فيما بعد إبراهيم باشا)، وذلك بعد أن حازَ ثقةَ السلطان التي كانت تزداد به يومًا بعد يوم أثناء حملتَيْ "رودس" و"بلجراد" اللتين سبق أن اشترك فيهما(٢٢).

كان تعيين الشابّ المسؤول عن الجناحِ الخاصّ والبالغ من العمر ثمانيةً وعشرين سنة في منصبِ الصدرِ الأعظم(٢٣) متجاوِزًا كُلَّ الوزراءِ الآخرين حَدَثًا غيرَ عاديّ، ومُخالِفًا للتقاليدِ؛ حيث لم يُقابَلْ هذا التعيينُ بترحيبٍ كبيرٍ في أوساط القصرِ، لكن هذا التعيين يدلّ بوضوحٍ إلى مدى قدرةِ السلطان على اختيار الرجل المناسب ذي الكفاءة العالية، ووضعِه

(٢١) - "براهيم باشا" (١٤٩٥ - ١٥٣٦م)، كان والده صيادًا إيطاليًا من مدينة (جنوة)، حيث ولد "إبراهيم باشا" في منطقة (بارجا) المواجهة لجزيرة (كورفو)، وقد أُخِذَ أسيرًا في إحدى هجمات القراصنة الأتراك، وتم بيعه لامرأة غنية في (مانيسا)، وقد قامت هذه السيدة بتربية ذلك الطفل الذكي الموهوب؛ حيث أعطته اسم "إبراهيم" الشائع في الثقافة التركية، وبفضل ذكائه واجتهاده فقد أتقن "إبراهيم" اللغات الكرواتية والإيطالية واليونانية إلى جانب تعلمه في البداية اللغات التركية والعربية والفارسية، كذلك فقد أظهر تفوقًا كبيرًا في الموسيقى والأدب، وكما يروي "هامر" عنه، فقد كان "إبراهيم باشا" يهوى بشغف الأعمال المتعلقة بالتاريخ والجغرافيا؛ حتى إنه كثيرًا ما كان يطالع تاريخ الحروب التي خاضها القائدان "الإسكندر" و"هنيبال"، وذات يوم وبينما كان ولي العهد "سليمان" -الذي كان في الوقت نفسه حاكم صاروخان (مانيسا الآن)- يتجول في المدينة فإذا به يسمع صوت عزف بديع على الكمان، كان "القانوني" مولعًا بالموسيقى، فأراد أن يتعرف على الشخص الذي كان يعزف، واستطاع "إبراهيم" أن يترك أثرًا لدى ولي العهد بعد أن تم استدعاؤه لمقابلته، حيث بدأت توجه له بعد ذلك الكثير من الدعوات إلى قصر (صاروخان)، وعندما رأت السيدةُ التي تعيش في (مانيسا) العلاقة الوطيدة التي كانت تجمع "إبراهيم" وولي العهد "سليمان" الذي سيصبح بعد فترة على رأس الدولة العلية فقد قامت بعتْقِ "إبراهيم" -الذي ربّته كابنها- من غُلِّ العبودية ليصبح حرًا، وكان من ضمن القرارات التي اتخذها ولي العهد "سليمان" عند اعتلائه العرش في الثلاثين من سبتمبر (١٥٢٠م) قراره بتعيين "إبراهيم" ضمن موظفي (الجناح الخاص) الذي كان يعتبر من أقرب المؤسسات إلى حاكم البلاد.

(٢٢) "دنيز أوزر (*Deniz Özer*)"، (الصدر الأعظم الذي غضبت عليه السلطانة "خُرّم")، مجلة العالم التركي التاريخية، إسطنبول (١٩٨٨م)، العدد رقم ٢٤، ص ٢٩.

(٢٣) على امتداد تاريخ الدولة العثمانية كان "إبراهيم باشا" هو أصغر الشخصيات سِنًّا التي تولَّتْ منصب الصدر المظم باستثناء "كوبورلو زاده (*Köprülüzâde*) فاضل أحمد باشا".

في المكان المناسب والمناصب الحساسة وفقًا لقدراته[٢٤].

والحقيقة أن إبراهيم باشا كان على الدوام عند حسنِ ظنِّ السلطان، ولم يكن يخذله إلا نادرًا.

مجمع السلطانة الوالدة حفصة

لقد بدأت السلطانة الوالدة "حفصة" التي كانت مشهورةً بحُبِّها للأعمال الخيرية، في عام (١٥١٣م) بإنشاء مُجَمَّعٍ[٢٥] كبيرٍ في مدينة "مانيسا (*Manisa*)" التي كانت تقيم بها، في الوقت الذي كان ابنها الأمير سليمان يشغل منصبَ حاكمِ ولاية" صاروخان"، وقد كان ذلك المُجَمَّعُ الكبيرُ يضمّ مدرسة ودارًا لتحفيظ القرآن للصبيان ومسكنًا وتكيةً للصوفية ومشفًى وحمامًا.

وفي أواخر سنة (١٥٢٣م) بعد عمل استغرق عَشْرَ سنوات، تَمَّ الانتهاءُ من بناء جزءٍ كبيرٍ من هذا الصرحِ الشامخِ المعروفِ باسم "مُجَمَّعِ السلطانيّة" بما في ذلك الجامع والأبنية المُلحَقة به، ولم يكن ينقُصُهُ سوى المشفى والحمام.[٢٦]

وممّا أدخلَ السرورَ إلى قلب السلطان الشابِّ أن "مجمع السلطانية" التي كانت أمه شغوفةً به جدًّا قد اكتمل بناؤه بعد ولادةِ ابنته الوحيدةِ مِهْرِمَاهْ سلطان"...

---

(٢٤) حتى زمن "القانوني" لم يظهر على الساحة خبير في مجال السياسة الخارجية مثل "إبراهيم باشا". فقد استطاع في مدة وجيزة للغاية أن يحل المشاكل التي كانت موجودة في ولاية كبيرة وحديثة العهد من ناحية ارتباطها بالدولة العثمانية كولاية مصر، ومن خلال الإصلاحات التي قام بها استطاع أن يرتقي بمستوى المعيشة في تلك الولاية. وهكذا تمكن من خلال إنجازاته في مصر أن يظهر براعته في ميدان السياسة الخارجية إلى جانب تمتعه بكفاءة عالية في الجوانب الإدارية.

(٢٥) مجموعة من الأبنية تحتوي في داخلها على مسجد ومدرسة ومكتبة وحمام ومشفى وسوق وتكية وزاوية لأجل تحقيق أهداف اجتماعية. (المترجم).

(٢٦) بعد وفاة السلطانة الوالدة "حفصة" قام ابنها السلطان "القانوني" عام ١٥٣٤م بإضافة حمام ومشفى إلى المجمع الخيري الذي ينسب إليها.

وفي نهاية هذا العام أنجبت "السلطانة خُرَّم" أيضًا للسلطان ابنَه الذكر الثاني الأميرَ عبد الله.

زفاف ليس له مثيل!

بعد أَحَدَ عَشَرَ شَهرًا من تولّي إبراهيم باشا مَنْصبَ الصدرِ الأعظمِ، عقد قِرانَه على أخت السلطان سليمان، التي هي في الوقت نفسه إحدى بنات السلطان "ياووز سليم الأول وبمناسبة الزفافِ أُجرِيَت احتفالاتٌ عظيمةٌ(٢٧) في ساحة "آت (*At*)" ("ميدان سلطان أحمد" حاليًا)، الذي عُرِفَ فيما بعد بـ"قصر إبراهيم باشا".

وبهذا الزفاف الرائع عظُمَتْ مكانةُ وسلطةُ إبراهيم باشا إلى حدٍّ كبيرٍ، فمع أنه لم يتجاوزِ الثلاثينَ من عمره إلا أنه وضمنَ فترةٍ وجيزةٍ -من خلال ذكائه المتوَقِّد، ووفرةِ حيلتِهِ، وكثرةِ دهائِهِ، ونضوج خبرته- استطاع أن يُحيطَ ويُمسكَ بمفاصل الدولة، وأن يُظهرَ لِمَنْ حوله مدى تفوُّقِ إدارتِه الداخليّةِ، وعظمةَ حُنْكَتِه على صعيد السياسة الخارجيّة، ولقد ظهر هذا للعلنِ عندما نجح في تجاوز الأحداث التي حصلت في مصر -وكانت مصر قد انضمّت حديثًا كولاية جديدة من ولايات الدولةِ العثمانيّة- واستطاع أن يُحسّن الظروف المعيشية للشعب هناك، وظهرت حُنْكَتُهُ أيضًا حينما استطاع أن يُخمدَ التمرّدَ الذي قام به العلويّون في الأناضول(٢٨).

* * *

(٢٧) استمر هذا العرس التاريخي من الثاني والعشرين من أيار/مايو إلى الخامس من حزيران/يونيو (١٥٢٤م)، لقد كان زفافًا عظيمًا يذكرنا بحكايات ألف ليلة وليلة. حيث نُصب عرش السلطان داخل فسطاط عظيم، تم إعداده من أجل "سليمان القانوني" في ميدان "آت". كما تم تجهيز التعريشات والأرائك والمجالس من أجل الوزراء والأمراء وسائر رجال الدولة. وقد اتجه الوزير الثاني إياس باشا الذي تولى مهمة أن يكون وكيل العريس مع رئيس الإنكشارية إلى السلطان، حيث وجهوا له الدعوة رسميًا لحضور الزفاف، وقبل "القانوني" الدعوة بعد أن مدح كثيرًا الوزير الأعظم الشاب. ويعتبر استمرار حفلات الزفاف الخاصة بالقصر العثماني القديم لعدة أيام وليالٍ، من أهم السمات التي تلفت النظر في هذه الاحتفالات من ناحية المراسم والتقاليد، (دَانِشْمَنْد، المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ١٠٣).

(٢٨) إسماعيل حقي أُوزُونْ جَارْشِيلي (*Uzunçarşılı*)، التاريخ العثماني، أنقرة (١٩٧٥م)، المجلد الثاني، ص ٣٥٦.

أثناء العرس اقترب السلطانُ سليمانُ من العريسِ إبراهيمَ باشا، وتوجَّهَ إليه بالحديث قائلًا:

- "قل لي: أيُّهما الأروعُ حفل زفافك أم حفل ختان أولادي؟".

أجاب إبراهيم باشا بلا أيّ تردُّد:

- "لم يكن، ولن يكون هناك أيُّ حفلٍ في روعةِ أو جمالِ حفلِ زفافي!"

أَحَسَّ القانونيُّ بالضيق عند سماعه هذا الجواب غير المتوقَّع، واجتهد لكي يُخفِيَ غَضَبَه سائلًا:

- "لماذا" ؟

فأَجابَه إبرهيم باشا بكلِّ هدوءٍ:

- "إن ذلك الحفل لم يكن في روعةِ حفل زفافي؛ لأن في حفل عُرْسِي يوجد السلطانُ سليمانُ: سلطانُ البَرَّينِ والبَحْرَينِ وخادمُ الحَرَمينِ الشريفين، لقد نال زفافي شرفَ حضور جلالتكم!".

ارتاح السلطانُ كثيرًا عند سماعه لهذا الجواب العاقل وعلَّقَ قائلًا:

- "إنني أُهَنِّئُكَ أَلْفَ مَرَّةٍ، لقد أَبْهَرْتَنِي"(٢٩)

أثناءَ احتفالات الزفاف جرى هناك حدثٌ آخر هامّ ومؤثِّر، فقد وُلِدَ الأميرُ "سليم" الذي سيجلسُ على العرشِ بعد والده السلطان سليمان؛ ليحتلَّ بذلك الرقمَ الحادي عشَرَ ضمنَ تسلسلِ حكامِ وسلاطين الدولة العثمانيّة.

---

(٢٩) محمد هَمْدَمي شَلَبي (*Hemdemi Çelebi*)، تاريخ صُولَاكْ زَاده (*Solakzâde*)، أنقرة (١٩٨٩م)، المجلد الثاني، ص ٤٧٧.

ففـي الثامن والعشـرين مـن أيار/مايو من عـام (١٥٢٤م) وُلِـدَ الأمير سـليم ليكون الابنَ الثالثَ للسـلطان سـليمان من "السـلطانة خُرَّم"، الذي بمولـده ارتفعت مكانة "خُرَّم" لدى السـلطان القانونيّ، بينما أخذت مكانة السلطانة "جلبهار" -أم الأمير مصطفى ولي العهد- تتلاشى شيئًا فشيئًا.

ويعتبـرُ قدومُ هذا المولود هو البداية الحقيقيّةُ للعداوةِ والمنافسـةِ بين كلٍّ من "خُرَّم" و"جلبهار".

إلهي لا تخذل أُمَّةَ محمد المسلمة!

بدأ الإعداد لحملةٍ عسكريّةٍ كانت موجَّهةٍ ضدّ دولة المَجَرِ بناءً على عدّة تطوّراتٍ شـهدتها المنطقة، كانت من هذه التطوّرات الأعمالُ العدائيّةُ التي قامت بها دولة المجر تجاه السفنِ العثمانيّة، بالإضافة إلى قيام المجرِ بعقدِ حلفٍ عسـكريٍّ مـع "بوغدان"، هذا إلى جانب ظهور علاماتٍ على نشـوءِ إمبراطوريّـةٍ أوروبيّةٍ جديدةٍ تحت قيادة "شـارلس كنـت (*Charles Quint*)"، لا سيما بعد المُعاهَدة التي تمّ إبرامها مـع الصفويين.

ففي الثالث والعشرين من نيسان/إبريل من عام (١٥٢٦م) وبعد أن قام السلطان بزيارة ضريحَي كلٍّ من "أبي أيوب الأنصاري: خالد بن زيد ﷺ" و"أبي الوَفَا" خرج على رأسِ حملةٍ عسـكريّةٍ إلى المَجَر مـع جيش قوامُه مائةُ ألفِ جنديٍّ مدجَّجين بالسلاح ومعهم ثلاثمائة مدفـع.

تمكَّن السـلطان سـليمان مـن الوصول إلى "بلجراد" مـع جيشٍ تميّزَ بالدقّةِ والانضباط بعد أن اجتاز "أدرنه" و"صوفيا"، وفي الوقت نفسـه فقد تمكّنَ الأسـطولُ العثمانيّ المكوَّن من ثمانمائةِ سفينةٍ صغيرةٍ من الوصول إلـى المدينـة عن طريق نهـر الدانوب، وفي أواخر آب/أغسـطس وصلت القواتُ العثمانيّةُ إلى سهل "مُوهَاجْ (*Mohaç*)" ولكن العدو لم يكن هناك.

خـرج السـلطان من مركـز قيادته واصطحب معه إبراهيم باشـا وباقي القوّاد والأمراء، وأخذ يتجوّل بين الأفواج العسكريّة مُلقيًا كلماتٍ مشجّعةٍ يُلهب بها حماسَة جنوده، وكما ينقل لنا المؤرخ "بَجَوِي":

"كان السـلطان الغـازي علـى رأس المجاهديـن، يرفـع يديه المباركتين عند كلّ عَلَمٍ وراية، دائم الدعاء والمناجاة بعيون دامعة وهو يقول:

- يا إلهي، إن القوةَ والقدرةَ لك، والرعايةَ واللطفَ منك! فلا تخذُلْ يا ربنا ضعفاءَ أمة محمد، وانصرنا على القوم الكافرين". [٣٠]

* * *

وفـي النهاية، دخل جيش الصليبيّين وعلى رأسـه "لايوش الثاني" إلى سـهل "مُوهَاجْ"، وبعد ذلك أخذت الفِرَقُ العسكرية الكرواتية والسلوفانية والسلوفاكية والتشيكية والألمانية والبولندية في التقدم هي الأخرى.

كان فرسـانُ الجيشِ المَجَرِيِّ[٣١] هم أكثرُ وحداتِ الجيشِ قوّةً وبأسًا، وكان هؤلاء الفرسـان قد اسـتطاعوا أن يكتسـبوا خبرةً في قتال العثمانيّين لكثرةِ المواجهات التي كانت دائرةً بينهم لسنواتٍ طويلةٍ، بحيث كانت كلُّ وحدةٍ من هؤلاء الفرسان تُقاتل في الغالب كأنها آلةُ حرب ملتهِبَة.

وقبيـل العصـر، شـرعَ الجيـشُ المجريُّ فـي الهجوم بعـد أن كان قد نفـد صبره، وبعد اشـتباكاتٍ عنيفةٍ بين الطرفين بـدأت وحَدَاتُ العثمانيّين الذين يتمرْكَزونَ في قلبِ الجيش في الانسحاب بِناءً على خُطّةٍ موضوعة، وفـرح الفرسـان المجريُّون وبدؤوا يُلاحقون جنـودَ الجيش العثمانيّ دون أن يُدركـوا الفـخَّ الذي كان بانتظارهم، وخلال فتـرةٍ وجيزةٍ وجد الجيش

(٣٠) أكشونُ، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٢٥٨.

(٣١) يروى أن جيش المجر كان قوامه مائة وخمسـين ألف شخص ومجهز بحوالى مائة مدفع.

المجريّ نفسه بكامل وحداتِهِ مُحاصَرًا من قِبَل قوّات العثمانيين؛ بعد أن تصدّع من كثرةِ الحِمَمِ والنيرانِ التي كان يقذفها الجيش العثمانيّ.[٣٢]

كان هناك قرابةُ ثلاثمائة مدفع تَصُبُّ نِيرانَها في وقت واحدٍ دون توقُّفٍ، ساحِقةً أَمَامَها الفِرَقَ المَجَرِيّة المُدَرَّعة، ومن ناحية أخرى فقد غادَرَ السلطانُ الهَضبةَ التي يوجد بها مركز قيادته مُتَقَدِّمًا بنفسِهِ صَوبَ الخطوط الأمامية، وقد تَمَكَّنَ الفرسانُ التيماريون[٣٣] بعد مدَّةٍ قصيرةٍ من تضييقِ الخِنَاقِ حول الجيش المسيحي، ولم يترك للمجرِيّين سوى مَخْرَجٍ واحدٍ للهربِ من جهةِ مستنقعِ "كاراسو (*Karasu*)".

لقي عشرات الآلاف من جنود الأعداء مَصْرَعهم في ذلك المستنقع بعد أن وصلوا إلى حالة من الإعياء والضعفِ الشديدين، فمنهم من قُتِلَ بالسيف، ومنهم من قُتِلَ بنيرانِ المدافعِ أو البنادق، في حين سقطَ الآلافُ أيضًا منهم أَسْرى.

لم يستطع أحدٌ من الأعداءِ أن ينجوَ بنفسه في هذه المعركة، أما الملك "ليوش" الثاني، فقد لقِيَ حَتْفَهُ غريقًا في المستنقع وقد رافقه في رحلةِ الموتِ هذه جميعُ قوَّادِ جيشه وسبعةٌ من الأساقفة.

(٣٢) أقْسَمَ خمسةٌ وثلاثون فارسًا مَجَرِيًّا منذ ثمانية وثلاثين يومًا قبل ذلك الوقت في (بودابست) أمام ملكهم على أن يُضَحُّوا بأرواحهم في سبيل قتل "السلطان سليمان"، اشتد وَطِيسُ المعركة، وانخرطَ جنودُ الإنكشارية في قتال شديد، ولم يَبْقَ حول السلطان سوى وَحْدَةٍ عسكرية صغيرة، وأخذ الفرسان الخمسة والثلاثون في الاقتراب من السلطان مُستَغِلّين تلك الفرصةَ، فتقدموا نحو السلطان وهم يقاتلون بشجاعة وبأس شديدين، ولقي اثنان وثلاثون فارسًا من هؤلاء الفرسان مَصْرَعهم في سبيل ملكهم، ولكن دون أن يتمكنوا من بلوغ موضع السلطان، وتبقى من هؤلاء الفرسان "مرجزالي" واثنان من الفرسان نجحوا في الوصول إلى السلطان، وعندما رأى السلطان انشغال الضباط المكلفين بحمايته والدفاع عنه بالحرب، وأنه قد أصبح وحيدًا، استَلَّ سَيفَه الطويل ذا المقبض الماسي، فأخذ الفرسان المجريون الثلاثة في إطلاق السهام نحو السلطان، لكن عِدَّةَ سِهَام لم تنجح في أن تَنفُذ في جسده وإن كانت اخترقت دِرْعَه فحسب، وسرعان ما أخذ "القانوني" في مبارزة الفرسان، حتى تمكن من أن يحصد أرواحهم جميعا؛ الواحد تلو الآخر. (يِلْمَازْ أُوزْتُونَا، قصص حياة السلاطين العثمانيين، إسطنبول، الجزء ٢١، ص ٢).

(٣٣) الفرسان التيماريون: اصطلاح عثماني يُطلق على الفرسان المدرَّبين من ذوي الكفاءة العالية، ويعبر عنه في عصرنا مثلا "القوات الخاصة" أو "الحرس الجمهوري" أو "قوات الصاعقة". (المترجم).

وبهذا النصر، استطاع السلطانُ سليمان تدميرَ الإمبراطوريّةِ المَجَرِيّةِ بضربةٍ واحدةٍ، بعد أن دامت قرابة ستِّ مائةٍ وسبعةٍ وثلاثين عامًا.

في اليوم التالي، نظَّم السلطانُ احتفالًا كبيرًا في سهل "مُوهَاجْ"؛ حيث كانت المراسم الفخمةُ لتلك الاحتفاليّةِ بمثابة تجسيدٍ لعاداتٍ وتقاليدَ عاشت مدّة ألفِ عامٍ مع الأتراك، أما السلطان سليمان فقد تقبَّلَ التهانيَ من جيشه، وسمح لجنوده وقوادِ الأفواجِ والألْوِيةِ -وعلى رأسهم إبراهيم باشا- أن يُقَبِّلُوا يَدَيه.

* * *

وبحلول اليوم الثامن، بدأ الجيش العثماني، وعلى رأسه السلطانُ فاتِحُ المَجَرِ، في التحرُّك من "مُوهَاجْ" إلى أن دخل "بودين"، وبذلك تصير خزينةُ مملكة المَجَرِ -التي دامت ستَّ مائة وسبعةً وثلاثين عامًا- تحت إمرةِ السلطان سليمان القانونيّ.

كَلَامُكَ حُلْوٌ ووجهُكَ وَجْه يوسف

في تلك الأيام المليئةِ بالإثارةِ ورائحةِ الدمِ والموتِ والبارود، التي يعيشها السلطان، وصلتْ إليه من "السلطانة خُرَّم" رسالةٌ تُحرّك القلبَ وتَمَسُّ الرُّوحَ.

بدأت "خُرَّم" خِطابَها بكلمات مثل: "الحبيب ذو الوجه الورديّ" و"سلطاني حبيب روحي"، واستمرت في رسالتها كاتبة له:

> "يا مَنْ يُداوي قلبي الحَزِينَ، يا مَرْهَمَ فؤادي الجريحِ، إن عِشْقَك هو سلطانُ عَرْشِ قلبي، لو كنتُ أملك سعادةَ العالم كلِّه فأنا في النهاية جاريةٌ لديك...

أتضرّع بقلبٍ قد احترق مائةَ ألفِ مرّةٍ:

سلطاني، يا جنةَ فردوسي!

إن الدنيا الغَدّارةَ تُؤلمني بظُلْمِها، وتطعنُني في جَنَباتي بخَنَاجِر الفِرَاق، إنها لا ترى دمعاتي المسكينة.

إذا ما فَقَدْتُكَ يا مَنْبعَ جَنّتي الأبديّة، فستنقلِبُ سعادتي إلى شقاءٍ، وسينقلب عالمي إلى تعاسة محقّقةٍ، لقد احترق الإنس والجن من هَوْلِ أَلَمِي وصِيَاحي يومًا بعد يوم...

وأرجو من الله ﷻ أن يرحم دموعي، وييسر أموري، فيرد لي الحياة، وينقذني من ألم الفراق والبعاد...!

"يا سلطاني الرائع اللطيف...

يا من أرى فيه جمالَ يوسف، وأتذوّق بكلماته حلاوةَ العسل المُصَفّى، إنني أبتهل إلى الله وأدعوه كي يُنيرَ وجهي برؤية طَلّةِ وَجْهِك المباركة!

يا تُرى.. لو كانت البحار مدادًا لكلماتي، والأشجار أقلامي، فهل سيكفي هذا للتعبير عن آلامي ببعدك عني وفِراقِك لي؟!..

من يُريد أن يفهم ألم الفِراق فليقرأ سورة يوسف، ليُدرِك آلام المشتاق وهمومه...

سلطاني، يا نُورَ عيني! عندما لا أجدك بجانبي أخشى أن تحترق الدنيا بأسرها من نار آهاتي... وفي الفجر عندما يغيب عني وجهُك الورديُّ أخشى أن ينفرطَ عِقْدُ الأكوانِ من بُكائي وأَنِيني.

إن حنيني إليك يا بدر الاشتياق يُشْعِرُني بالنهار وكأنه ليلٌ حالك السواد، بل إنّ الدنيا كلها تسوَدّ أمامي عند فراقك.

فراقُك يامليكي قد كواني   وبعدُك قد سبى منّي جناني

فآهٍ من بِعادِك ثُمّ آهٍ   من الأشواقِ ياملك الزمانِ

يا لَهَوْل هذا الاشـتياق، آهٍ من الاشتياق، آهٍ من الاشتياق[٣٤]"

آه يا سلطاني... لا يوجد حدٌّ لألَمِ الحَنِين، فإذا أردتم تخفيفَ هذا الألم عني، فلا تتأخروا في إرسال خطابكم الغالي؛ عسى أن تَجِدَ رُوحِي فيه السَّلْوَى والراحة!

الفقيرة الذليلة، جاريتكم "خُرَّم". [٣٥]

* * *

إن "خُرَّم" في رسالتها تلك تُشِيرُ إلى الفراق الأليم الذي حلّ بها.

لقد كانت "خُرَّم" تسـعى إلى أن تأخذ السـلطانَ من العالم الذي كان يعيش فيه -الذي لم يكن به سـوى صهيلِ الخيولِ، ووقـعِ السـيوفِ، وقرعِ الطبـولِ- إلـى عالَمٍ آخرَ، هو عالَمُ العِشْـق والفنّ والشِّـعْر، وكانت تقصد بهذه العباراتِ الغزليَّةِ اللطيفة أن ترقِّقَ قلبه العسكري المتين.

وفي نهاية الرسالة، نراها تتحدّث إلى السلطان عن أبنائها محمد وعبد الله[٣٦] وسليم ومِهْرِمَاهْ، وتضيف إليه كذلك سَلامَ نَجْلِهِ الأمير مصطفى.

وعلى الرغم من أن "خُرَّم" قد نقلت إلى السـلطان حتى سـلام جاريته "جُولْفَـمْ (*Gülfem*)" إلا أننـا لا نجـد ذِكْـرًا علـى الإطـلاق لوالـدة الأمير مصطفى السـلطانة "جولبهـار (*Gülbahar*)" (ت: ١٥٨٠م)[٣٧]، التي كانت في ذلك الوقت تعيش معها في القصر السلطاني، ولعله من الجدير بالذكر

(٣٤) أصل هذا البيت لم يتم العثور عليه، ولكنني على قناعة من أن المعنى الذي يمكن فهمه عند قراءة الشطر الأول، وارتباط كلمة الاشتياق بالشطر الثاني تفهم على هذا النحو :

إن حنيني يا بدر الاشتياق يأتي كالليل الذي يطرق الأبواب

ياله من مصيبة هذا الاشتياق، آه من الاشتياق، وآه من الاشتياق

(٣٥) جَاغَاتَاي أولُوجَاي (*Çağatay Uluçay*)، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول (٢٠٠١م)، ص ٤٠-٤٣.

(٣٦) لقد توفي "الأمير عبد الله" بعد فترة وجيزة.

(٣٧) جُوكْبِيلْجِين، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٥٩٤.

الإشارةُ هنا إلى أن هذا يُعَدُّ دليلًا ملموسًا على مشاعرِ الغيرةِ ونيرانِها، التي كانت تضطرمُ بين السلطانتين في تلك المرحلة.

* * *

لقد أثار السلطان صانعُ نصر "موهاج"، وفاتحُ قلاعِ المَجَرِ ومدينة "بودين" العظيمة مَشَاعِرَ والِدَتِهِ السلطانة "حفصة، لقد كان ابنُها البطل يُحرز الانتصارات في المعارك الكبرى، ويفتح القلاع أينما ذهب، فأيُّ سعادةٍ يا تُرَى أكثر من هذا قد تنالها أُمٌّ، وهي ترى ابنها يحقّقُ كلَّ هذا النجاح.

كانت السلطانة الوالدة حفصة تُذَيِّلُ رَسَائِلَها بـ"المتوكلة على الله" أو "والدة السلطان سليمان شاه" شاعرةً بالفخر بأنها أمٌّ لابنٍ مثل سليمان[٣٨].

نَصَرَكَ الله على الكافرين

بينما كان السلطان سليمان في "بودين" وَصَلَه الخطابُ الثاني من "خُرَّم". وفي هذه الرسالة الثانية كانت "خُرَّم" تُناجِي السلطان سليمان على النحو التالي:

> "سلطاني ومليكي!
>
> إن بكائي واشتياقي ولوعتي تفيضُ بآهاتي الحزينة ودموع عيني وتعاسة قلبي.
>
> إن قدَري أن أتألّمَ لِغَيبَة طَلّتك البهيّة التي فاق نورُها ضياء الشمس، ولكن حيرتي واندهاشي قد زادا مع طول غيبتك وانحجاب وجهك البديع عني...
>
> "سلطاني يا حَبِيبَ قلبي ونفسي... يا مَلِيكي، يا مَنْ مَلَكْتَ رُوحِي إنك أَمَلي في الدنيا والآخرة!

(٣٨) أولُوجَاي، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول (٢٠٠١م)، ص ٧٨.

كان الله في عونك، اللهمّ كن معه، وسخر له كلّ أجزاء الكون، وأبعد عنه الأمراض والأسقام، والطُف به لطفًا أبديًا بحرمةِ وجه حبيبك محمد ﷺ واجعلْ أرواح أوليائك الكرام إلى جواره، واجعله إلهي مظفّرًا ومنصورًا على الكفار في كل زمانٍ ومكانٍ...".

"يا سلطاني، إن خِطَابَكَ وكَلِمَاتِكَ التي وَصَلَتْ إليَّ قد أحيَتني ورَدَّتْ إليّ الرُّوح، لقد بعث خطابُك النورَ في عيوني المظلمة، وأبْهَجَ قَلْبيَ الحَزِينَ، فيا لَسَعَادَتِي! أرجوك ...لا تتوقّف أبدًا عن إحياءِ قلبي وروحي...

"سلطاني.. لقد جاء أَحَدُ الأولياء الصالحين من مكة المكرمة، وقال: إنه قد شاهَدَ رسولَ الله ﷺ في الرُّؤْيَا، وقد أمَرَهُ سَيِّدُ الخلق ﷺ أنْ يُجَهِّزَ قميصًا مخصوصًا يرتديه السلطان سليمان في الجهاد، فأطاع ذلك الوليُّ أَمْرَ النبي ﷺ، وعرض الأمر على "شَهْرِسْتَانِي (*Şehristânî*)" وبعدما تحرّى هذا الأخير الأمر وتأكد من صدق هذا الرجل، سَلَّمَ القميصَ إلى "أمره كوجا (*Emre Koca*)"، وقد أرسله "أمره كوجا" بدوره إلينا، وها أنا ذا أرسله إليكم.

وإني أستحلفك بالله ﷻ وبحرمة النبي ﷺ أن لا تمتنع عن لبس هذا القميص المبارك".

الفقيرة الذليلة، جاريتكم "خُرَّم" (٣٩)

كانت "خُرَّم" حريصةً على أن تُزَيِّنَ خطاباتها إلى السلطان بأبيات من الشعر تفيض رِقَّةً وعُزُوبةً تنثرها بين سطور هذه الخطابات:

أَيَا رياح الصبا! قُولِي لسلطاني: كم أنا مشتاقةٌ وبي لوعةٌ!

قُولِي له: إن فراقي لوجهه الورديّ قد جعلني كالبلبل الجريح،

أَخْبِرِيه أنَّ أَلَمي لم يَجِدْ له أَحَدٌ دَوَاءً أو عِلاجًا،

لقد صارَ قلبي مَرْتَعًا للآلام والأحزان التي سَكَنَتْهُ،

قُولِي له: إنه قد صار كالنايِ مَرِيضًا وهَزِيلًا من أَثَرِ الفراقِ"

(٣٩) أُولُوجَاي، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول (٢٠٠١م)، ص ٤٨-٤٩.

وكما نرى فقد كانت "السلطانة خُرَّم" تتضرع إلى الله ﷻ؛ من أجل أن يحفظ الله السلطانَ ويرعاه، وتبتهل إلى المولى ﷻ؛ لكي يُبعِدَ عنه المرض والمصائب والأحزان، كما كانت تلتمسُ بركةَ النبي ﷺ والأولياء الصالحين من أجل أن ينتصرَ في حروبه ويفوزَ على الكافرين، لقد قامتْ بنفسها بخياطةِ القميصِ الذي حدَّد هيئتَه رسول الله ﷺ في الرؤيا، وأرسلتْه إلى السلطان وهي مُصِرَّة على أن يرتديه أثناءَ الجهاد.

وإذا كان يتّضِحُ من الخطاب مدى غَلَبة الشعور الدينيّ والصوفيّ، فإنه لا يغيب عن أنظارنا أيضًا فَيضُ المشاعر الجيّاشةِ التي تعبّرُ عن أحاسيسِ الفراق والاشتياق.

يتضح لنا كذلك بشكلٍ جليّ -من خلال تلك الخطابات التي كتبتها "خُرَّم" الشابّة ذات الاثنينِ والعشرينَ ربيعًا وبشكل لا يمكن الجدال فيه- مدى تفوُّقِها الكبير في مجال الأدب، وتمتُّعِها بحسّ بلاغيّ عالٍ، سواءٌ في الشعر أم في النثر، إلى جانب تمتُّعِها بمشاعرَ دينيّةٍ وصوفيّةٍ وتراثيّةٍ[٤٠].

كذلك تشير تلك الخطابات أيضًا إلى أن "خُرَّم" قد وصلت إلى درجة عاليةٍ من التعليم، سواء أكان من ذلك النوع المتاحِ في القصرِ أم من مصادرَ مختلفةٍ، كما تدلّ تلك الخطابات بقوّةٍ على ما كانت تتمتّعُ به من ذكاءٍ وفطنةٍ.

كان السلطان سليمان الذي أَخْضَعَ أقوى الجيوشِ الأوروبّيّةِ في فترةٍ وجيزةٍ، قد قابَلَ أشعارَ "خُرَّم" المليئةَ بالأحاسيسِ والحبِّ والعاطفةِ، بإرساله إليها بأشعار مُفْعَمةٍ بالمشاعر والأحاسيس والحبّ الممتزج بالعاطفة الدينية:

(٤٠) في تلك الأثناء أنجبت "خُرّم" مولودا آخر هو "الأمير جهانجير"، وإذا استثنينا ابنتها الأولى "مِهْرِمَاهْ" فإن كل أمير كانت "خُرّم" تنجبه للسلطان كان من العوامل التي تقربها أكثر منه.

لا تَسَلْ مجنونًا ما الحب لِيَشْرَحَهُ لك فإنه مجنون،
ولا تكشفْ سِرَّ الحب لـ"فرهاد" فهو مجرد أسطورة،
إذا أردتَ أن تسأل عن رموز العشق فَسَلْنِي، فأنا بها خبير،
إن العاشِقَ يترك لمحبوبه رُوحَه وعَقْلَه وقد عَمِيَ عَمًّا سِواهُ،
تعالي وشاهدي فؤادي الذي صار كالقصر.
إنه دار مزينة وقد نُقِشَت جدرانُها بدموع عيني الحمراء الدامية (٤١)

* * *

إلـى جانب هذا نجد السـلطان في الرسـالة التي أرسـلها إلـى "خُرَّم" من المَجَرِ يخاطبها قائلا:

"إنني أشتاق إليك يا زوجتي "خُرَّم"،
ولا أرى سواكِ في أحلامي."(٤٢)

ثم يُزَيِّن رسالته بالأشعار التالية:

أيها الطبيب! إن ألم رأسي يزداد، فاتركني كي أرتاح،
إنني مريض بالعشق ولن يفيد في علاج ألمي ما عُرِفَ من دواء،
يا حبيبي! لقد صرت مجنونًا منذ أن عشقت ليلى،
حتى صارت الطيور تصنع أعشاشها فوق رأسي.

حصار فيينّا

اتفقَ أغلب أمراءِ المجر على اختيار أميرٍ جديدٍ لمنطقة "أردل" -وهي الآن أحد أقاليم دولة رومانيا- ألا وهو الأمير"يانوش (*Yanoş*)" الذي اعتلى عرش المَجَرِ بتأييدٍ من الدولة العليّة العثمانية، وبعد اعتلاء الملك الجديد

(٤١) أولوجاي، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول – ٢٠٠١م، ص ٢٢.

(٤٢) نَجَاة ر. أوجْتُوم (*Nejat R. Uçtum*)، الرسائل المكتوبة من قبل السلطانتين "خُرَّم" و"مِهْرِمَاة" إلى ملك بولندا "زيجموند الثاني"، دورية علمية، (١٩٨٠م)، الجزء الرابع والأربعون، العدد ١٧٥، ص ٧٠١.

عرشَ المجر رجع الجيش العثمانيّ إلى إسطنبول، لكن بعد مغادرةِ الجيشِ العثمانيِّ أراضيَ المجَر قام باقي أمراءِ ووُجهاءِ المجَر المناهضين لاعتلاءِ "الأمير يانوش" عرشَ المَجَرِ في "أردل" بتصرُّفٍ غريبٍ حيث قاموا بتنصيبِ قائدِ جيشِ النمسا وأحد عقلائها ونُبَلائها "فرديناند" ليجلسَ على عرش المجر.

وهكذا أصبح للمجر مَلِكان، أحدهما مدعوم من قِبَل العثمانيين، أما الآخر فمدعوم من إمبراطور ألمانيا.

قام "فرديناند" بعد مغادرة الجيش العثماني للبلاد بالهجوم على "بودين"، وبناءً على الوعد الذي قطعه السلطان سليمان بحمايةِ الملكِ "يونوش"، فقد خرج السلطان من دار السعادة وعاصمة الدولة العثمانية -إسطنبول- على رأس جيشٍ جَرَّارٍ قوامُه مائتين وخمسين ألف جندي، وذلك في أيار/مايو من عام (١٥٢٩م)[٤٣].

دخل الجيشُ العثمانيُّ المَجَرَ عابرًا شبه جزيرة البلقان، وقام السلطان سليمان بتتويج "يونوش" مَلِكًا على المجر في احتفاليّةٍ مهيبةٍ، ثم سار بعدها الجيش السلطاني بعد أن استعاد "بودين" في اتجاه "فيينا" التي يوجد بها "فرديناند"[٤٤].

ولم يكن الوقت الذي صادف أواخر أيلول/سبتمبر ١٥٢٩م ملائمًا لإقامةِ الحصارِ حولَ "فيينا"، فاضطرّ العثمانيون في نهاية اليوم الحادي والعشرين إلى رفعِ الحصارِ؛ بسببِ الظروف المناخيّةِ القاسيةِ في فصل الشتاء، وعاد الجيش العثمانيُّ إلى بودين وبصحبته ستين ألف أسير.

---

(٤٣) أوزون جارشيلي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٣٢٩-٣٣٠.

(٤٤) في أثناء حصار (فينا) وصلت هجمات العثمانيين تحت قيادة "محمد بك" ابن "بالي بك (*Bâlî Bey*)" حتى مدينة "راتيسبون (*Ratisbon*)" الواقعة في مقاطعة" بافاريا (*Bavyera*)" وكذلك بلغت مدينة "برون (*Brün*)" إحدى مدن التشيك،

أثناء هذه الحملةِ العسكريّةِ كان إبراهيم باشا يشغلُ عدّةَ مناصبٍ، فقد كان يشغل منصبَ الصدرِ الأعظمِ، ومنصبَ قائدِ الجيش، وفي الوقت نفسه كان إبراهيم باشا أيضًا هو كبيرُ أمراءِ وقوّاد الدولة العثمانيّةِ على الأراضي الأوروبّيّة، وبعبارة أخرى يمكن أن نقول: إن إبراهيم باشا كان يجمع في يديه كافّةَ الصلاحيّات السياسيّةِ والعسكريّةِ والإداريّةِ، وعلى هذا النحو أصبح لإبراهيم باشا اسم جديدٌ صار يطلق عليه، ألا وهو "مقبول باشا"(٤٥).

وفاةُ السلطانةِ الأمّ "حَفْصَة"

بعد أن اطمأنّ "السلطان سليمان" إلى استقرار الأوضاع على الجبهةِ الغربيّة، قرّرَ أن يتوجّهَ صوب الشرق.

لقد كانت إيران منذ حكم الصفويّين في صراعٍ مريرٍ مع العثمانيين، وكان شاه إيران "طهمسب" يمارس ألاعيبَه القذرةَ على أراضي الأناضول كلما سنحت له الفرصةُ، وعندما كانت حركاتُ العصيانِ والتمرُّد تندلعُ، كان الصفويون ينتهزون الفرصةَ ويعملون بكلِّ جهدهم على تأجيجها وعلى إذكاء رُوح الفِتنة؛ لذلك ومن أجل وضع حدٍّ لهذه المسألة فقد اتّخذَ "السلطان سليمان" قرارَهُ بتوجيهِ حملةٍ عسكريّةٍ إلى الشرق(٤٦).

لقد كانت لدى "السلطان سليمان" رغبةٌ قويّةٌ في السيطرة على بغداد وإخضاعها إلى الدولة العثمانية، ومن أجل تحقيق تلك الرغبة تَمَّ أولًا

(٤٥) يروى أن هذا التعيين في منصب الصدر الأعظم قد تم بسبب اتساع رقعة الدولة، وتنامي وزيادة الأعمال؛ حيث يروى كذلك أن "سليمان القانوني" قد أعرب عن هذا الأمر قائلًا: "ليس من المناسب أن يبتّ السلطان وينظر في كل شيء". (أكشون، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٦٤).

(٤٦) كان لدى "شلبي" دراية واسعة بالأمور المالية، حيث استطاع أن يحتفظ بمنصب "باش دفتردار" لسنوات طويلة. ولقد كان لدى "سليمان القانوني" ثقة كبيرة واعتماد عليه. ومن أجل الاستفادة من خبرته في "حملة العراق" فقد قام بتعيينه في منصب "كتخدا سر عسكر" إلى جانب "إبرهيم باشا" الذي أوصاه "القانوني" بنفسه عند التحرك من "دار السعادة" قائلًا: "إن "إسكندر شلبي رجل عالم وخبير، فلا تخالف رأيه".

إرسال الصدر الأعظم "إبراهيم باشا" على رأس جيش في شهر تشرين الأول/أكتوبر من عام (١٥٣٣م). كذلك فقد تمّ تعيينُ رئيسِ دفتردار "إسكندر شلبي (*İskender Çelebi*)" بِنَاءً على سابق خبرته وتجربته في وظيفة مستشار وقائم بأعمال الصدر الأعظم.

وفي أثناء حملة الشرق الموجّهة ضدّ إيران، حدثت واقعة أليمة هزَّتْ أرجاء القصر العثماني؛ إذ تُوُفِّيَت السلطانةُ الوالدةُ "حفصة" في التاسع عشر من آذار/مارس من عام (١٥٣٤م) الموافق الرابع من رمضان من عام (٩٤٠هـ) عن عُمْرٍ يُناهِزُ السادسةَ والخمسينَ عامًا،[٤٧] حيث ظلَّت السلطانة "حفصة" تتمتّع بلقب "السلطانة الوالدة" لمدّة ثلاثَة عَشَرَ عامًا وخمسة شهور وسبعة وعشرين يومًا، كانت خلالها هي المسيطرةُ على جناح الحريم بوصفها "والدة السلطان"، كما كانت في الوقت نفسه محبوبةً من الجميع، لقد كانت السلطانة "حفصة" معروفةً بين الناس أنها تُحبُّ القيام بأعمال الخير، إلى جانب اشتهارها برقّة القلب والرحمة والشفقة، ولقد تمّ دَفْنُ السلطانة "حفصة" في صَحْن جامع السلطان "سليم"، بالقرب من قبر زوجها السلطان "ياووز سليم"؛ حيث قام ابنها السلطان "سليمان القانوني" فيما بعد بإنشاء مقبرةٍ فخمةٍ هناك[٤٨].

وبِناءً على ما يذكره بعض المؤرخين، فلقد كانت وفاةُ السلطانة "حفصة" نقطة تحوّلٍ هامّة للغاية، آذَنَتْ ببداية ما عُرِفَ في القصر العثمانيّ باسم "سلطنة النساء".

(٤٧) علي حَيْدَرْ بَيَاتْ (*Haydar Bayat*)، السلطانة حَفْصَة، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - ١٩٩٧م، الجزء التاسع، ص ١٢٢.

(٤٨) لقد انهدم هذا الضريح الفخم في زلزال عام (١٨٩٤م)، ولم يتم ترميمه رغم مرور حوالي مائة وعشرين عامًا على إنشائه.

وكما يقول لنا "إسماعيل حامي دَانِشْمَنْد": فإن "السلطانة خُرّم" قد بدأت تستغلّ ضَعْفَ السلطان تجاهَهَا، والنفوذَ الكبيرَ الذي نالَتْه بِناءً على هذه العاطفة التي يكنُّها نحوها السلطانُ في تحقيقِ مصالحِهَا الشخصيَّة(٤٩).

لقد أصبحت "خُرّم" هي قُرَّةَ عين السلطان بعد أن أنجبت له الأطفالَ ونجحت في جَذْب انتباهِهِ من بين بقيّةِ الجواري، لكننا لا نستطيع القول إنها قد أصبحت المُهَيمِنةَ على السلطان تمامًا، في الفترة التي كانت فيها السلطانة "حفصة" على قيدِ الحياة.

بالطبع لقد كانت لها مكانة مرموقة بين بقيّة الجواري الأخريات، لكن بعد وفاة السلطانة الأمّ، وبفضل الأطفال الذين أنجبتْهم للسلطان، نالت حريّتَها بعد أن عاشت في القصر -كجارية- فترة من الوقت.

* * *

كانت "ماهيدوران جلبهار خاتون (*Mâhidevrân Gülbahar Hatun*)" أُمُّ الأمير مصطفى هي قُرَّة عينِ السلطان والمفضلةُ لديه في تلك الأثناء التي بدأت تتفوّق فيها "خُرّم" على غيرها من نساء القصر، وتسعى لجذب انتباه السلطان سليمان، ولكن مع تنامي حبِّ السلطان لجاريته الجديدة "خُرّم" بدأت مشاعرُ الغيرةِ الشديدةِ والنفورِ الواضحِ تتصاعدُ بين الاثنتين، ولكن هذا الجوّ السلبيّ والمشحون بين المرأتين المتنافستين لم يظهر ويتّضح للسلطان القانونيّ إلا بعد وفاة أمه، التي كانت تُسَيطِرُ -وبِشِدّةٍ- على جناح الحريم في القصر، لكن بعد وفاة السلطانة "حفصة" تزايد الصراع حِدّةً بين كلٍّ من "خُرّم" و"مَاهِيدَورَانْ"؛ حيث دخلتْ المرأتانِ في طورٍ أكبر وأوضح من العداوة المستمرة التي لا تهدأ.

(٤٩) دَانِشْمَنْد، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٦٢.

وقد تصاعدت حِدّة التوتّر بين هاتين المرأتين، وظهر التناحرُ والتباغضُ والتنافسُ من كليهما بشدّة، حتى وصل الأمر بالسيدة "ماهيدوران جلبهار" أن تطاولت مرّةً على منافستها "خرم"، وأهانتها إهانةً بالغةً؛ حيث لَطَمَتْها على وجهها بكلّ قسوةٍ، ودون شفقة[٥٠].

وعندما عَلِمَ السلطان بالواقعة تدخّل في الأمر، وقام بإرسال "ماهيدوران جلبهار" إلى ابنها وَلِيّ العهد الأمير مصطفى الذي كان في ذلك الوقت يتولّى حكمَ "صاروخان (*Saruhan*)" (أي: مانيسا)، وعلى الأرجح أنه قد عَقَدَ قِرانَه على "خُرَّم" بإصرارٍ وإلحاحٍ منها.

وبناء على ما يرويه سفير ألمانيا "بوسبيك (*Busbecq*)":

لقد كان "القانوني" يحبّ تلك المرأةَ (أي: خُرّم) إلى درجةٍ أنه قد رفعها إلى مرتبةِ الزوجةِ الشرعيّةِ، كما قام بإعدادِ وتجهيزِ جهازِ العروسِ من أجلِها، وهو ما يُعَدُّ في عُرْفِ الأتراك علامةً واعترافًا بحدوث زواجٍ شرعيّ ورسميّ. [٥١]

استسلام بغداد بدون مقاومة

تَوَجَّهَ "إبراهيم باشا" إلى "حلب" أوّلًا فدخلها، وكانت نيّته أن يستولي على بغداد عن طريق "الموصل"، لكن الدفتردار[٥٢] "إسكندر باشا" نَصَحَه أن يَتَّجِهَ بدلًا من ذلك إلى مدينة "تبريز"، وبحلول الثالث عشر من حزيران/ يوليو من عام (١٥٣٤م) أصبحت "تبريز" جزءًا من الدولة العثمانية بدون الدخول في حرب.

---

(٥٠) لم يكن السلاطينُ مُلزَمين بعَقْدِ القِران على الجواري.

(٥١) أوجَتُوم، المصدر السابق، ص ٦٩٨.

(٥٢) الدفتردار: اصطلاح عثماني يطلق على القائم بأعمال أموال الدولة، مثل وزير المالية أو الاقتصاد في عصرنا. (المترجم)

وبعد أن قضى "السلطان سليمان" فصلَ الشتاء في إسطنبول توجَّه إلى "تبريز" بِناءً على دعوة "إبراهيم باشا" الصدرِ الأعظمِ؛ حيث وصلها في أواخر أكتوبر، وبدون أن يضيِّعَ أيَّ وقتٍ استطاعَ أن يصلَ إلى بغداد في غضونِ سبعةِ أيام، كان والي بغدادَ قد انسحب من المنطقةِ، وترك بغدادَ -دون أيِّ مقاومةٍ تُذكر- قبل وصولِ القوّاتِ العثمانيّةِ؛ حيث استسلمت المدينةُ والقلعةُ بمنتهى السهولة في يوم الثامن والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر من عام (١٥٣٤م).

وبعد يومين من استسلامِ بغدادَ، ووسط جَوٍّ مليءٍ بالثناء على السلطان، والدعاء له من البغداديّين، دخل السلطان القانوني إلى بغداد فتوجّهَ أوّلًا وقبل كل شيءٍ لزيارة ضريح الإمام الأعظمِ "أبي حنيفة النعمان" ﷺ مؤسّس المذهب الحنفيّ، ثم أمر بتشييد ضريحٍ جديدٍ وعظيمٍ له بدلًا من ذلك الضريح الذي خَرَّبَه غُلاةُ الشيعة [٥٣].

ثم أمر "السلطان سليمان" -خلالَ الأربعة أشهرٍ التي مكثها في بغداد- بإحصاء وتسجيل الأراضي الموجودة في المدينة، وفي نفس الوقت قام "السلطان سليمان" كذلك بتطبيقِ القوانينِ المُتَّبَعَةِ في الدولة العليّة العثمانيّةِ، فيما يخصُّ "قطاع الزراعة" من ناحية كيفيّة إقطاع الأراضي الزراعيّة، ومنحِ حقِّ الانتفاعِ بها، وذلك من خلال مجموعةٍ من اللوائحِ الإداريّةِ التنظيميّةِ التي تكفُلُ تحقيقَ العدالةِ، ومن خلال هذه الإجراءات التي اتّخذها السلطان استطاع أن يبرهن ويثبت براعته ودقّته فيما يتعلّق بالإدارة والقيادة.

---

(٥٣) تحمل "بغداد" العديد من الأسماء الأخرى مثل "برج الأولياء"، حيث إن "الشيخ عبد القادر الجيلاني" وغيره من كبار الأولياء قد عاشوا في هذه المدينة، التي تسمى أيضًا "دار الخلافة"؛ حيث كانت مقرًا للخلافة العباسية، ويعتبر "فتح بغداد" من الأحداث التي تحمل قيمة معنوية كبيرة في التاريخ العثماني. (ضيا نور، المصدر السابق، ص ٢٧٥).

إن شَعرةً من شارِبكم المُبارَك أغلى عندي...

أثناء الحملةِ التي قادها "السلطان سليمان" للسيطرة على بغدادَ، لم تَتَوانَ "السلطانة خُرَّم" في إرسال الخطاباتِ إليه؛ حيث كانت حريصةً في هذه الخطابات على بثِّ ما كانت تُحِسُّ به من حبٍّ صادقٍ، ومشاعرَ جيَّاشةٍ تجاهَ السلطان.

ونجدها تبدأ إحدى الخطابات التي أرسلتها إلى السلطان سليمان بالجملة التالية:

"بعد أن أُعَفِّرَ وجهي في التراب، وبعد أن أُقَبِّلَ الأرضَ التي تحت قَدَمَيكَ أشعُرُ بالسعادة...".

ونراها قد أخذت تشدو بالكلمات التالية مُعَبِّرَةً بها عن العشقِ وألمِ الفراق:

"سلطاني يا شمسَ الدولةِ، ورأسَ مالِ سَعَادتي!

إذا أردت أن تعرفَ حالي من بعدك.. فإن قلبي قد احترقَ، وكبدي أصبحَ كالجمرةِ الملتَهِبَةِ من الشوق، وصار صدري خرابًا، وأما عيناي فهما مليئتان بالدموع، لم أَعُدْ أعرِف ليلي من نهاري، وأصبحتُ غارقةً في بحرِ الحسرةِ، مبتلاةً بحبِّكم، حتى صرتُ مسكينةً وأشدَّ سوءًا من حال "فرحات"و"المجنون".

ثم أَخَذَتْ تكمل ما سطرتْه بالعبارات التالية:

"كَمْ طالَ الأَمَدُ وأنا بعيدةٌ عن سلطاني، وآهاتي ونحيبي جعلاني مثلَ البلبلِ الصدّاح، وهذا الأَلَمُ كلُّهُ يامولاي سبَبُهُ بعدُكُم عنّي وفِراقُكُم لي، حتى إنني من فَرْطِ أَلَمِي أصبحتُ لا أتمنّى أن يبتلي الله أحدًا بمثلِ ما ابتلاني به، حتى ولو كان من عبادِهِ الكافرين".

ونجد "السلطانة خُرَّم" في جزءٍ آخرَ من الخطاب تتألَّم قائلةً:

"لِعَدَمِ ورود الأخبار عنكم منذ شهرٍ ونصف، فالله يعلمُ كيفَ أصبحتُ في كَمَدٍ مريرٍ، لقد صِرتُ أبكي ليلًا ونهارًا، وأصبحت زاهدةً في الدنيا ومتاعها، وضاقت الدنيا في عيوني بما رَحُبَتْ".

وبينما أبْكِي ولا أدري ماذا أفعل، وأتَلَفَّتُ حولي بعيونٍ مليئةٍ بالدموع، وصلَتْني والحمدُ لله أخبارٌ مُبشِّرة وسارّة عن الفتحِ وأمورٍ أخرى، لقد أحيَتْنِي تلك الأخبارُ وردَّتْ إليَّ روحي بعد أن كنتُ ميتةً، فصرت -بفضلِ اللهِ ورحمتِهِ- أرى كلَّ شيءٍ من حولي يَفيضُ نورًا وبَرِيقًا، بعد أن كنتُ أرى الكونَ كلَّه غارقًا في بحار الظُلْمةِ والظلامِ ... (٥٤)".

وفي إحدى مقاطع رسالتها تردُّ على السلطان بالمدح بعد أن أمرَ بإرسالِ خمسةِ آلاف عملةٍ ذهبيةٍ(٥٥) إليها، فتقول:

"سلطاني لماذا أتعبتَ نفسَك؟ إن شَعرةً مِن شارِبِكم المُبارَك أغلى عندي من خمسةِ آلاف عملة ذهبية، بل أغلى عندي من مائةِ ألفِ عملة ذهبيّةٍ...(٥٦)".

إن "السلطانة خُرَّم" تقول في خطابها: إنها كانت تنتظر أن يُرسِلَ إليها السلطانُ بالكثير من الخطابات، كذلك نجدُها في الوقتِ نفسِهِ لا تجدُ ما يمنعُها من أن تقُصَّ على السلطان ما كان يدورُ في القصرِ من إشاعاتِ حال غيابِهِ فتقول:

"إنني أتضرَّعُ إليكم وأرجوكم أن تُرسلوا ليَ الكثيرَ من الخطابات؛ لأنني -والله يعلم أني لا أكذبُ- إذا لم يأتِني ساعي

(٥٤) أُولُوجَاي، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول - ٢٠٠١م، ص ٥٣.

(٥٥) هذه العملة التي تسمى "فلوري" تم استعمالها أول الأمر في دوقية "فينيسيا (*Floransa*)"، ثم أصبحت مستخدمةً بعد ذلك في أوروبا وفي الدولة العثمانية، وهي عبارة عن عملة ذهبية عليها رسم لزهرة الزنبق.

(٥٦) أُولُوجَاي، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول - ٢٠٠١م، ص ٥٤.

البريد بخطابٍ منكم لأسبوعٍ أو لأسبوعين، فإن الناسَ يُكثِرون من القيلِ والقال، وينشرون الإشاعات المختلَقةِ... (٥٧)".

* * *

وتبدأ "السلطانة خُرَّم" خطابها الثاني الذي أرسلَته إلى "السلطان سليمان" بالأسطر التالية:

"سلطاني الحبيب، بعد أن أُعَفِّرَ وجهي المتواضع بتراب قدميك المُبَجَّل..."

وتستمر في كلامها قائلة:

"...أقسم بالله ياروحي! لم يعُدْ ليلي ليلًا ولم يعد نهاري نهارًا، بعد أن صِرتُ بعيدةً ومحرومةً من وصالك، فماذا تتوقع أن يكونَ حالي وأنا بعيدةٌ عنك؟ إنني أقسمُ مرارًا وتكرارًا، أنني أحترق ليلًا ونهارًا من نار الفراقِ، فمَنْ عساه يا تُرَى يعلم بحالي سوى الحقِّ ﷻ... ".

ولا تنسى "السلطانة خُرَّم" أن تُزَيِّنَ رسالتها بشيءٍ من الشعر، تنثرهُ بين سطور الرسالة:

"عجبًا! أيكون من نصيبي أن أراك مرة ثانية في هذه الدنيا؟
أتمنى أن يمنحني الباري فرصةً واحدةً كي أُعَفِّرَ وجهي عند أقدامك...
كم هي مؤلمةٌ وصعبةٌ مرارةُ الفراق والبعد عن السلطان
إن نيران تلك الفرقة قد تمكنت مِنِّي، فاشتعلت بي وأحرقتني" (٥٨)

(٥٧) مع الأسف لم يتسَنَّ حتى الآن العثور في سجلات الأرشيف على تلك الخطابات التي كتبها "سليمان القانوني" إلى "خُرَّم".

(٥٨) أولوجاي، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول – ٢٠٠١م، ص ٥٧-٥٨.

مقتل "إبراهيم باشا"

بعد أن انتهت "حملة العراق" تحرَّكَ الجيشُ السلطاني الذي يقوده "سليمان العظيم" من مدينة "تبريز" بتاريخ الثالث والعشرين من أيلول/سبتمبر من عام (١٥٣٥م)، متوجّهًا إلى مَقَرِّ الخلافة في إسطنبول بعد أن مَرَّ على "حلب" و"أضنه (*Adana*)" و"أسكي شهير (*Eskişehir*)"، وبحلولِ الأسبوعِ الأوّلِ من شهر تشرين الأول/أكتوبر وصل السلطان على رأس جيشه إلى الآسِتَانَة (أي: إسطنبول)، حيث استُقبِلَ في جوٍّ احتفاليٍّ ومراسمَ عظيمةٍ بعد رحلةٍ استمرّتْ عدّةَ أشهرٍ.

ولكن بعد مرورِ شهرين فقط على وصولِ "السلطان سليمان" مُظَفَّرًا إلى عاصمةِ دولتِهِ، حدث زلزالٌ سياسيٌّ داخلَ الدولة العثمانيّة حيث وقع خبرٌ أليمٌ كالصاعقةِ على أهل إسطنبول.

لقد قُتِلَ الوزيرُ الأعظم "إبراهيم باشا"، الذي كان معروفًا بلقب "مقبول" قُتِلَ مخنوقًا، لقد قُتِلَ الوزيرُ الأعظم الذي زُفَّ كعريسٍ إلى القصر ليتزوّجَ السلطانة "خديجة" شقيقةَ السلطان، وجاء مقتلُه بعد أن قضى قُرابةَ ثلاثةَ عَشَرَ عامًا يشغل وظيفةَ الصدر الأعظم في الدولة العليّة العثمانيّةِ، استطاع خِلالَها بإمكانياته العديدةِ أن يحظى بحبِّ السلطان، وأن يترقّى ليصلَ إلى رتبةِ القائدِ العامِّ للأساطيلِ والجيوشِ العثمانيّةِ، مُزوَّدًا بصلاحياتٍ واسعةٍ، وحائزًا لقب "سر عسكر[٥٩] (*Serasker*)"[٦٠].

(٥٩) سر عسكر: اصطلاح عثماني يشابه في عصرنا وزير الدفاع، أو قائد الجيش والقوات المسلحة. (المترجم)

(٦٠) لقد كتب "بوسبيك (*Busbecq*)" سفير "شارل الخامس" حاكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة في إسطنبول في تلك الفترة ما يلي: "لا يوجد شك في أن عاصمة الدولة العثمانية وكل الولايات التي بلغتها تلك الحادثة أصبح شُغْلُها الشاغل هو مسألة خنق "إبرهيم باشا" في القصر بناءً على فرمان السلطان، لقد كانت تلك حادثة غير متوقعة... إنني في غاية الدهشة والذهول... " (أُولُوجَاي،" بعض الوثائق والملحوضات المتعلقة بالسلطان "سليمان القانوني" وعائلته" كتاب "هدية القانوني"، أنقرة – ١٩٧٠م، ص ٢٣٥).

وكثيـرًا ما كان السـلطانُ، سـواء في إسـطنبول أم في أثنـاء الحملات الحربية، يُشارِك صديقه العزيز الصدر الأعظم في المأكل والمجلِس، حتى إنـه كان ينـزلُ ضيفًـا عليه فـي القصرِ عندمـا كانت تطولُ بهم مسـامراتُ الليل، ولهذا فقد خُصِّصَ لـ"إبراهيم باشا" جناحًا مميزًا في القصر، لقد كانا صديقَين حميمَين لا يفترقان عن بعضهما ليل نهار.

وفـي اليـوم الثاني والعشـرين مـن رمضان دُعِـيَ "إبراهيم باشـا" إلى القصر -مثلما كان يحدثُ في كثيرٍ من الأحيان- حيث تناولَ الإفطار مـع السلطان وتجاذبا أطراف الحديث حتى منتصف الليل.

لقـد اتخـذ "القانوني" قرارَه في تلـك الليلة بألَّا يُخبِر صديقه بشـيء، ومع تأخُّر الوقت استأذن "إبراهيم باشا" في التوجُّه إلى غرفته التي كانت ملاصقةً لغرفة السلطان، ثم استغرق في نومٍ عميقٍ دونَ أن يدركَ ما سيَحِلُّ به، وبينما كان "إبراهيم باشا" يبيتُ ليلَتَهُ في جناحٍ فاخرِ الأثاثِ، وقد أخذ خيالُـه يطوفُ فـي عالمٍ من الرُّؤى والأحلام، إذا بـه يُقتَلُ مخنوقًا على يد الجلاد "علي" وأعوانه، بعد أن تَلَقَّوا الأمر السلطانيّ بقتله في السادس من آذار/مارس من عام (١٥٣٦م)(٦١).

أمْسَى كُلُّ مَنْ بالقصر، وكذلك العلماءُ والوزراءُ، في حَيرةٍ من أمرهم، فلم يكنْ أيُّ شـخصٍ يعتقدُ أو يَظُنُّ أنّ السـلطانَ قد يتَّخِذُ قرارًا مِثلَ هذا، وجَرَت الشـائعات على ألسـنةِ الشـعبِ، لكنّ السـببَ الحقيقيَّ وراءَ هذه الواقعةِ لـم يُعْرَفْ بعدُ إلى الآن.

إن السـببَ وراءَ هذه الحادثة الغريبةِ التي وَقَعَتْ قبل أربعمائة وثمانية وسـبعين عامًـا في القصر السـلطانيّ، لـم يُعرفْ حتى الآن بشـكلٍ مفصلٍ

(٦١) كان "مقبول إبراهيم باشـا" في سن الواحد والأربعين عندما تم قتله.

أو كاملٍ، وحتى يومِنا هذا لا يزال هناك ستارٌ من الأسرار التي تُغلِفُ هذا الحادث.

إن المؤرّخينَ الغربيّين والمحليّين لا يزالون يَدَّعُون أن "السلطانة خُرَّم" لها دور ضالِعٌ في تلك الحادثة الأليمة، ولم ينفكُّوا عن توجيهِ أصابعِ الاتِّهام إليها بشكلٍ جائرٍ وظالمٍ، حتى لقد صارت "السلطانة خُرَّم" تبدو لهم وكأنها "المسؤول الوحيد" عن تلك الحادثة، ولم يكتفوا بذلك فحسبُ، بل صاروا يُلصِقونَ بها التُّهَمَ عند وقوعِ أيِّ حادثةٍ سلبيَّةٍ ضمنَ تلك الحِقبةِ الزمنيّةِ التي عاشت فيها.

لقد رَقّى السلطانُ القانوني إبراهيمَ باشا رجلَ الدولةِ الخارقَ الذكاءِ إلى أعلى منصبٍ في الدولة، بينما كان في أوّل أمرِهِ عبدًا عاديًا، إلا أنه -أي السلطان- وقَّعَ على فرمانِ إعدامِهِ بعدَ ثلاثةَ عَشَرَ عامًا، ولم يُصرِّحْ بأيِّ شيءٍ عن قتلِهِ، ولم يَرْغَبْ في الحديثِ عن هذا الموضوعِ قطّ[٦٢].

وفي الوقت نفسه نجد أن أغلب المصادر العثمانية لم تتناول هذه المسألة على الإطلاق، بينما نَجِد -على سبيل المثال- المؤرخ "لطفي باشا"، وبالرغم من عَمَلِه صدرًا أعظم للقانوني وعِلْمِهِ -في أغلب الظن- حقيقةَ هذا الأمر، لكنه يكتفي في حديثه عن هذا الموضوعِ بالقول:

"قَتَلَ السلطانُ وزيرَه "إبراهيم باشا" حين قَدِمَ إلى إسطنبول".

ونجد أن الكتابات التي تناولت مقتل "إبراهيم باشا" بِمُجْمَلِهَا اجتهاداتٌ فرديّةٌ، أو أفكارٌ شخصيّة أو ملاحظاتٌ لمؤرخين، لا أكثر من

(٦٢) وبينما كان "سليمان القانوني" في طريقه إلى "سرز" عائدًا من حملة "كورفو" مع قاضي عسكر الأناضول "محيي الدين" وقاضي عسكر (الجانب الأوروبي) "قدري"، فإذا بهم يسألونه سبب قتل "إبراهيم باشا" الذي ظل بريئًا، فما كان من السلطان الذي تضايق من سؤالهم وتقصّيهم عن هذا الأمر إلا أن أمَرَ بعزلهما، وأمر بتولية "أبي السعود" قاضي إسطنبول ليحل محل قاضي عسكر (الجانب الأوروبي) "قدري"، وكذلك أمر بتولية "تشيفيزاده" قاضي مصر ليحل مَحَلَّ قاضي عسكر الأناضول "محيي الدين" (أُوزُونْ جَارْشِيلي، المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ٣٥٩).

ذلك أما الأخطاءُ التي تُنْسَـبُ إلى "إبراهيم باشـا"، والعواملُ التي أَفْضَتْ به إلى هذه النهايةِ المأساوية، فيمكن حصرُها في إطار الأسبابِ التاليةِ:

- أثناء الحملة العسكرية على العراق وُجِّهَتْ إلى "إبراهيم باشا" تُهمةُ جَـرِّ القـوات التي كانت تحـتَ قيادتِه إلى الهلاك فـي أرضٍ قاحلةٍ وصحراويّةٍ، وذلك أثناءَ تَعَقُّبِهِ الجيشَ الإيرانيَّ، بعد أن سـيطر على مدينة "تبريز".
- هذا بالإضافة إلى سُـوءِ استعمال السلطات الواسعة التي منحها إياه السلطان(٦٣).
- وضُلُوعه في إعدام الباش دفتردار "إسكندر شلبي" في (آذار/مارس ١٥٣٥م) (٦٤).

---

(٦٣) في أثناء الحملة العسكرية على العراق أخذ "أولاما خان (*Olama Han*)" يُحَرِّض "إبراهيم باشا" على أن يضاف لقب السـلطان إلى جوار لقب "سر عسكر" الذي كان الباشا يحمله، حيث توجه بالسؤال التالى إلى "إبراهيم باشا" قائلًا: "هل هو كثير على الوزير الأعظم للسلطان العثماني الذي ملك الشرق والغرب أن يحمل لقب "سلطان" في حين أن البكوات والخانات يحملون لقب شاه العجم ؟".
وبعد ذلك أصبح يستعمل تعبير "سر عسكر سلطان" في الفرمانات التي يصدرها الباشا، كما أصبح التعبير نفسه يستخدم في الأوامر التي يتم الإعلان عنها وإرسالها إلى الجيش بواسطة الرُّسُل وناقلي الأوامر. وقد استغل منافِسو الباشا هذا الأمرَ وادَّعَوْا أنه يُعدُّ مُخَطَّطًا سريًا للاستيلاء على السلطة، واستطاعوا أن يثيروا قلق السلطان "القانوني" فيما يتعلق بهذا الأمر. (أُوزُونْ جَارْشِيلِي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٣٥٧).
(٦٤) كان إبراهيم باشا الذي يرسل تكليفاته وأوامره وهو في إيران أثناء حملة العراق يستخدم لقب "سر عسكر السـلطان"؛ حيث إنه من الثابت تاريخيًا أن الباشا قد استخدم هذا التركيب الإضافي، لكن الرسول الذي ينقل الأوامر كان أثناء النداء بما لديه من أخبار يقول:
"هذا هو أمر "سر عسكر" السـلطان".
عندها قام "إسكندر شلبي" الذي كان يحمل منصب "كتخدا سر عسكر" باستدعاء هذا الرسول ومنعه من أن يصيح على هذا النحو قائلًا له: "لا تَقُلْ "سَرْ عَسْكر السلطان"، ولكن قُلْ: "هذا أمر حضرة السَّرْدَارْ".
ومع بلوغ هذا الأمر إلى "إبراهيم باشا" زادت مشاعر الكراهية والنفور بين الرجلين، كذلك يروى أن "الدفتردار" قد حَرَّضَ "سَرْ عَسْكَرْ" على فتح "تبريز"، وذلك سعيًا منه أن يرى إخفاق الباشا، وعندما جاء القانوني إلى "تبريز" أخذ يوجه النقد واللوم إلى "إبراهيم باشا"؛ بسبب قيامه بتعريض الجيش إلى الخطر، وإبقائه في أرض العدو ووسط مدنه في فصل الشتاء، وفي حملة عسكرية على هذا القدر كبير من الأهمية، فما كان من "إبراهيم باشا" إلا ان أجاب قائلًا: "وهل كان بيدي شيء؟ لقد جَعَلْتُمْ الأمر والحل والعقد بيد عبدكم "إسكندر شلبي"؛ وهكذا فقد حَمَّلَ "إسكندر شلبي" الذي اتَّضَحَتْ براءتُه فيما بعد كُلَّ المسؤولية، قائلًا: لقد تم التحرك بِناءً على قرار "الدفتردار" الذي أَمَرْتُمُوني أنا عبدكم بتنفيذ نَصيحته، وقد أضاف "إبراهيم باشا"، بينما كان يغادر حضرة السلطان عبارة: "إنه ذو الخبرة"، بعد ذلك تَمَّ أوَّلًا

- كما كان من ضمن التهَم التي نُسِبَتْ إلى "إبراهيم باشا" اتهامه بعدم مراعاة الأحكام الشرعيَّةِ.
- وعدم الالتزامِ بالتعاليمِ الإسلاميَّةِ إلى جانب غيرها من الأمور...(٦٥).

لقد مُنِحَ "إبراهيم باشا" الكثير من الألقاب، واستطاع في فترة وجيزة أن يَصِلَ إلى أعلى المراتب، لكن بالرغم مما حقّقه من نجاح فقد كانت لديه ميول للصعلكة وحياة اللهو والخلاعة، وفي الوقت الذي كان فيه أهالي إسطنبول قد اعتادوا على رؤية السلطانِ في أرفعِ مقامٍ وأعلى مرتبةٍ، أخذت تبدو على "إبراهيم باشا" من خلال تصرّفاتِه وأحوالِه سماتُ التكبّرِ وادّعاءِ العَظَمَةِ؛ ممّا كان سببًا في ظهورِ العديدِ من الشائعات، وقد أدّتْ هذه التصرفاتُ من قِبَل "إبراهيم باشا" إلى مساعدة خصومه في نسج القصصِ والأقاويل عنه وبثِّها ونشرها، حيث كان لرجال "إسكندر شلبي" الأكْفَاء الذين انتقلوا إلى القصر العثمانيّ دورٌ كبيرٌ في هذا الصدَدِ(٦٦).

عزل "إسكندر باشا" من مَنْصِبِهِ، ثم تَلَا ذلك الحكم عليه بالإعدام شنقًا، وعلى الرغم من أن السلطان كان متأثرًا لما وقع إلا أنه لم يعرب عن شيء لد"سر عسكر"، لكن هذه الواقعة كانت سببًا في ظهور أولى الأمور التي ستكون في غير صالح "إبراهيم باشا" لدى السلطان، وقد قامت دراسات بعد ذلك أظهرتْ براءة "إسكندر شلبي" في هذا الموضوع... (أُوزُونْ جَارْشِيلِي، المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ٣٥٣-٣٥٧).

(٦٥) في عام (١٥٢٦م) وخلال العشرة أيام التي قضاها "سليمان القانوني" في "بودين" نجده قد أرسل سفينة إلى إسطنبول عبر نهر "تونا" حيث شحن على هذه السفينة خزينة ملك المجر ومعها شمعدانين من البرونز وثلاث تماثيل برونزية، بالإضافة إلى مكتبة كبيرة تخص الملك "ماتهياس كورفين"، وقد قام "إبرهيم باشا" بوضع هذه التماثيل الثلاثة، التي كانت ترمز لكل من "هرقل" و"أبوللو" و"ديانا" على قواعد رخامية وجعلها أمام قصره الذي كان يقع في ميدان "آت" (أي: الحصان) الذي أصبح الآن يعرف باسم "ميدان السلطان أحمد"؛ مما أدى إلى انتشار بعض الشائعات بين الناس، لدرجة أنه يروى أن أحد الشعراء وهو الشاعر المسمى "طرابزونللو فيجاني رمضان" قد ألف شعرا يسخر فيه من الباشا حيث أنشد البيت التالي:

"جاء خليل في البداية وكسر الأصنام،
والآن فقد جئت يا خليل وجعلت الناس عبدة أصنام".

ففي هذا البيت نجد اثنان يحملان اسم "خليل"، الأول هو نبي الله إبراهيم الخليل ﷺ، أما الثاني فهو الصدر الأعظم "إبرهيم باشا"، وقد تسبب "إبرهيم باشا" من خلال هذا العمل في إيقاء المشاعر الدينية لدى الجماهير. (دَانِشْمَنْد، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٦٢).

(٦٦) كان "إسكندر شلبي" يربي العبيد الذين تحت إمرته ويعلمهم على خير وجه. ويروى أنه قد تربع في مناصب الصدر العظم والوزارة ٧ من هؤلاء العبيد، وكان "صوكوللو" واحدا من هؤلاء. ويقال أنه بعد مصرع "إسكندر شلبي" وانتقال هؤلاء العبيد إلى الخدمة لدى السلطان فقد كان ذلك بداية المصيبة التي ستحل بال"سر عسكر" جيث سيعمل هؤلاء العبيد على إيضاح كيف إن سيدهم كان بريء وبلا ذنب فيما حدث..

وها هو المؤرخ "صولاك زاده" يحكي لنا عن هذه الواقعةِ:

"لقد عزل إبراهيم باشا الكثيرين أثناءَ حملةِ بغداد بدون مبرِّر، كما كان ينفقُ أموالًا طائلةً؛ كي يكسبَ قلوبَ مجموعةٍ من السفاحين وقد ثبت من خلال الدفاتر والسجلّات أنه أسرفَ في إنفاق المال -في تلك الفترة التي كان فيها موضعَ ثقةِ السلطان- حتى بلغت ثمانين ألفَ قِطعةٍ ذهبية، حتّى إنني ذكرتُ هذا ذاتَ مرّةٍ أمام الصدر الأعظم "أياس باشا" (الذي تولى المنصب بعد مقتل إبراهيم باشا) وقلت له:

"إن إنفاقَ إبراهيم باشا هذه الألوف المؤلّفة من الذهب على السفهاء دليلٌ على تجرُّئِهِ على السلطنةِ وتعدّيهِ عليها، وهذا الأمر قد ثَبتَ لدينا بالدليل المؤكّد والقاطع "[٦٧].

* * *

لقد رأى "القانوني" أنه ليس ثَمّةَ حَلٌّ أمامه سوى أن يضحِّي ويتخلَّصَ من "إبراهيم باشا"، وذلك في سبيل وضع حدٍّ للشكاوى والإشاعات التي كانت تدورُ على ألسنةِ الناس.

فعندما قام السلطان بتقصّي الحقائق عما أُثِيرَ حول "إبراهيم باشا"، وقيامه بعد ذلك بتقييم ما بلغه من معلومات، وجدَ أنه إضافةً إلى ما ورد بحقِّهِ من شكاوى، وإلى جانب كراهيةِ الشعبِ له بسبب التصرفاتِ والسلوكيات الخاطِئَةِ التي كان يُمارِسها، فقد نُسِبت إليه أيضًا تُهَمٌ تتعلّقُ بالتجرّؤِ على مقام السلطنةِ[٦٨].

فلا بدّ أن السلطان العادل "سليمان القانوني" كانت لديه قناعةٌ مؤكّدة وأدِلّةٌ دامِغة وكافية ومقنعة لإصدار مثل هذا القرارِ الصعبِ.

(٦٧) همّذبي شَلَبِي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٩٠.

(٦٨) أكْشونْ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٧٩.

ما ذنب "خُرَّم"؟

يذكر الأستاذ الدكتور "جُوكْبِيلْجِينْ (*Gökbilgin*)" معتمدًا في كلامه على "همر (*Hammer*)" و"جيروم (*Jerome Maurand*)" و"جان شينسو (*Jean Chesneau*)" في كتابه "رحلة السيد أرامون (*LeVoyage de Monsieur d'Aramon*)" :

> "إن من المُؤكّدِ أن السلطانة "خرم" استخدمت نفوذَها وتأثيرَها الكبير على السلطان من أجل القضاء على "إبراهيم باشا" تمامًا وإزاحته وإعدامه (٦٩)".

وبِنَاءً على ما يذكره "هامر": "فقد كانت "خُرَّم" ترى في الحملة العسكرية على إيران (١٥٤٨-١٥٤٩م) سببًا من شأنه أن يُبرِزَ الكفاءَة العسكريّة لدى صهرِها وزوج ابنتِها "رستم باشا"، ويُمَكِّن ابنها "سليم" -الذي كان وقتها حاكمًا على أدرنة- من أن يَخْلُفَ والدَه(٧٠)".

* * *

السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما السبب الذي يجعل المؤرّخين الغربيّين ومَنْ حَذَا حَذْوَهم وسارَ على نَهْجِهِم من المؤرخين الأتراك، يُحمِّلون "السلطانة خُرَّم" مسؤوليةَ موتِ "إبراهيم باشا"؟

في ذلك الوقت كان الأميرُ مصطفى ابنُ "السلطان سليمان" و"السلطانة جلبهار (*Gülbahar*)" هوَ وَرِيثَ العرشِ العثمانيّ، أي: إنه في حالِ وفاةِ السلطان يصير مصطفى هو الشخصُ الذي سيعتلي ويجلس على العرش، لقد بدأ مصطفى من خلال شخصيّتِهِ المُمَيّزَةِ يحظى بحبّ الشعبِ،

(٦٩) جوكْبيلْجِينْ، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٥٩٤.

(٧٠) جوكْبيلْجِينْ، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٥٩٥.

ولا سـيما الجيش، وبذلك تَفَوَّقَ على الأمراء أبناءِ "السـلطانة خُرَّم"، وفي الواقـع لقـد كانت "خَاصَكِـي" تتمنى أن يكون السـلطانُ القـادمُ هو ابنها "الأمير بيازيد"[٧١].

ولكن بما أن "إبراهيم باشا" كان في صفِّ الأمير مصطفى، فقد أخذت "خُـرَّم" تُخطِّطُ من أجـل إزاحةِ الوزيرِ الأعظمِ عن السـاحةِ، فكانت تنتهزُ أيّةَ فرصةٍ من أجل تأليبِ السلطانِ على "إبراهيم باشا"، وقد نجحت أخيرًا في إغواءِ السـلطان وإقناعه؛ حيث كانت توسـوسُ إليه بأن "إبراهيم باشا" يطمـعُ في العرش العثمانيّ، وأنه يسعى للانقضاضِ على الحكمِ.

إن المؤرّخين الغربيّين أو من تأثّرَ بهم يسوقون هذه الادّعاءات ويُدافعون عنهـا، إلا أننـا نجدُ أنهم لم يتمكّنوا من أن يقدّموا أيّـةَ وثيقةٍ تُؤَكِّدُ أن مقتل "إبراهيم باشا" كان نتيجةً للإشاعات والوشايات التي كانت تبثُّها "خُرَّم" في أذن السلطان، إنهم لا يقدمون لنا سوى مجموعةٍ من المعلومات التي تستندُ إلى حزمةٍ من الحوادث المشـكوكِ في صِحّتِها، وهذه الادّعاءاتُ في نهاية الأمر تفتقرُ إلى الدليل والبرهان الذي يمكن أن يُثْبِتَها.

البحرُ الأحمرُ يصبحُ بحيرةً تركيّةً

لقـد أصبح وقف "السـلطانة خُرَّم" في وقتٍ وجيزٍ من أشـهرِ المراكزِ الاجتماعيَّةِ والتعليميَّةِ في إسطنبول، وتوسَّـعَ ليضُمَّ دارًا لإطعام المساكين ومدرسـةً للصبيان ومدرسـة دينيَّةً تمَّ إنشـاؤُها عام (١٥٤٠م)، بعد أن كان فـي صورةِ جامـعٍ صغيرٍ ذي قُبَّـةٍ واحدةٍ في المنطقةِ التي أُطْلِقَ عليها فيما بعد اسم "خَاصَكِي".

(٧١) من تصاريف القدر العجيبة أن هذه الرغبة القوية التي كانت لدى "السلطانة خُرّم" لم تتحقق؛ حيث إن عرش الدولة العثمانية لم ينتقل إلى "بيازيد"؛ لدخول الأمير سيء الحظ في حرب مع أخيه "سليم"، وبعدها لجأ إلى إيران (قزوين)، وقد تم قتله بأمر من والده في (٦ تشرين الأول/أكتوبر من عام ١٥٦١م).

فـي الوقتِ نفسِـه كان الجيـشُ العثمانيُّ قد خرجَ فـي ثلاثِ حملاتٍ عسـكريّةٍ مختلفةٍ في البرِّ والبحرِ، ففي الوقتِ الذي بسـطَ فيه قبطانُ البحرِ "باربـاروس (*Barbaros*) خير الدين باشـا" أَشْـرِعةَ سُـفُنِهِ مُتَّجِهًا في حملةٍ بحريَّةٍ للسيطرةِ على الجُزُرِ، كان والي مصر "خادم سليمان باشا" قد خرجَ هو الآخَر في حملةٍ مُتَّجهًا إلى الهند، وكان "السلطان سليمان" أيضًا يقودُ بنفسِهِ الجيشَ السلطانيَّ متوجِّهًا إلى "بوغدان (*Boğdan*)"، ويشير الانتشارُ للجيـشِ العثمانيِّ على مسـافاتٍ واسـعةٍ، وتكثيفُ الحمـلات إلى مناطقَ متفرقـةٍ ومتباعدةٍ إلى القدرةِ العسـكريَّةِ والإداريَّـةِ والاقتصاديَّةِ التي كانت تتمتَّـعُ بها الدولة العثمانيَّةُ؛ حيث كان جيشُـها يخـوضُ معركةً -هجوميَّةً لا دفاعيَّة- على ثلاث محاورَ متفرقةٍ ومتباعدةٍ.

تحرك "باربـاروس" في أيلول/سـبتمبر عام (١٥٣٨م) قاصدًا الأسطولَ الصليبيَّ الذي كان يتحرَّكُ حولَ أطرافِ جزيرةِ "كورفو (*Korfu*)"، واستطاع فـي مدَّةٍ قصيرةٍ ومن خلال مناوراتٍ بارعةٍ أن يُنْهِكَ الأسـطولَ الذي كان تحـت إمرةِ القبطان الشـهير "أندريا دوريـا (*Andrea Dorya*)"، فما كان من قبطانِ الصليبيِّين الشـهيرِ إلا أن يُصدرَ أمرًا بالانسـحاب وهو في حالةٍ من اليـأس، أمـا "باربـاروس" فقد قـرَّر أن يتركَه ولا يلاحقه، لكنـه في الوقتِ نفسِهِ أصدرَ أوامرَهُ بحرقِ السفنِ المعاديةِ، التي كانت لا تزال موجودةً في ساحةِ المعركةِ.

وفي تلك المعركةِ؛ اسـتمرَّت ألسـنةُ النيرانِ مشـتعلةً في بحرِ "بريفيزا (*Preveze*)" لساعات طويلة، حتى قُدِّرت أعداد السفنِ التي فقدها القبطان "دوريـا" فـي هـذه الحرب بمائةٍ وثمان وعشـرين سـفينة حربيَّـة كبيرة من نوعي "قالْيُونْ"[٧٢] و"كَرَاكَهْ"[٧٣]... مـع العلم بأنّ مجموعَ سـفنِ الأسـطولِ

(٧٢) المقصود هنا سفن حربية كبيرة سبقت عصر السفن البخارية، حيث كانت تتحرك بالشراع أو بالمجاديف وتحتوي الواحدة منها على عنبرين أو ثلاثة.

(٧٣) المقصود هنا أحد أنواع السـفن الحربية الكبيرة، تصنع من الخشب وتحتوي على عنبرين.

البحـريّ العثمانـيّ لا يبلـغ مثلَ هذا العدد! إلا أن الأتراك لـم يخسـروا في تلك المواجهةِ أيَّةَ سفينةٍ من سُفُنِهِم!

وفي نفسِ الوقتِ الذي خرج فيه باربروس على رأسِ أسـطولِهِ، خرج أيضًا "خادم سـليمان باشـا" على رأسِ حملةٍ عسـكريّةٍ إلى اليمنِ والهندِ، وقـد تمكّـن من الفتحِ واسـتطاعَ أن يُحْرِزَ نجاحًا كبيـرًا ومُهِمًّا -مثل ذلك النجـاحِ الـذي حقَّقَه باربروس في البحر المتوسّـط- حتى تمكّنَ في نهايةِ الحملةِ أن يُحوِّلَ البحرَ الأحمرَ إلى بحيرةٍ تابعةٍ للتاجِ العثمانيّ بعدَ إحكامِ السيطرةِ على اليمنِ وعدن، وازدادت بهذه الحملةِ سلطةُ ونفوذُ العثمانيّين وتولّدَت لديهم آمالٌ جديدةٌ في إمكانيّةِ الوصولِ إلى سواحلِ الحبشةِ .

كان السـلطان "سـليمان القانوني" قد تحرّك إلى "بوغدان" -مولدوفيا الآن- فاسـتطاع أن يفتحهـا ويحوّلهـا إلـى واحدة من الولايـات العثمانية المميزة.

أرجو من الحق تعالى أن...

في العشرين من حزيران/يونيو عام (١٥٤١م) خرج "السلطان سليمان" في حملةٍ جديدةٍ على النمسـا، وعندما وصـل إلى "فيلبيه (*Filibe*)" أصدرَ أوامِـرَه إلـى "باربـاروس" بالتوجُّه لمسـاعدةِ الجزائرِ وفَـكِّ الحصار عنها، بعـد أن حاصَرهـا الأسـطولُ الإسـبانيُّ، وقد تمكّنـت الجيـوشُ العثمانيّةُ بقيادةِ الوزيرين "محمد باشـا" و"خُسْـرَوْ باشا" من إلحاقِ الهزيمةِ بالجيشِ النمسـاويّ بقيادةِ "فون روجندورف (*VonRugendorf*)"، الذي كان يحاصرُ "بودين" قبل أن يصل جيش السلطان، وتمكنت القوّاتُ العثمانيّةُ من إبادةِ قسمٍ كبيرٍ من الجيشِ النمساويّ... وعندما وصلت هذه الأنباء إلى مسامعِ السـلطان، كانـت هناك بشـرى أخرى قد وصلتـه أيضًا، وهي التـي تتعلَّقُ بتمكُّنِ الأسـطولِ الصغيرِ الذي كان تحتَ إمرةِ "قاسـم باشـا" من استعادةِ

السيطرةِ على "بشته (*Peşte*)" وذلك في الثاني والعشرين من آب/أغسطس عـام (١٥٤١م)،[٧٤] ومـا أن وصل السـلطانُ فـي وقتٍ قصيـرٍ إلى أطراف "بودين"، حتى أصدرَ قرارًا سـلطانيًا تمّ بموجبِهِ مكافأةُ القادةِ العسـكريينَ الذين أَبْلَوا بلاءً حسنًا في الحرب.

* * *

أما "السـلطانة خُرَّم" فمن جانبها، لـم تتركِ السلطانَ وحيدًا خلال تلك الفتـرة القصيـرةِ التـي افترقا فيها، فقد عَبَّرَتْ عن شـغفِها بـهِ وحبّها له من خلال الخطابات الحَمِيميَّة التي أرسلتها إليه، وهكذا استطاعت أن تكسبَ قلبَ السلطان وحبَّهُ.

وقد بدأت السـلطانة "خَاصَكِي" خطابَها الحميمَ إلى السـلطان قائلةً: "يا سلطاني الحبيب"، ثم واصلت حديثها بكلماتٍ تُعَبِّرُ عن مدى اشتياقِها وتَأَلُّمِها الشديدِ بسبب البِعاد.

وتناجي "خُرَّم" سُلطانَها الحبيبَ مخبرةً إيّاهُ عن حالِها قائلةً:

"لو سـألتم عن حـالِ جاريتكـم المحترقةِ بنـارِ بِعَادِكم، فإنها بخيرٍ بفضلِ عنايةِ الحقّ ﷻ... "

"يا حبيبي وسلطاني ويا سعادتي!

تُرى كيف هو مزاجكم المبارك؟

يا ليتكم تتلطَّفون وتتكرَّمون فتُعلِمونني به بين الحين والآخر، فأنا جاريَتكم المسكينة، الله يعلمُ مقدارَ النارِ التي تُحرقُني لِبُعدكم، وكم قد تحطم قلبي واحترق من لهيب فراقكم، إنني أرجو وأتضرَّعُ إلى الحقّ تعالى ليل نهار أن يكون لي نصيبٌ فأُعفِّر وجهي بترابِ قدمِكم، وأن أرى جمالكم المبارك مرّةً ثانيةً".

---

(٧٤) هذا الانتصار عرف باسم "نصر إيستابور"، وكلمة "إيستابور" معناها "الجيش السلطاني القوي".

لم يترك السلطانُ محبوبَتَه "خُرَّم" أمَّ أولادِهِ من غيرِ أن يردَّ على هذه المشاعرِ المُلتهبةِ، فقد أظهرَ بشكلٍ جليٍّ مَحَبَّتَه لها، من خلال أبياتٍ مملوءةٍ بالمشاعر الجيَّاشةِ، وقد أطلق على نفسه خلالَ القصيدةِ اسمًا مستعارًا وهو"مُحِبّي"، وبإنصافٍ، فإن هذه القصيدةَ تُعتبرُ واحدةً من أقوى الأدلَّةِ على مدى حبِّهِ وعِشْقِهِ للسيدة "خرم" حيث يقول فيها:

يا مَنْ أُشارِكُه حياتي، يا حبيبتي، يا قَمَري المُضِيء

يا أنيستي يا مستودعَ أسراري، إنكِ سلطانة ملكات الجمال!

يا حياتي وعمري وحالي، وشرابَ كوثري وجنةَ عدني،

يا ربيعي وبهجتي ونهاري، ومصدرَ سعادتي وفرحي!

يا حبيبتي يا وردتي المبتسمة، يا ضيائي، ونوري وشمعي،

يا ذات اللون البرتقالي، يا لهيبي واشتياقي، يا نورَ ليلي في البِعاد!

يا غُصْني وعَسَلي، يا من حفظَتْ نفسَهَا في غيابي،

إنكِ بمكانة العزيزِ لديّ، ومكانة يوسف كذلك، إنكِ كلّ ما أملك!

يا إسطنبولي يا "قَرَمَانِي"، يا كلَّ "بلدان العالم" ويا "بلاد الروم"،

يا بلاد "بدهشان" وبلاد "القبجاق"، يا "بغدادي" و"خرساني"!

يا شَعري المموج الملتوي، يا حاجبي المقوس، أنا مريض بتلك العيون الفاتنة،

إذا ما متُّ فدمي في رقبتِكِ، المَدَد منك يا حبيبتي الجميلة!

أنا عند بابك لأمدحكِ، سأظلُّ أمدحُك إلى الأبد،

قلبي مليء بالألم، وعيني مليئة بالدموع، أنا "مُحِبّي" وعاشق ولهان!

(لقد كان اسم "مُحِبّي" هو الاسم المستعارَ الذي يستخدمه "السلطان سليمان" في الأشعار التي كان ينظمُها[٧٥].

(٧٥) سلطان سليمان القانوني، " أشعار غزلية للسلطانة "خرّم" "، منشورات COGITO، إسطنبول - ١٩٩٥م، العدد: ٤، ص ١١٣.

حدثٌ أليم: وفاة ولي العهد محمد

فـي عـام (١٥٤٣م)، لـم يكن قانـون "الأكبريَّـة"(٧٦)، قد طُبِّـق بعدُ في الدولة العثمانيَّةِ؛ لذا فقد قام "السـلطان سـليمان" –وهو أبٌ لخمسـةِ أبناء حينهـا(٧٧)– بتعييـن ابنه الثاني الأمير محمد الذي كان يبلـغ من العمر اثنين وعشـرينَ عامًا وليًا للعهد، وقام بإرسـاله إلى أقربِ ولايةٍ من إسـطنبول، وهـي ولايـة "صاروخـان (*Saruhan*)" (مانيسـا/*Manisa*)(٧٨) ليكون حاكمًا عليهـا، لكـنَّ الأميرَ محمدًا قد وافَتْهُ المنيَّةُ؛ نتيجـةَ الإصابةِ بمرضٍ فجائيٍّ باغتَـهُ في أواسـطِ عـام (١٥٤٣م)، وهكذا عاش "سـليمان القانونيُّ" الذي بلـغَ الثامنـةَ والأربعينَ من عمرِهِ هـو وزوجته "خُرَّم" أُولـى وأكبرِ أحزانِ حياتِهِمـا، وهما في رَيعَان سـلطانهما، وبعدَ قـدومِ نعشِ الأميرِ محمد إلى إسـطنبول، دُفِنَ في المقبرة التي أَعَدَّهـا القانونيُّ خِصِّيصًا له، حيث زُيِّنت تلـك المقبـرة بِقِطَـعٍ خزفيَّةٍ لا مثيلَ لها، تعودُ إلى القرن السـادس عشـر، وأصبـح مـكانُ ذلـك الضريـحِ في المنطقـةِ التـي عُرِفت فيما بعدُ باسـم "شَهْزَادَه بَاشِي (*Şehzadebaşı*)"(٧٩).

---

(٧٦) كان هذا بمثابة مبدأ ينص على تعيين أكبر الأمراء سنًا ليكون وريثًا لعرش السلطنة.

(٧٧) كان الأمير مصطفى يبلغ في ذلك الوقت الثامنة والعشرين من العمر، أما الأمير "محمد"، فكان يبلغ الثانية والعشرين، و"الأمير سليم" التاسعة عشر، والأمير "بايزيد" السابعة عشر، والأمير "جهانجير" الثانية عشر.

(٧٨) إن تعيين السلطان "سليمان القانوني" الأميرَ "محمد" وليًا للعهد يتبين من توليته إياه حكم إحدى الولايات القريبة من عاصمة الدولة مثل "صاروخان"، والروايات التي تذكر أنه كان أحب أبنائه إليه، ووضـع السـلطان "القانوني" عرشا خشـيا صغيرا فوق ضريحه بعد وفاته. (دَانِشْمَنْد، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٤٤).

(٧٩) تم البدء في حزيران/يونيو من عام (١٥٤٣م) في بناء "مجمع شاهزاده" الذي أقيم تحت اسم الأمير "محمد بن السـلطان "القانوني"، وقد تم في البداية تشـيد الضريح، وفي الثالث والعشرين من أيار/مايو (١٥٤٤م)، تم وضع حجر الأساس للجامع الذي قال عنه المعماري "سِنان": "أثري في عهد التلمذَة"، حيث افتتح هذا الجامع للعبادة في آب/أغسطس من عام (١٥٤٨م)، وخلال الفترة التي استغرقها بناء الجامع، فقد شـيدت كذلك عدة بنايات، شملت دار إطعام المساكين، ومدرسة للصبيان، ومشفى وخان للقوافل. (إسماعيل أورمان، "مجمع شاهزاده"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول – ٢٠١٠م، الجزء رقم ٣٨، ص ٤٨٣).

ثلاثٌ وخمسون رسالة أُرْسِلَتْ إلى ملك بولندا

في الفترة التي كان "سـليمان القانوني" يجلس فيها على عرشِ الدولة العثمانيَّـةِ، كان الملـكُ "زيجمونـد الأول (*I. Zygmund*)" جالسًـا علـى عـرش بولنـدا منذ عام (١٥٠٦م)، وخـلال فترةِ حكمِ "سـليمان القانوني" التـي اسـتمرَّت مـن (١٥٢٠م) إلى عام (١٥٦٦م) سـواء في عهـدِ الملك "زيجموند الأول" أو في عهدِ ابنه "زيجموند أوغسط (*Zygmund August*)" الـذي جلـسَ علـى العرشِ من بعده فـي عام (١٥٤٨م)، فقـد كانت هناك فتـرةُ سـلامٍ طويلةُ الأجـلِ بين الدولـة العثمانيّـةِ وبولندا، باسـتثناءِ بعضِ المناوشاتِ المحدودةِ التي كانت تقـعُ على المناطِقِ الحدوديَّةِ، لقد كانت الصداقةُ المعقودةُ بين الدولتين ضرورةً اقتضَتْهَا المصالـحُ السياسـيّةُ لِكِلْتَا الدولتيـن، لا سـيّما أنّ بولنـدا كانت تخشـى من الروسِ ومـن التتارِ، كما كانت الدولة العثمانيّةُ كذلك تتوجّسُ خِيفةً من أن تنضمَّ بولندا إلى ألمانيا؛ حيـث إن تحالـفَ هاتينِ الدولتينِ كان سـيمثِّلُ خطرًا كبيـرًا ويزيدُ من قوَّةِ ألمانيـا، وقـد عملتِ الدولةُ العثمانيَّةُ للحيلولـةِ دونَ وقوعِ ذلك على اتِّباعِ سياسةِ التعايُشِ السِّلمِيِّ مـع بولندا؛ من أجل تحييدِ هذه الدولة. [٨٠]

وبعد أن امتدَّتْ اتفاقيَّةُ السلام بين كِلْتَا الدولتين لأعوام طويلةٍ، بدأت كلٌّ من الدولةِ العثمانيَّةِ وبولندا في عام (١٥٢٥م) في اتباعِ سياسةٍ مشتركةٍ وبنَّـاءةٍ للغايـةِ، ففـي الأرشـيفِ الرئيـسِ للوثائـقِ القديمةِ الموجـودةِ في "وارسـو"[٨١] توجدُ النسخُ الأصليةُ من الرسـائل المَمْهُورة بطُرَّة السلطان، التي أرسـلها "سليمان القانوني" إلى ملك بولندا، حيث يبلـغ مجموع هذه الرسـائل ثلاثَ وخمسين رسـالةً مُرسَلةً إلى الملك "زيجموند الأول" إلى

---

(٨٠) أوجثوم، المصدر السابق، ص ٧٠٨.

(٨١) ويسمى باللغة البولندية "*Archivum Glowne AKT Dawnych*"

جانب ثمانيةٍ وأربعين رسالةً مرسلةً إلى الملك "زيجموند أوغسط"، هذا بالإضافة إلى الخطابات التي أُرسِلت أيضًا إلى ملوك بولندا من قِبَل كلٍّ من الصدرِ الأعظمِ "إبراهيم باشا" و"أياس (*Ayas*) باشا" و"رستم باشا" و"صوكولّو (*Sokullu*) محمد باشا". (٨٢)

سيروا بأمر الله

من بين الخطاباتِ والرسائلِ السلطانِيَّةِ التي كانت تُرسَل من قِبَل السلطان ورجالِ الدولةِ إلى ملوكِ بولندا، التي نجدُها محفوظةً في الأرشيفِ الرئيسِ الخاصِّ بالوثائقِ القديمةِ في "وارسو" نجدُ هناك أيضًا رسالتينِ مكتوبتينِ من قِبَل "السلطانة خُرَّم" قرةِ عينِ وحبيبةِ السلطانِ "القانوني" إلى الملك البولندي "زيجموند أوغسط"(٨٣).

وجاءت هذه الرسالةُ في سياقٍ يُوضِّح أنها كُتِبت في القرن السادس عشر، من قِبَلِ زوجةِ الحاكمِ العثمانيِّ إلى ملكٍ أجنبيّ، وتعتبرُ إقامةُ "السلطانة خُرَّم" علاقاتٍ دبلوماسيةً مع ملكِ دولةٍ أجنبيّةٍ، وإسهاماتها بشكلٍ إيجابيّ في الحياةِ السياسيّةِ للدولةِ العثمانيَّةِ، وهي في أَوجِ قدرَتِها، وسعيُها لتقويةِ وتعزيزِ بلادها، أمرٌ عظيمٌ ولم يسبقها أحد إلى مثله، فتستحقُّ لأجله التهنئةَ والتقديرَ.

* * *

إن أوَّلَ الخطاباتِ التي أُرسلت من قبل "السلطانة خُرَّم" إلى ملك بولندا، كان خطابُ تهنئةٍ وعزاءٍ إلى الملك "زيجموند أوغسط" بمناسبةِ جلوسِهِ على عرشِ بولندا خلفًا لوالده "زيجموند الأول" الذي تُوفي عام (١٥٤٨م).

---

(٨٢) أوجْتوم، المصدر السابق، ص ٧١١.

(٨٣) أوجْتوم، المصدر السابق، ص ٦٩٧.

وها هي بعض جُمَلِ الخطاب الذي أُرسِلَ من قِبل "السلطانة خُرَّم" إلى "وارسو" مع رسولٍ خاصٍّ يُدعى "حسن آغا":

"وصلَنا نبأ تقلُّدِكم للحكمِ بعد وفاةِ والدِكم، اللهُ المحيطُ بكلِّ شيءٍ يعلمُ كم سُررنا كثيرًا وابتهجنا وملأت السعادةُ قلوبَنا، والفرحةُ والسرورُ نفوسَنا عندما عَلِمْنا بنبأِ تسلُّمِكم الحكمَ، إننا نتمنَّى لحكمِكم دوامَ البقاءِ والبركةِ والخيرِ، وحيث إن الأمرَ بيدِ الله، فإننا نوصيكم باتباعِ أوامرِ الحقِّ ﷺ والسيرِ على الصراطِ المستقيمِ...

أضعف الفقيرة، "السلطانةُ خاصَكي" القحيرة[٨٤]

كما نجدُ كذلك ختمًا ممهورًا على ظهرِ الرسالة[٨٥].

* * *

وردًّا على رسالةِ الشكرِ التي أرسلها الملك "أوغسط" فقد أرسلت السلطانة مع رسولِها الخاصّ "حسن آغا" رسالةً أخرى، وها هو ملخَّصُ الرسالةِ التي ردَّت بها "خُرَّم":

"أسأل الله أن يطيلَ في عُمْرِ جلالةِ الملك وأن يباركَ فيه ... إن الكلمات لا تستطيع أن تُعَبِّر لكم عن السعادةِ العارمةِ والفرحةِ التي شعرنا بها عند وصولِ خطابِكم العزيزِ إلينا... إن ما يحمله لنا الردُّ الواردُ بخطابكم، يُظْهِرُ بوضوحٍ عظيمَ المحبَّةِ والوُدِّ الذي تُكِنُّونه لنا.

لقد أسعدنا كثيرًا ما عبَّرتم عنه بشكلٍ جليٍّ من تقارب صادقٍ من جانبكم تجاهَ سلطاننا، إن مشاعرَ الوُدِّ التي وردت في خطابِكم، والرغبةَ في الصداقةِ التي بيَّنتموها لرسولنا (حسن آغا) عندما

(٨٤) تريد أن تقول هنا أنها: فقيرة الفقراء، المتواضعة، السلطانة "خاصَكي".

(٨٥) أوجتُوم، المصدر السابق، ص ٧١٢.

عرضناهـا علـى حضرةِ السـلطان وجدنـاه -وهو الملجـأُ الوحيدُ لأيّ إنسـانٍ في العالم- قد سُـرَّ كثيرًا لما وَجَـدَهُ منكم من تقارب ومجاملةٍ، وقد بلـغ به السـرورُ إلى درجةٍ لا تسـتطيـعُ الكلماتُ أن تصِفَها، حتى قال جنابُه:

"لقد كنتُ أنا والملكُ الأكبرُ -يقصدُ والدَه الملك "زيجموند الأول" الذي تُوُفِّي- كالشقيقين، وبمشيئةِ اللهِ الرحمنِ سنكونُ مع هذا الملكِ كالأبِ وابنِهِ...".

ومن شدَّةِ ابتهاجِ سلطانِنَا، فقد أعادَ إرسالَ رسولِهِ "حسن آغا" مرَّةً ثانيةً ليمثُلَ أمام مقامِكُم العالي.

لِتَعْلَمْ جيِّدًا يا فخامةَ الملكِ، أنه إذا ما تمَّ الحديثُ عنكم أمام السـلطان فـي أيِّ موضوعٍ، فإنه من دواعي السـرورِ لنـا أن نتكلَّمَ عنكم بالمعروفِ، وأن نذكُرَكُم بكلِّ خيرٍ.

أضعف الفقيرة، "السلطانةُ خاصَكي" القحيرة [٨٦]

هل "السلطانة خُرَّم" هي المخطئة أيضًا!

كما ذكرنا آنفًا فقد استفادتِ الدولةُ العليَّةُ في عصْرِ "سليمان القانونيّ" مـن إقامةِ علاقاتٍ ثنائيَّةٍ قويَّةٍ بين الدولةِ العثمانيَّةِ وبولندا والمؤرخون من جانبِهم أكَّدُوا بشكلٍ قاطعٍ على هذهِ الحقيقةِ، لكن بعضَ المؤرِّخينَ ادَّعَوا -كما هو الحال بخصوصِ كافَّةِ الأمورِ التي وقعت في فترةِ حياةِ "السلطانة خُرَّم"- أنَّ السلطانةَ سعت لإقامةِ علاقةِ صداقةٍ وطيدةٍ بين الدولةِ العثمانيَّةِ وبولندا من أجلِ خدمةِ مصالحِها الخاصَّةِ بها!

فنجـد الأسـتاذ الدكتـور "بكـر صدقـي بيـكال (*Bekir Sıtkı Baykal*)" فـي المؤتمرِ الذي حملَ عنوانَ "العلاقـاتُ التركيَّةُ البولنديَّةُ عبَر التاريخِ"، يقول لنا:

---

(٨٦) أوجِتْوم، المصدر السابق، ص ٧١٣.

"يلاحَظُ أنه في النصفِ الثاني من فترةِ حُكْمِ "سليمان القانونيّ"، كان سفراءُ بولندا يفِدونَ تقريبًا كلَّ عامٍ إلى إسطنبول، ولا شكَّ في أنَّ "السلطانة خُرَّم" كان لها نصيبٌ في السياسةِ التي اتَّبَعَها "القانونيُّ" تُجاهَ بولندا...".

كذلك يومئُ الدكتور "بكر صدقي" إلى أن السلطانةَ كانت تُكِنُّ عاطفةً خاصَّةً تجاهَ البولنديّين، إلا أنه يقدِّمُ لنا هذه الادعاءاتِ من غيرِ دليلٍ يدعمُها.

أما الكاتب والصحفي "يِلْمَازْ أُوزْتُونَا (*Yılmaz Öztuna*)" فيتحدَّثُ عن قيامِ "السلطانة خُرَّم" بإرسالِ خطاباتٍ موجَّهةٍ إلى ملك بولندا، كانت تخاطبُهُ فيها بكلمةِ "أخي"، إلا أننا لا نجدُ أيَّ وثيقةٍ في الأرشيفِ البولنديّ تؤكِّدُ هذا الادعاءَ، إن "السلطانة خُرَّم" كانت حريصةً في الخطاباتِ التي أرسلَتْها إلى الملكِ البولنديّ "زيجموند أوغسط" على أن تخاطبَهُ قائلةً: "فخامةَ الملكِ"، أمَّا "نجاد أُوجْتُومْ (*Nejat Uçtum*)"، الذي ظلَّ لسنواتٍ يعملُ مستشارًا في السفارةِ التركيَّةِ بالعاصمةِ البولنديَّةِ "وارسو"، فيَذْكُرُ لنا كلامًا يتعلَّقُ بـ"السلطانة خُرَّم"، على النحوِ التالي:

"إن السلطانة "خَاصَكِي" تعتبر نَفْسَهَا بولنديّةً أكثر من أنها روسيّة؛ لأن المكان الذي وُلدت فيه -روكسلان، أي: "خُرَّم" - كان يقع في ذلك الوقت ضمن حدودِ الدولةِ البولنديّةِ، إن التعبيراتِ التي استخدمتها "السلطانة خُرَّم" في المراسلاتِ التي كانت بينها وبين "زيجموند الثاني"، تدفعنا إلى الاعتقادِ بأن السلطانة "خَاصَكِي" كانت تلعبُ دورًا هامًّا للغايةِ ومؤثرًا في السياسةِ الخارجيّةِ للدولةِ العثمانيّةِ، لا سيّما فيما يخصّ العلاقاتِ بينَ بولندا والإمبراطوريّةِ العثمانيّةِ".

لكنَّ الدليلَ الذي يتحدَّثُ عنه السيد "أُوجْتُومْ" هنا لا يعدو أن يكون رأيًا شخصيًّا[٨٧].

(٨٧) أُوجْتُوم، المصدر السابق، ص ٧١٥.

إن السيد "أُوجْتُومْ" يقول في الصفحة رقم (٧٠٩) من كتابه:

"إن السلطانَ القانونيَّ لم يكنْ في السنوات الأولى من علاقتِهِ مع "خُرَّم" -أي في السنواتِ الأولى من حكمِهِ- خاضعًا لتأثيرِها، ولهذا السبب لا نراه في تلك المرحلةِ يهتمُّ بمراعاةِ سياسةِ الصداقةِ والتقاربِ مع بولندا، لكنَّنا نجدُ فيما بعدُ أنّ علاقةَ المصالحِ المشترَكةِ بين الدولتين من ناحية، والدورُ البنَّاءُ الذي لعبَتْهُ "خُرَّم" من ناحيةٍ أخرى، قد ساهما في تمهيدِ الأرضِ لتُصبحَ مهيئةً لأنْ تبلغَ العلاقاتُ العثمانيّةُ البولنديّةُ درجةً يمكنُ أن يُطلَقَ عليها ذروةَ التكامل".

وإذا كان السلطان القانوني قد طَوَّرَ سياسةَ الصداقةِ بين بلاده وبولندا بتأثيرِ من "خُرَّم"، واستفادت الدولةُ العثمانيّةُ من وراءِ هذه الصداقةِ من غيرِ أن يلحقها ضررٌ، فهل يَضيرُ هذا أحدًا؟ وهل يمكن اتهام "السلطانة خُرَّم" بالخطإِ حالةَ كونِها تقومُ بدورٍ إيجابيّ في سبيلِ تطويرِ العلاقاتِ الثنائيّةِ بين الدولةِ العليّةِ العثمانيّةِ وبولندا؟

أما الدكتور "نِعْمَة طَاشْكِيرَانْ (*Taşkıran*)" فيذكرُ لنا هذه العبارات:

"إن قيامَ إحدى نساءِ القصرِ، وزوجةِ السلطان، بمنتهى الحريَّةِ -أثناءَ تمركزِ السلطانِ"سليمان القانونيّ مع جيشه في (حلب)- بكتابةِ خِطابِ تهنئةٍ إلى ملكٍ أجنبيٍ، لا يُعتبَرُ من الأمورِ المُستساغةِ والمقبولةِ كثيرًا في تلكَ الفترةِ".

ادعاءاتٌ واتهاماتٌ لا سَنَدَ لها

أولًا: لا يوجدُ أيُّ وثيقةٍ رسميَّةٍ نجدُها في أيِّ سجلٍ من سجلَّاتِ الأرشيفِ تشيرُ إلى أن "السلطانة خُرَّم" ترجِعُ بِنَسبِها إلى أصول بولنديّةٍ، وفيما يتعلَّقُ بهذه المسألةِ نجدُ أنّ المؤرِّخين قد طرحوا أمامَنا العديدَ من الادّعاءاتِ المختلفةِ.

فمثلًا، نجدُ الأستاذ الدكتور "جُوكْبِيلْجِينْ" يذكرُ أنَّ "السلطانة خُرَّم" قد أُخِذَتْ أسيرةً أثناءَ الهَجَمَاتِ التي كان يشنُّها تتارُ القِرمِ على الأراضي التابعةِ في ذلك الوقتِ للدولةِ البولنديّةِ، والتي نراها تقعُ اليومَ ضمنَ حدودِ أوكرانيا.

أما "إسماعيل حامي"، فنجدُهُ يذكرُ أن هناكَ مجموعةً من الروايات من مصادرَ متنوِّعَةٍ تُشيرُ إلى أنّ أصلَ "خُرَّم" إمّا أن يكونَ روسيًّا أو بولنديًّا، ووفْقَ أقوى الرواياتِ الراجحةِ لديه، فإنه يرى رُجحانَ كونِ "خُرَّم" بولنديَّةَ الأصل، وأما "جَغَطَايْ أُولُوجَايْ"، فيقول:

"إذا كانت هناك ادّعاءاتٌ بأن "خُرَّم" هي ابنةٌ لأحدِ القساوسةِ الروسِ، فإنَّ هناكَ أيضًا ادعاءاتٌ تشيرُ إلى أنها قد تكونُ إيطاليَّةً أو فرنسيَّةً".

وخلاصةُ القولِ أنه لا يوجدُ دليلٌ قاطعٌ، يُحدِّدُ لنا العِرْقَ أو الوطنَ الذي كانت تنتمي إليه "خُرَّم".

ثانيًا: هل بِيَدِ الإنسانِ أن يختارَ بنفسِهِ بينَ أن يُولَدَ روسيًّا أو بولنديًّا، أم هل ثَمَّةَ جريمةٌ في أن يولدَ الإنسانُ روسيًّا أو بولنديًّا؟ وبما أن الإنسانَ لا يَدَ له في اختيارِ عِرقِه أو لونِه أو قومِهِ، فإننا بالتالي لا يمكنُ أن نحاسبَهُ على أساسِ وطنِهِ أو أصلِهِ أو عِرْقِه، إننا فقط يمكن أن نُحاسِبَ الإنسانَ على أساسِ أفكارِهِ وقناعاتِه وتصرفاتِه.

لقد قَدِمَتِ "السلطانة خُرَّم" إلى القصرِ وهي بينَ الرابعةَ عَشَرَ والسادسةَ عَشَرَ من عُمُرِها، واعتنقتِ الإسلامَ بعد أن تلقَّتْ تعليمًا دينيًّا متقدّمًا ومكثفًا إلى حدٍّ كبيرٍ، وعندما صار عُمرُها يتراوحُ بين الثامنةِ والثلاثين والأربعين أصبحَ لها إسهاماتٌ واضحةٌ في الحياةِ الدينيّةِ والاجتماعيّةِ داخلَ الدولةِ، حيث نجدُها قد أنشأت مجمَّعًا كبيرًا ضَمَّ بداخله جامعًا ومدرسةً دينيّةً ودارًا لإطعام المساكين ومدرسةً للصبيان، فهل يتوافقُ مع

العقلِ والمنطقِ الزعمُ بأن المرأةَ نفسَها تعملُ -لا سيّما بعد أن انتسبت للقصر وصارت زوجةَ السلطانِ سليمان المبجَّل- ضِدَّ دولةٍ هي سيدتُها الأُولى، ومعشوقةُ سلطانِها، لصالحِ دولةٍ أخرى -بولندا- تعتبرُها وطنَها، لكونِها مَحَلَّ ميلادِها فحسب؟!

ثالثًا: هل كانت علاقةُ الصداقةِ التي عملت "خُرّم" على عقدِها مع ملكِ بولندا، تتنافى مع السياسةِ التي كانت تتَّبِعُها الدولةُ العثمانيّةُ مع الدولِ الأوروبيّةِ؟ وهل سبَّبت تلك العلاقةُ ضررًا للدولة العَلِيَّة؟ وهل تأثَّرت الدولةُ العثمانيّةُ بشكلٍ سلبيّ من جراءِ التقاربِ الذي حدث بين "السلطانة خُرَّم" وملكِ بولندا؟ إننا لا نجد في المصادرِ التاريخيّةِ أيَّ وثيقةٍ أو رأيٍ يُشيرُ إلى أيِّ ادِّعاءٍ مما سبق.

رابعًا: هل كانت "السلطانة خُرّم" تقيم هذه العلاقات خُفْيَةً دون علم زوجها "السلطان سليمان"؟ ليسَ كذلكَ أبدًا؛ فالتعبيراتُ الواردةُ في الخطاباتِ تفيدُ وتبيّنُ بوضوحٍ أنَّ هذه المراسلاتِ كانت تَتِمُّ بِعلمِ ومعرفةِ السلطان.

النتيجة: إن الاعتمادَ على خطابيْنِ كَتَبتْهما "السلطانة خُرّم" -التي لم يتأكّد بشكلٍ قاطعٍ أنها بولنديّةُ الأصلِ- إلى ملكِ بولندا، للحُكْمِ عليها بأنها كانت تسعى لإيقافِ حملةٍ عسكريّةٍ عثمانيّةٍ على بولندا، وتُكافِحُ من أجلِ إنقاذِ أبناءِ شعبِها من الفناءِ! ليس ادعاءً يفتقر إلى دليلٍ فَحَسْب، بل إنه اتهام عَبَثِيٌّ لا أصلَ له.

إن أصحابَ هذه الادعاءات يَهدِفونَ من وراءِ هذه الاتهاماتِ التي وجَّهوها للسلطانة "خُرّم"، إلى القول بأن سليمان القانوني، الذي عُرِف واشتهر في العالم الغربيّ بلقبِ "سليمان المعظَّم"، كان يَعْمَل ضِدَّ مصالحِ

الدولةِ العثمانيَّةِ بسببِ عشقِهِ امرأةً أوروبيّة الأصلِ، وبُغْيتُهم من وراءِ ذلك زعزعـةُ مكانةِ هذا "الحاكم العظيم"، ومِن ثَمَّ فإن اتهاماتِهم تظلُّ وسـتظلّ بلا قيمةٍ لأنها تفتقدُ إلى البَرهَنةِ المنطقيَّةِ والتوثيقِ العقلانِيّ، كما أنَّ القولَ بأن "السلطانة خُرَّم" كانت تُحرِك وتوجّه بمفردِها السياسةَ الخارجيَّةَ للدولةِ العثمانيَّةِ، إنما يَنُمُّ عن جهلٍ وعدمِ معرفةٍ بالدولةِ العليَّةِ العثمانيّةِ وإدارتِها.

مجموعةُ هدايا بقيمة عشرة آلافِ ليرةٍ

في الشـهور الأولـى من عـام (١٥٤٨م)، كانت الاعتـداءات الإيرانية علـى الحـدود لا تنقطـع، كمـا تمكن الصفويُّـون من احتلالِ عِـدَّةِ أماكنَ وعلـى رأسِـها قلعـةُ "وَانْ (*Van*)"، كما عمِـلَ الصفويُّونَ بِدَأَبٍ على نشـرِ المذهـبِ الشـيعيّ في أعمـاقِ الأناضولِ، وبذلـوا كلّ طاقاتهم في الدعايةِ والإعـلان لنشـرِ مذهبهم، كان السـلطانُ قد عقـدَ قبلَ ذلـك التاريـخِ بعامٍ واحدٍ، اتفاقيَّةَ سـلامٍ مـع النمسا وألمانيا، وبذلك يكون "سليمان القانوني" قـد اطمـأنَّ إلـى أنَّ الجبهـةَ الغربيَّةَ قد أصبحـت في مَأْمَنٍ، وحـانَ الوقتُ للانتهـاءِ من المشـاكلِ التـي يُسـبِّبُها الإيرانيون، وفي ذلـك الوقت حدثَ تطوُّرٌ آخرُ غير متوقَّـعٍ؛ حيث إن "ألكاس مرزا (*Elkas Mirzâ*)" شقيقَ الشاهِ الإيرانيّ "طهمسـب الأول" وحاكمَ ولايةِ "شيرفان (*Şirvan*)" الإيرانيَّةِ كان يَطْمَـح إلـى الحكمِ، لكن نتيجةً للضغوطِ التي مارَسَـها أخوهُ الأكبرُ عليه، اضطـرَّ إلـى الفرارِ هو ووزيـرُهُ وبعضُ أركانِ الدولة، وجاءَ إلى إسـطنبول عـن طريقِ "القبجـاق" و"القرم"، في تلـك الأثناءِ كانَ السـلطانُ مقيمًا في قصرِ "أدرنه"، وعندما علِمَ بقدومِ الأميرِ الصفويّ لاجِئًا وطالبًا العونَ، أمرَ بإنزالِهِ ضيفًا في القصرِ، كما أمرَ بتوفيرِ كافَّةِ متطلباتِهِ.

* * *

أبدى القانونيُّ اهتمامًا كبيرًا وعنايةً بالأميرِ "ألكاس مرزا"، وبعدَ يومينِ من وصولِهِ إلى إسطنبول أقامَ لهُ مأدُبَةً عظيمةً، بالإضافة إلى ذلك فقد أمرَ بإقامةِ ولائمَ على نفسِ الدرجةِ من الفخامةِ من أجلِ وزرائِهِ وأعوانِهِ.

وقد أسهَبَتِ المصادرُ العثمانيّةُ طويلًا في وصفِ الهدايا التي قدَّمها السلطان وزوجتُه إلى الأميرِ الصفويِّ، وتحكي لنا تلك المصادرُ أنه كان من ضمنِ الهدايا التي أُرسِلت بعدَ يومٍ من إقامةِ المأدبةِ التي أمرَ بها القانونيُّ في القصرِ، أكياسٌ وأطقمُ حُليٍّ من الذهبِ والفضَّةِ، وأقمشةٌ ثمينةٌ، وقِطَعٌ نادرةٌ من الفراءِ، وسروجٌ مذهَّبَةٌ ومُرصَّعة ومراكبُ فخمةٌ، وسيوفٌ وأسلحةٌ متنوِّعةٌ، وعبيدٌ وجوارٍ، وأحصنةٌ وبغالٌ.

وتحكي لنا المصادر أيضًا عن الهدايا التي أرسلَتها "السلطانة خُرَّم" التي تُقَدَّر قِيمتها بما يزيد عن عشرةِ آلافِ ليرَةٍ ذهبيّةٍ، ومن بين هذه الهدايا كانت توجدُ القمصانُ الحريريّةُ التي خاطَتْهَا بيديها، والملابسُ المزيَّنَةُ بأشرطةٍ ذهبيّةٍ وفضيَّةٍ، والألحِفَةُ والأرضيّاتُ والوسائِدُ والمفروشاتُ المشغولةُ بالذهبِ[٨٨].

وكما ذكرنا، فإن السلطانَ بعدَ أن اطمأنَّ إلى استقرارِ الأوضاعِ على الجبهةِ الغربيَّةِ، عَقَدَ العزمَ على الخروجِ على رأسِ حملةٍ عسكريّةٍ متوجّهًا إلى إيران، وكان قدومُ الأميرِ الصفويِّ اللاجِئِ عاملًا مؤثِّرًا في إسراعِ السلطانِ في اتِّخاذِ هذا القرار، ولكنَّ بعضَ المصادرِ تشيرُ إلى أنّ الأميرَ الصفويَّ "ألكاس مرزا" وقبلَ فِراره إلى إسطنبول باتَتْ لديه قناعةٌ بالعملِ لحسابِ الدولةِ العثمانيّةِ، وتذكرُ لنا هذه المصادرُ أيضًا أنَّ الأميرَ الصفويَّ كانَ قد وُعِدَ أيضًا بالجلوسِ على عرشِ إيران، بالتأكيدِ لقد كانَ الهدفُ

(٨٨) دانِشْمَنْد، المصدر السابق، الجزء الثاني، ٢٥٤-٢٥٥.

مـن وراءِ ذلـك هو القضاءُ على التشـيُّعِ الإيرانيّ، وإعـادةِ إحياءِ المذهبِ السُّـنِّيّ فـي الدولةِ المجاورةِ، إلى جانب القضـاءِ تمامًا على الخطرِ القادمِ من الشرقِ.

أما المصادر الغربية فتزعم أن "السلطانة خُرَّم" كان لها دورٌ في الحملةِ العسـكريّةِ التي وُجّهت إلى إيران، وبناءً على هذه المصادرِ فإن السـلطانةَ كانت تُخطط لاستغلال هذه الحملةَ في سبيلِ أن تجعلَ وراثةَ السلطنةِ في أبنائِها، كذلك فقد كانت "خُرَّم" تريدُ أن يكونَ ابنُها "بيازيد" هو وليّ العهدِ بـدلًا من الأمير مصطفى، ولتحقيقِ تلك الغايـة فقد أخذت تُمَهِّدُ الطريقَ؛ لكي تُمسِكَ مقاليدَ أمورِ الدولةِ في يديها.

* * *

بـدأ الجيـشُ السـلطانيُّ فـي التحـرُّكِ مـن إسـطنبول بتاريـخ الثامـن والعشـرين من نيسـان/إبريل من عام (١٥٤٨م)، واستطاعَ أن يَصِلَ "تبريز" في أواخرِ يوليو، وخلالَ فترةٍ وجيزةٍ تمَّت السيطرةُ على المدينةِ من جديدٍ كما تمَّ تطهيرُها من الشـيعة، وبحلول أواخرِ أيلول/سـبتمبر، بدأ السـلطانُ فـي التحـرُّكِ إلى "وَانْ" حيث تمكَّنَ من اسـتردادِها مـرَّةً أخرى، بعدَ ذلكَ وفـي الخامس والعشـرين من تشـرين الثاني/نوفمبر عـام (١٥٤٨م) توجّهَ السـلطانُ إلى "حلبَ" مارًّا بمدينـةِ "ديار بكر" حيثُ عقدَ العزمَ على قضاءِ الشتاءِ هناك .

فليُخسَفْ بهِ كما خُسِفَ بـ"قارون"

أثنـاء الفتـرةِ التـي مكَثَها السـلطانُ فـي "حلب" من أجلِ قضـاءِ فصلِ الشـتاءِ، لـم تكُـنْ تتأخَّرُ عنـه أيضًا خطابـاتُ "خُـرَّم" المُشـبَّعةُ بالدعاءِ لهُ وتمنياتِ الشـفاءِ، وها هي "السـلطانة خُرَّم" تُناجي -من جديد- السـلطانَ

الحبيبَ الـذي يلهُـو مـع الجِيادِ في رحـلاتِ الصيدِ التـي كان مُولعًا بها، فتكتبُ لهُ قائلةً:

"سـلطانيَ الحبيب، إنّني ألْهَجُ بالثناءِ والدعاءِ ألفَ مرّةٍ ومرّةٍ، وأقبِّلُ يديـك المباركتينِ، مُعفِّرةً وجهيَ تحتَ قدميك، وأنا أحمِلُ بداخلي ألفَ لَوْعةِ اشتياقٍ، تخرجُ من قلبي وروحي ولساني...

"يـا نـور عيني، يا سـلطاني الـذي أفديه بروحـي، إنّ أمَلِي أن تتقبّلَ اشتياقي العظيم من جاريتكم التعيسة...

سلطاني، كيف مزاجُكُمُ الشريفُ المباركُ، وهامتُكُم المباركةُ، وقدميكُـمُ الطاهرتين، وجوارحُكم جميعهـا؟ أتمنّى أن تكونَ بإذنِ اللهِ في خيرِ صحّةٍ وعافية، إن كلَّ طلبي من الباري ﷻ، هو أن يتكرّمَ ويصونَ ذاتَك الشريفةَ من كلِّ الأخطارِ والبلايا، وأن يجعلَكَ على الدوام في حفظِه ورعايتِه، أطالَ اللهُ عمركَ مثل نوحٍ عليه السلام"[٨٩].

* * *

وتتابعُ السلطانةُ في خطابِها شرحَ ما بها من ألمِ الفراقِ ونارِ الحسرةِ:

"سـلطانيَ المُبَجَّـلُ، يـا نـورَ عينَـيَّ، وسـلوان قلبي، يـا منبعَ حسرتي التي أصبحت تفوق الكون كلّه جرّاءَ البعد عنك !.

يـا ليتكـم تتكرّمون بالسـؤالِ عن حالي البائـس لبعدكم، لقد احتـرق كبـدي مـن الألمِ والحسـرة، وتدفّقـت الدموعُ مـن عينيَّ كالسـيل من وجعِ الفـراق، واللهُ وحده الذي يعلم مـا أُعانيه بهذا البِعـاد، وكيف أنني سـئِمتُ ومللْتُ كلَّ شـيءٍ بعـد غيابكم عني، واللهِ إنّني لا أسـتطيعُ أن أصِفَ فرحتي أو أُعبّرَ عن بهجتي عندما أرى جمالكـم قـد لاحَ لي، يعلـم اللهُ أنني أحترقُ ليـلًا ونهارًا من لهيـبِ الفِراقِ وحسـرةِ البِعـادِ، يعلم اللهُ أنني لـم أعـدْ أعرفُ طعمَ الراحـةِ بعـدك، فأنا لا أجِدُ خيرًا أو هناءةً ما دمْتُ بعيدةً عن ترابِ قدمِكَ المباركةِ".

---

(٨٩) الخطاب كان مكتوبًا باللغة التركية العثمانية المليئة بالكلمات العربية والفارسية.

السلطانةُ تنقلُ المعلوماتِ إلى السلطان:

"سـلطانيَ العزيز، لقد حدثَتْ جَلَبَةٌ في المدينةِ عندما أُشيـعَ أنَّ البشـيرَ قادمٌ، وأخذَ الناسُ يسـتعدُّونَ لتزييـنِ المدينة؛ ينتظرونَ دخـولَ البشـيرِ، فـي الوقتِ الـذي تُعَسْـكِرُ فيه يا سـلطاني العزيز بقواتِـكَ فـي "حلبَ"، ولما لَمْ يُقبَضْ علـى أيٍّ من ذوي الرؤوسِ الحمـراءَ (تقصـدُ الشـيعةَ الصفويِّينَ)، فلن يكونَ هنـاكَ أيُّ جديدٍ علـى السـاحةِ؛ ومِن ثَـمَّ فإن قدومَ البشـيرِ لن يفرّحَ أحـدًا، بل قد تحـومُ الشـائعات: تُرى أيأتي البشـير ليخبر بأن حضرة السـلطان سيقضي الشتاء في حلب؟".

* * *

"خُرَّم" تنهي خطابها بالدعاء على الشاه "طهمسب":

"أسـأل الله ﷻ يا سـلطاني، أن يقضي على هـذا الملعون في أقرب وقت، ويهلكه، ويجعل عاقبته كعاقبة "قارون" (٩٠).

يظهـر لنـا هذا الخطـاب المليءُ بالحـبِّ والمشـاعرِ، الذي أرسـلته "السـلطانة خُـرَّم" ذات الخامسـةِ والأربعيـن عامًـا إلـى زوجِها السـلطان القانونيّ ذي السادسةِ والخمسين عامًا، يظهرُ لنا بشكلٍ جليّ للغايةِ مقدارَ المحبّةِ العميقةِ والقويَّةِ التي كانت تجمـعُ "خُرَّم" و"سليمان". (٩١)

* * *

(٩٠) أولُوجاي، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول – ٢٠٠١م، ص ٦٤-٦٦.

(٩١) يذكر لنا " تشغطاي أولوتشاي" في كتابه الذي صدر عام (١٩٥٦م) تحت عنوان (رسائل من الحريم) أن هناك سبعة خطابات قد أرسلت من "السلطانة خرّم"، إلا أن المؤلف يخبرنا أنه بعد صدور الكتاب قد ظهر خطاب آخر جديد في مكان آخر ينسب إلى "السلطانة خرّم"، وذلك تحت اسم مختلف، وهكذا فإن مجموع ما قد نسب إلى "السلطانة خرّم" من خطابات أرسلتها إلى السلطان "القانوني" يبلغ ثمانية خطابات بناءً على ما يذكره صاحب الكتاب.

تحرَّك القانوني من "حلب" على رأسِ الجيشِ السلطانيّ في حزيران/ يونيو من عام (١٥٤٩م)، واستطاع أن يصل إلى إسطنبول في الحادي والعشرين من كانون الأول/ديسمبر بعد أن مر بطريق "ديار بكر"، وفي مراسلاته مع الحكام الأصدقاء ذكر أنه قد تمكَّنَ في تلك الحملةِ العسكريَّةِ من أن يفتحَ إحدى وثلاثين مدينةً(٩٢).

شائعات حولَ "القانونيّ"

بحلول عام (١٥٥٣م) كان هناك أربعةُ أبناء ذكور أحياء للسلطان "سليمان القانوني" وهم "سليم" و"بيازيد" و"جِهَانْجِز" والأمير مصطفى أكبَرُهم سنًّا، كان الأميرُ مصطفى في عامِهِ التاسعِ والثلاثين أمّا الأمير "سليم" فكان في الثلاثين من العمرِ و"الأمير بيازيد" في الثامنةِ والعشرين أما "الأميرُ جِهَانْجِز" فكان في الثالثةِ والعشرين، كان السلطان سليمان يقتربُ من سنِّ الستِّين وكان تقدُّمُهُ في السنِّ يزيدُ من قلقِ أبنائِهِ حولَ من سيخلُفُهُ في الحكمِ من بينهم، كان الأميرُ مصطفى قد تلقَّى تعليمًا جيِّدًا، كما كان محبوبًا من قبل العسكرِ (الإنكشارية) وكذلك من قِبَلِ المثقَّفِين، وكان ذلك لمزاياه التي شملت صلابةَ الشخصيّةِ إلى جانبِ الجِدِّيَّةِ والأخلاقِ الحميدةِ التي كان يمتلِكُها، وبالنظرِ إلى سِنِّهِ ووضعِهِ الذي كان قائمًا فقد كان الأمير مصطفى يُنظَرُ إليه على اعتبارِ أنه هو السلطانُ القادم(٩٣).

في تلك الأثناء كانت الحملاتُ العسكريَّةُ التي يقودُها "سليمان القانوني" سواءً إلى الشرق أو الغربِ قد نالت منه وأرهقَتْهُ، وفي الأعوامِ الأخيرةِ أصبحَ "السلطان سليمان" يديرُ الحملاتِ العسكريّة الموجَّهَةِ

---

(٩٢) أكتُونْ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣٠٧.

(٩٣) أوزُونْ جَارْشِيلي، المصدر السابق، ص ٤٠١.

إلـى الغـربِ من خلالِ وُزَرائِهِ دونَ أن يخرجَ بنفسِـهِ إلـى أرضِ المعركةِ، وفي مواجهةِ تجاوزاتِ الصفويِّين واعتداءاتِهم على "أرضروم" و" أخلاط (*Ahlat*)" فقد قام القانونيُّ بإرسـالِ الصدرِ الأعظمِ "رسـتم باشا"، مما نتَجَ عنه انتشارٌ للشائعات المتلاحقة بين الشعب والجيش.

وقـد كانت القناعة أو الرأي العام السـائد في تلـك الحقبة من الزمان يُحَمِّـل السـلطان من المسـؤوليات بقدر ما يحمِـلُ لهُ من تبجيـلٍ وتقديرٍ وتقديـسٍ واحتـرامٍ، وبنـاء على هـذه الفِكرةِ فـإنَّ السـلطانَ العثمانيَّ كان يُمثِّـلُ فـي النفوس الرجـلَ المقدَّسَ والقويَّ الذي يُجَسِّـدُ أكبرَ قـوَّةٍ ماديَّةٍ وروحيَّـةٍ علـى وجهِ الأرض والذي لا يحقّ لهُ أن يشـكوَ التعبَ أو يطلبَ الراحةَ، وكانت أبسطُ نقطةِ ضعفٍ لدى من يشغلُ هذا المنصبَ تؤدِّي إلى انتقاداتٍ كبيرةٍ بسببِ حماسةِ الروحِ القوميّةِ الهائجة[٩٤].

"صولاك زاده" يشرح لنا على النحو التالي حال الجيش:

"يتردد بين العسكر أنه بسبب كبر سن السلطان وتدهوُرِ حالته الصحيّة فإنه لم يعد يستطـع أن يخرجَ بنفسه على رأس الحملات العسـكريّةِ ويُفَضِّلُ أن يرسـلَ الصدرَ الأعظمَ على رأسِ الجيش، كمـا يتـردَّدُ كلامٌ يفيـد بـأنَّ هناك رغبةً فـي تولية الأميـر مصطفى مقاليـدَ البلادِ وإجلاسـه على العرش ولكن "رسـتم باشـا" يحول دون ذلك "[٩٥].

(٩٤) أَكْشُونْ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣١٤.

(٩٥) هناك أخبار قد انتشرت بين صفوف الجيش السـلطاني وقد أصبحت هذه الأخبار التي لا يعقل بعضها على لسان الجنود والتى صارت تملأ الأجواء تقول أن: "السـلطان قد أصبح كبيرًا للغاية في السن وقد أتعبته الحروب ونالت من عافيته، ولم يعد بإمكانه بعد اليوم أن يعمل أو أن يشترك في الحروب، من أجل ذلك فقد قام السـلطان بتنصيب "رستم باشا" كحاكمٍ على الأناضول، لكن "رستم باشا" كان هو المانع الذي يحول دون تحقيق رغبة السـلطان في تنصيب أمير الحق والانصاف الأمير السـلطان مصطفى على العرش!" وقد أصبحت هذه الأحاديث والأقوال هي محور حديث الناس كلهم في الروحة والإياب. (دَانِشْمَنْد، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٧٩).

سقوط الأمير في الفَخّ

المؤرخ الكبير "بَجَوِي (*Peçevi*)" يسجل لنا ما يلي:

"لقد كان الأمير مصطفى الذي يقتربُ من سنّ الأربعين يتمتّعُ بشخصيّةٍ مميزةٍ لدرجةِ أنها قد أثارَتْ غيرةَ باقي الأمراءِ، حيث كان منبعُ تلك الغيرةِ ما يتحلّى به الأميرُ مصطفى من علمٍ ومعرفةٍ إلى جانبِ الكرمِ والمهارةِ العسكريّةِ، كما كانت أغلبيّةُ العسكرِ تكادُ تكونُ مُجْمِعَةً قلبًا وقالَبًا على حُبّهِ،"[٩٦] وبناءً على ما يذكُرُه "بَجَوِي" فإن بعضَ الأشخاصِ الأرذالِ والسّفَلَةِ قد تقرّبُوا من الأمير مصطفى وأخذوا يبثُّونَ في عقلِهِ أمورًا ويقنعونَه ببعضِ الأفكارِ، حتى استطاعوا أن يخدعوا الأميرَ الساذجَ طيّبَ القلبِ، وتمكَّنُوا من أن يُحَرِّضُوه على التمرُّدِ ضدَّ والدهِ، كان الأمير يستندُ إلى الشعبِ وقوّةِ الجيشِ، فقام بجمعِ العسكرِ من أجل المسيرِ إلى الوزيرِ الأعظمِ، وخلاصةُ الأمرِ أنّ الأميرَ قد ضُلِّلَ بشكلٍ أو بآخرَ عن سبيلِ الصوابِ واستطاع ذووا الأفكارِ الشيطانيّةِ أن يُقنِعوهُ برفعِ رايةِ العصيانِ ضدّ والدِه.

عندما أُبلِغَ السلطانُ أن ابنَه مصطفى يدَّعي بأنّ لهُ الحقّ في تولّي حكمِ السلطَنَةِ، وعلى الرغمِ من وجودِ عدّةِ وثائقَ تُؤكِّدُ ذلك، فإنه لم يقبلْ تلك الادّعاءاتِ، وأصرَّ على رأيِهِ مخاطِبًا "رستم باشا" الذي جاء له بوثائقَ تُثبِتُ ما نُسِبَ إلى الأمير مصطفى:

> "حاشا لله أن يتجرّأَ الأمير مصطفى فتصدرَ عنه مثل تلك الوقاحة، وليس من المعقولِ على الإطلاق بالنسبةِ لمكانتِهِ أن تصدرَ عنه مثلَ تلك الأعمالِ! لكن بعضَ المفسدين الذين يميلون للأمير مصطفى يسعَوْنَ بالبهتانِ للإدّعاءِ والقولِ بأن يكونَ الملكُ له!

---

(٩٦) دانِشْمَنْد، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٨٠.

حـذارِ، فـلا تعيد مثلَ تلك الكماتِ على لسـانِكَ مرّةً أخرى، ولا تشـع تلك الأكاذيب!".

إضافةً إلى ذلك فإنّ السلطانَ لم يرِدْ أن يكتفيَ فقط بالكلمات، بل إنه تعمَّدَ أن يضـعَ حدًّا لما يُثَارُ من شائعاتٍ فقرّرَ أن يشتركَ بنفسِهِ في الحملةِ العسكريّةِ الموجَّهَةِ إلى "ناخشيفان (*Nahcıvan*)" ضد شاه إيران، وفي هذا الصددِ نجدُ أنّ هناكَ مقولةً تُنْسَبُ إلى "السلطانة خُرَّم" وهي:

"لا بدّ للشاهِ من شاهٍ يواجهه !)"(٩٧)

وإذا نظرنا إلى هذه العبارةِ، فهمنا عبقرية السلطانة ووجدنا مدى عمقِ إدراكِها وفهمِها الواسعِ لأمورِ الدولة. (٩٨)

أيهما ينتصرُ: عاطفة الأبوّةِ أم الحرصُ على سلامةِ الدولةِ وبقائها؟

خـرجَ "سـليمان القانونيُّ" في أواسـطِ عام (١٥٥٣م) فـي حملة على "ناخشـيفان"، وطـوالَ فتـرةِ سـفرِهِ كانَـتْ تأتِيـهِ أخبارٌ سـلبِيّةٌ تتعلّـقُ بابنِهِ مصطفى، لقد كانت التقارير الوافدة إلى السلطان تؤكد أن الأمير مصطفى عاقـد العـزم على المضـي في طريقه للاسـتيلاء على العـرش، ومن أجل تحقيقِ هذه الغايةِ فإنه قام بالتحالف مـع الصفويّينَ، وإلى جانبِ هذا وظنًّا منه أن ذلكَ قد يدعمُ موقِفَهُ ويعينُه على بلوغِ هدفِهِ فقد أطلقَ لحيَتَهُ(٩٩).

حـرص "السـلطان سـليمان" عندمـا عُرِضَـتْ عليـه هـذه الادعاءاتُ المتعلّقـةُ بابنِه على دراسـتِهَا بشـكلٍ دقيقٍ وجادٍّ، كمـا اعتمدَ على مصادرَ مختلفـةٍ اسـتطاعَ مـن خلالِها أن يسـتقيَ المعلوماتِ الصحيحـةَ التي كان

(٩٧) كانت "السلطانة خُرَّم" تريد أن تقول أن السلطان عليه بنفسه أن يتحرك لملاقاة شاه إيران.

(٩٨) أكشون، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣١٥.

(٩٩) كان يفهم قيام أحد الأمراء بإطلاق لحيته على إنه بمثابة أنه إعلان للتمرد والعصيان على السلطان، ومن أجل هذا السبب فإن الأمراء العثمانيين لم يكون أحدهم منهم يطلق لحيته إلا بعد أن يعتلي العرش.

يبغـي الوصولَ إليها دون ميولٍ أو عاطفـةٍ، وبعد الفحصِ والتدقيقِ أصبحَ السلطانُ على يقينٍ من وجودِ فِكرةِ التمرّدِ لدى ابنِهِ مصطفى.

* * *

كان السـلطانُ "سـليمان القانونيّ" حاكمًا يُبدي اهتمامًا كبيرًا بالحفاظِ على الشرعيّةِ وعدمِ انفراط عِقدها وعدمِ إتاحة المجال أمام أيِّ فرصةٍ قد تؤدِّي إلى إلحاقِ الأذى بالشعب أو حدوثِ حربٍ أهليّةٍ تُسالُ فيها الدماء، فقـد كان حرصُـه على الدولةِ فوقَ أيِّ نقطةِ ضعفٍ إنسـانيّة وكان يعتبرُ أن استيلاءَ والده السلطان "سليم ياووز" على العرشِ خطأٌ أدّى إلى تضعضُـعِ أركانِ الدولةِ، ولقد استفسَـرَ عن هذا الموضوعِ من "حسـن جان" صديقِ والـدِهِ، كان شـروعُ ابنِهِ في الصـراعِ من أجلِ الحُكمِ سـيفتحُ الطريقَ أمامَ حدوثِ الانقسـامِ في الدولةِ فيما بعدُ، لقد كان "سـليمان القانوني" عاقدًا العزمَ على أن تظلَّ الدولةُ العثمانيّةُ دولة خالدةً، وكان حرصُه على سلامةِ الدولةِ والحفاظِ على قوانينِها فوقَ كلِّ شـعورٍ آخرَ لديه، بل لقد كان هذا الحرصُ حتى فوقَ عاطفةِ الأبوّة وأغلى منها[١٠٠].

لقد اختار بقاء الدولة

لقـد ظـلَّ القانونيُّ متردِّدًا لعدّةِ مرّاتٍ خلالَ فترةِ حملةِ "ناخشـيفان "، لقـد كان يتأرجَـحُ بينَ عاطفةِ الأبوّةِ وبقـاءِ الدولةِ، لكنَّهُ بعدَ اجتيازهِ لقصرِ "كَرَمَـانْ أَرَغْلِسِـي" ووصولِـهِ إلى منطقـةِ "آق تبـه (*Aktepe*)" كان قد اتَّخذَ قـرارَهُ النهائـيَّ، وكان اختيارُه أن يقفَ إلى جانبِ مصلحةِ الدولةِ، في تلك الأثناء كان الأمير مصطفى مكلَّفًا بأن يشـتركَ هو الآخر في الحملةِ، حيث جاءَ مـع عسكرِهِ وأقامَ خيمتَهُ بعد أن انضمَّ إلى الجيشِ السلطانيِّ.

(١٠٠) أكشـون، المصدر السـابق، الجزء الأول، ص ٣١٥.

وفي اليوم التالي وبموجبِ النظامِ المُتَّبَعِ، توجَّهَ كبارُ رجالِ الدولةِ نحوَ خيمةِ الأميرِ مصطفى، وقبَّلوا يَدَهُ وهم مرتدون زيَّ التشريفات، وتلى ذلك أن توجَّهَ الأمير مصطفى أيضًا إلى خيمةِ الديوانِ السلطانيّ من أجلِ تقبيلِ يدِ والدِهِ هو الآخر، قامَ الوزراءُ بتحيّةِ الأمير مصطفى، وساروا أمامَهُ حتى أتَوْا به إلى خيمةِ والدِهِ السلطان، عندما دخل مصطفى إلى الفُسطاطِ المبسوطِ لم يتمكَّنْ من رُؤيةِ والدِهِ، حيث وجدَ في استقبالِهِ هناك سبعةً من الجلادينَ الخرس، وبعد أن استوعب الأميرُ الموقفَ، بدأتْ فترةٌ طويلةٌ من التعاركِ بينَه وبينَ الجلادين العاملين في خدمةِ والدِهِ والذين أخذوا يعملون على خنقِهِ، وعلى الرغمِ من أنه قد نجح في البداية أن يهربَ ويحرِّرَ نفسَهُ من بين أيديهِم، لكنَّ نجاتَه من بينِ أيديهِم لم تدُمْ طويلًا، فقد أمسكَ بِهِ "زال (*Zal*) محمود آغا" هذه المرّةِ وشرعَ هو ومن معَهُ من الجلادينَ في خنقِهِ إلى أنْ تمَّ إعدامُه خنقًا.

فَقَدَ السلطان ولديه في شهرٍ واحدٍ

لقد أحدث مقتلُ الأميرِ مصطفى صدمةً في الجيشِ حيث أخذَ قُدامى المحاربين في البكاءِ، وأعرَبُوا عن انزعاجِهِم مُحَمِّلينَ الصدرَ الأعظمَ "رستم باشا" المسؤوليةَ الكاملةَ عن هذهِ الحادثةِ، كان "السلطانُ القانونيُّ" باعتبارِهِ رئيسَ الدولة يتصرَّفُ بأعصاب باردةٍ، وقامَ بعزلِ الصدرِ الأعظمِ في حضورِ الوزراءِ، كما أمرَ بأن يُؤْخَذَ الختمُ السلطانيُّ منه، بعد ذلك عيَّنَ السلطانُ "قره (*Kara*) أحمد باشا" صدرًا أعظمَ جديدًا، ويُروى أنَّ "قره أحمد باشا" كان يحظى بِحُبٍ شديدٍ من قِبَلِ الجيشِ، وكان مواليًا للأميرِ مصطفى، لدرجةِ أنه أرسلَ إليه خبرًا بألا يأتيَ إلى حضرةِ السلطان[١٠١].

(١٠١) يروى أن السلطان "القانوني" أراد أن يؤم بنفسه صلاة الجنازة على روح ابنه الأمير مصطفى لكنه اضطر أكثر من مرة إلى الخروج من الصلاة بسبب دخوله في حالة من البكاء الشديد. (أُكْتُونْ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣١٦).

وتُظْهِرُ التطوُّراتُ التي وقعتْ بعدَ وفاةِ الأميرِ مصطفى أن السلطانَ قدْ أصدرَ قرارَهُ بإعدامِ ابنِهِ الحبيبِ تحتَ ضغطِ مشاعر يَصْعُبُ التعبيرُ عنها؛ إذ عاشَ أوجاعًا وآلامًا نفسيّةً شديدةً، وتحرّقَ فؤادُهُ مثل أيّ أبٍ، إن هذا القرارَ الصعبَ الذي اتّخذه "القانونيُّ" لم يقفْ وراءَهُ سوى خوفه على سلامةِ الدينِ وبقاءِ الدولة، ونجدُ أن السلطانَ بعدَ ذلكَ قد أخذَ يُكافِئُ أولئكَ الذين كانوا مقرَّبينَ من الأمير مصطفى، كما أثنى كذلكَ على الذين قاموا بخدمَتِهِ منهم.

وبينما كان يتمُّ نقلُ نعشِ الأمير مصطفى إلى مدينةِ "بورصه (*Bursa*)"، كان الجيشُ السلطانيُّ يواصلُ تقدُّمَهُ في حملتِهِ العسكريّةِ حيث وصلَ إلى "حلب" وقضى الشتاءَ هناك.

* * *

وبينما كان القانونيُّ معسكِرًا في "حلب" كانت تنتظرُهُ فاجعةٌ جديدةٌ مؤلِمةٌ، فلقد مرضَ ابنُه الأصغرُ الأمير "جِهَانْجِرْ (*Cihangir*)"، حيثُ سقطَ طريحَ الفراشِ من شدَّةِ تأثُّرِهِ عندما سمِعَ نبأَ اعدامِ أخيه الأكبر مصطفى، وبعد فترةِ مرضٍ قصيرةٍ مرَّ بها "الأميرُ جِهَانْجِرْ" وافتْهُ المنيّةُ، لقد كان "الأميرُ جِهَانْجِرْ" معروفًا بعلمِهِ وتربيتِهِ العاليةِ وذكائِهِ، إلى جانبِ لُطْفِهِ وموهبَتِهِ الشعريَّةِ، وبعد أن أُقيمت صلاةُ الجنازةِ على "الأميرُ جِهَانْجِرْ" في "حلب" تمَ نقلُ نعشِهِ بعدَ ذلكَ إلى إسطنبول بأمر من والدِهِ، حيثُ تمَّ دفنُهُ في مقبرةِ جامعِ أخيه الأكبر "الأمير محمد" والذي كان قد تُوُفِّيَ قبلَ ذلكَ بنحوِ عشرِ سنوات.

وبحلولِ هذهِ الفاجعةِ أيضًا يكونُ "سليمان القانونيُّ" قد عاشَ أَلَمَ موت اثنينِ من أبنائِهِ في فترةٍ زمنيّةٍ وجيزةٍ تكادُ تُقارِبُ الشهرَ الواحدَ(١٠٢).

(١٠٢) لقد شيد "سليمان القانوني" من أجل هذا الأمير الشاب مجمع رائع خلف (مصنع المدفعية)، وكان هذا المجمع مكونًا من جامع ومدرسة وتكية، هذه المنطقة الرائعة التي تطل من فوق التل على مضيق "البسفور" تحمل اسم "جهانجير" نسبة إلى الأمير "جهانجير".

إتهامات ظالمةُ في حقِّ "القانونيِّ" وزوجتِهِ

لقد ألقى المُؤرخـون الغربيُون ومعهم المؤرِّخون الأتراك المنحازونَ للغربِ اللّومَ على "السـلطانة خُرَّم" فيما يتعلَّقُ بإعدامِ الأمير مصطفى كما اتَّهموها وحمَّلوها مسؤوليةَ قتل "إبراهيم باشا".

فمثلًا نجدُ "إســماعيل حقي أُوزُونْ جَارْشِيلِي (*Uzunçarşılı*)" يذكرُ ما حدثَ بخصوصِ هذه المسألةِ على النحوِ التالي قائلًا:

> "...لقد بذلت "السلطانة خُرّم" جهدَها وصنعت كلَّ ما بوسعِها سـرًا كـي يتولّى الحكمَ ابنُهـا "بايزيد" الذي تحبُّه كثيـرًا، وقد كان السلطان واقعًا تحت تأثيرِ تلك المرأة الجميلةِ؛ ومن ثَمَّ كان عليها التخلّصُ من الأمير مصطفى كي تُسلِّم السلطةُ للأمير "بيازيد"، وقد نجحت في أوّلِ فرصةٍ سـنحت لها في التخلّصِ من إبراهيم باشـا الـذي كان مؤيدًا لتولّـي الأميرِ مصطفى الحكم؛ حيث اسـتفادت في إنجازِ ذلك من الحوادثِ التي وقعتْ ضِدَّهُ (أي إبراهيم باشـا) آنذاك، ثم بدأت السـلطانة "خَاصَكِي" تعملُ على تجهيزِ الترتيباتِ اللازمـةِ للتَخلُّص من الأمير مصطفى وأخـذت تُنفِّذُ خُطَّتَها رويْدا رويـدًا كي تحقِّـقَ مأربَها في ذلك، ولقد لعـب "دامات (*Damat*) رستم باشا" دورًا كبيرًا في هذه المسألة، حيث قام بتزويرِ خطاباتٍ مفبركةٍ وموقَّعةٍ باسم الأمير مصطفى إلى شاه إيران. "(١٠٣)

* * *

وها هو تعليق "إسماعيل حامي دَانِشْمَنْد" بخصوصِ هذهِ الأحداث:

> "...لقد كان "رستم باشا" الذي بقيَ في أواسطِ الأناضول ولم يسـتطـعْ أن يواصلَ المسـيرَ إلى الشرقِ بسببِ شِـدَّةِ البردِ مشغولًا بالقيـام بأمـورٍ ملفَّقـةٍ ومدلَّسـة فـي حـقِّ الأمير مصطفـى، وذلك

(١٠٣) أُوزُونْ جَارْشِيلِي، المصدر السابق، ص ٤٠٢.

استجابةً لتعليمات حماته "السلطانة خُرَّم"، وما لبثَ أن أخبرَ حماه "السلطان سليمان" بأنَّ ابنَه الأكبر يستعدُّ للتمرُّدِ عليه."

"...لقد كان الصدر الأعظم يستغل -بكلِّ الخبث- الإشاعاتِ المنتشـرةَ بين الجيش والشعبِ، وفي الوقت نفسِهِ كان مستمرًا في تنفيـذِ التعليمـات التي تأتيه من حماته "السـلطانة خُرَّم" حيث كان يعملُ على إذكاءِ هذه الإشـاعاتِ ويبالِـغُ في تصويرِها وتضخيمِها لآلافِ المـرَّاتِ محوِّلًا إياها إلى تلميحاتٍ في منتهى الخطورة ثم يرسل رجالَه إلى "السلطان سليمان" لكي يقصُّوها عليه. "

"...ومـع أن المصـادرَ العثمانيّـةَ لا تتطرَّقُ إلى هذه المسـألةِ إلا أنّنـا نُصادِفُها في المصادر الغربية، ولا سـيّما تلك الرواية التي نجدهـا عنـد "روبرتسـون (*Robertson*)"؛ حيث تقـول إن الصدر الأعظم "رسـتم باشـا" حرَّرَ مجموعةً من الخطاباتِ المزوَّرةِ التي تُفيدُ أنَّ الأمير مصطفى سيتزوجُ بإحدى بناتِ شاهِ إيران "طهمسب الأول"، وسـيتعاونُ معه، ثمَّ أرسَلها إلى "السلطان سليمان" كدليلٍ على الخيانةِ والتآمر.

وكما يذكر "روبرتسـون" في كتابه الذي يحمِلُ عنوان "تاريخ الإمبراطـور "شـارل كانـت (*Histoire de L'empereur Charle-Quent*)" فقـد كانَ لتلـك الخطابـاتِ المـزوَّرةِ تأثيـرٌ كبيـرٌ علـى "السلطان سليمان" عند اتخاذِهِ قرارَه المتعلِّقَ بابنِهِ."

"...لقـد عملت "السـلطانة خُرَّم" ومعهـا "السـلطانة مِهْرِمَاهْ" منذُ سـنواتٍ على المبالغة والإكثار من الحديث أمام السلطان عن الخطـرِ القـادمِ مـن وراءِ الأميرِ مصطفـى، وهو مـا أدّى إلى تهيئةِ الأجـواءِ لكي ينقلبَ فكرُ السـلطانِ على ابنِـهِ معتقدًا أنه تآمرَ عليه بالفعل."

"إن المسـؤوليةَ عن هذه الجريمةِ التاريخيَّةِ المَهُولةِ تقـعُ على عاتـقِ "السـلطانة خُرَّم" ذاتِ الأصـلِ البولنديّ أو الروسـيِّ والتي قامت بها بالاشـتراكِ مـع عريسِ ابنتِها المقرَّبِ منها "رسـتم باشـا"

الكرواتـي الـذي كان أداتَهـا لتنفيـذِ مآربِهـا السياسـيّةِ، وفـي هذه الجريمـة كان هنـاك دورًا أيضًا للسـلطان "سـليمان" الذي انسـاقَ مخدوعًـا وراءَ هـذه الافتـراءاتِ، والتـي جاءت له موثَّقَـةً من قِبَلِ هؤلاءِ الناس الذين انعدمَ عندهم الضمير، لقد كان دورُ السـلطانِ هنا هوَ دورُ البطلِ المسـكينِ الذي انقضَّ على شخصٍ بريء اتُّهِمَ بالخيانـةِ وبمحاولةِ تعريضِ الوطـنِ للخطرِ من خلالِ التعاونِ مـع العدوّ في سبيلِ الوصولِ إلى السلطةِ، وتمَّ ذلك دونَ حتى أن يلقِ السلطان بالًا إلى أنّ هذا البريء المتّهمَ بالخيانةِ هو ابنُهُ."

"...لقـد كانـت تلـك الحقبـةُ الزمنيـةُ إحـدى الفتـراتِ التي اسـتطاعَتْ فيها عناصرُ غيرُ تركيّةٍ -سـواءً من الرجالِ أو النسـاء- الإستيلاءَ على مقاليدِ الحكمِ وعلى القصرِ العثمانيّ..."

"...لقد أصبح ثابتًا من خلال اتّفاقِ المصادرِ الأجنبيّة وكذلك ما ورد في مرثيّة "يحيى بك" أنه قد دُسّـتْ من طرفِ "رسـتم باشا" وثائـقُ تُنْسَـبُ للأميـرِ مصطفـى تُعبّر عـن رغبَته في التعـاونِ مـع إيران..."

"لقد كانت "السـلطانة خُرَّم" -التي عاصَرَت أزهى أيامِ الدولةِ العثمانيّـة خـلالَ عصرِها الذهبـيّ- واحدًا من أهمّ الأسـبابِ التي أدَّتْ إلى انهيارِ وتَضَعْضُـعِ هذه الدولة!"[١٠٤]

* * *

أما بالنسـبة لرأي "يِلْمَازْ أُوزْتُونَا" (*Yılmaz Öztuna*) فنراه يعرِضُهُ علينا من خلال كلامِهِ التالي:

"...إن مشـروعَ "السـلطانة خُـرَّم" ونواياهـا تجاهَ ولـيّ العهدِ الأمير مصطفى لم تتغيّرْ حتى بعد وفاة الأمير محمد."

"...لقد كان كلٌّ من ابنة "خُرَّم" وزوجِ ابنتِها أدواتٍ في يديها، وأخـذَ هـذا الثلاثيّ يسـيرُ نحـوَ هدفِهِ خطـوةً خطـوةً، حتى وصلَ

(١٠٤) دانِشْمَنْد، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٨١.

بهـمُ الأمـرُ إلى حدِّ تلفيقِ رسـائلَ مزوَّرةٍ ومُعَـدَّةٍ بدرجةٍ عاليةٍ من الاحترافِ، وبناءً على هذه الخطاباتِ المزوَّرَةِ أصبحَ من الواضحِ وجودُ اتِّفاقٍ بين الأمير مصطفى وشاه إيران "طهمسب الأول".

وبمقتضى هذا الاتفاق فإن الأميرَ مصطفى سيُسـاعِدُ شـاهَ إيران، وفي المقابِلِ فإنَّ شـاهَ إيران سـيدعمُ الأميرَ العثمانيَّ بجيشِهِ من أجلِ أن يجلسَ على العرشِ خلفًا لأبيه (١٠٥).

ونجـد "نِعْمَة طَاشْـكِيرَانْ (*Taşkıran*)" يتحدَّثُ عـن التَّخْميناتِ التاليَةِ المتعلِّقةِ بـ"السلطانة خُرَّم" في عملِهِ الذي صدَرَ بعنوان "كتاب خَاصَكِي":

"...يُنسَـبُ لهـا أنـه كان لديها تأثيـرٌ كبير فيمـا يتعلق بخروج حملة إيران."

"...لا شك في أن "السلطانة خُرَّم" كان لها دور في وفاة الأمير مصطفـى، إذ من المحتمل أنها لم تكنْ ترغبُ في وجودِ أيِّ عائِقٍ حتى يتمكَّنَ أحدُ أبنائِها من تولِّي الحكم عند وفاةِ القانونيِّ..."(١٠٦)

السـفير الألمانـي "أوجلر، ج. دي بوسـبيك (*Ogler G. de Busbecq*)" والذي عمل سفيرًا لألمانيا في إسطنبول أثناء فترةِ حكمِ القانونيِّ يقول في كتابه "ذكريات" :

"...إن "السـلطانة خُـرَّم" تبـذُلُ كلَّ مـا بوسـعِهَا مـن أجلِ أن تجعلَ أحدَ أبنائِها وريثًا للعرش، إنها تريد أن تهزَّ من مكانةِ الأمير مصطفـى الذي كان أكبَرَ الأمراءِ سـنًا وأعلاهـم مكانةً، ومن أجل الوصولِ إلى هدفها استفادت من مساعدة ومشورة الصدر الأعظم "رستم" بعد أن تزوَّجَ من ابنتها السلطانة "مهرماه""(١٠٧).

(١٠٥) يلْماز أوزْتونَا، تاريخ الدولة العثمانية، أنقرة - ١٩٩٨م، المجلد الأول، ص ٢٤٧.

(١٠٦) طَاشكِيرَانْ، المصدر السـابق، ص ٢٦.

(١٠٧) أولجر ج. دي بوسبيك (*Ogler G. de Busbecq*)، "ذكريات سفير في عهد "القانوني""، أنقرة، ١٩٥٣م، ص ٢٩.

أما "برنارد بروماج (*Bernard Bromage*)" فيقول:

"لقد كانت "السلطانة خُرَّم" مسيطرةً على قلبِ وعقلِ "السلطان سليمان"، لقد كانت تدقّقُ وتلاحظُ كلَّ ما يتعلّقُ بمزاجِهِ ورغباتِهِ وهواجسِهِ، حتى أصبحت على عِلمٍ بكلِّ شيءٍ، من أجل ذلك فقد أصبحت الأوامرُ الصادرةُ من "خُرَّم" تكتسِبُ من القوّةِ ما يوازي قوّةَ الفرمانات، لقد كانت "خُرَّم" تدبِّرُ على الدوام خططًا ظالمةً وقمعيةً ثم تُقنعُ بها حبيبَها "السلطان سليمان".

والآن سنوضِّحُ النقاطَ التاليَةَ لمنَ يتوجَّهونَ بالادِّعاءاتِ الباطلةِ والتي بلغَتْ حدَّ الإهانةِ في حقِّ "السلطانة خُرَّم" :

هل كان القانونيُّ متيّمًا بـ"السلطانة خُرَّم"؟

إن أوَّلَ الاتهاماتِ الموجَّهةِ إلى "السلطانة خُرَّم" تزعُمُ أن السلطانَ القانونيَّ كان خاضعًا لتأثيرِ وأوامرِ هذهِ المرأةِ الحسناءِ الجذَّابةِ، لدرجةِ أنه اندفعَ إلى نوعٍ من الوحشيَّةِ والفظاعةِ بحيث يأمُرُ-أي القانونيُّ- بقتلِ ابنه الأكبرِ ووليِّ عهدِه مصطفى.

يقول "أحمد رفيق ألتيناي (*Altınay*)" :

"أن السلطانة كانت تسعى لأن تَسْلُبَ قلبَ السلطان بجمالِها ولأن تصبحَ هي السلطانةُ الحاكِمَةُ للقصر والدولة، ومن أجلِ تحقيقِ تلك الرغبة فإن "السلطانة خُرَّم" لم تتورَّع عن الإتيانِ بأيِّ شيءٍ سواءً عن طريقِ الحيلةِ أو الخيانةِ أو الجريمةِ."

ولا يكتفي "أحمد رفيق ألتيناي" بهذه الكلمات بل إنه يتحامل على السلطان "القانوني" أيضًا فيقول:

"لقد كان "السلطان سليمان" أداة طيِّعةً في يد "خُرَّم" يفعلُ من

أجلِها أيَّ شيءٍ وينفِّذُ لها كلَّ ما تريد، وبعد أن كان ينتهي من عِدَّةِ جرائمَ كان يعودُ ليرتَميَ في أحضانها."(١٠٨)

يالَلْعجب!

هـل يـا تُرى وصلـت العلاقة العاطفيّةُ بينَ السـلطان و"خُـرَّم" إلى أن يصبحَ السلطانُ عاشقًا مجنونًا فاقد العقلِ، لدرجةِ أنه يأمرُ بقتل ابنِهِ وولي عهدِهِ من أجلها! أم لدرجةٍ تجعله يهزُّ أركان الدولةِ وأعمدتَها، وأن يعرض بلادَه وشعبَه للخطر!؟

ونجد السيد "نور بيكال (*Nur Baykal*)" يتساءَلُ في مقالةٍ أخرى:

"تلك المرأة -"السـلطانة خُرَّم"- التي تتوقّفُ حياتها ويتوقّفُ مسـتقبلُها ومسـتقبلُ أبنائِها على كلمةٍ تخرجُ من شـفتَي "سـليمان القانونـي" والتـي كانَ من الممكنِ أن تُلْقَى فـي إحدى زوايا قصرٍ قديمٍ عندَ وفاةِ السلطان أو أن تَقِفَ وهي تُشاهِدُ مقتلَ أبنائِها، ماذا كانت سـتصنـعُ تلكَ المرأةُ إن لم تقلْ أنها عاشـقةٌ للسـلطان؟ وقد كان السـلطانُ أسـيرَ الوحدةِ، بالنظرِ إلى وضعِهِ آنذاك؛ فهل يُعقل ألا يتجـاوبَ مـع هذهِ المرأةِ التي اهتمّتْ به، وأن يُحرم منها وهي الإنسـانُ الوحيـدُ الـذي يُمْكِـنُ أن يخفِّفَ عنـه آلام وحدِتِه؟ تُرى أيمكن أن يُطَلَقَ اسم العشق على هذه العلاقةِ القائمةِ بينهما؟"(١٠٩)

لا يمكن أن نصدق أن "القانوني" لم يحب "خُرَّم" على الإطلاق، وأن أشـعاره التي كتبها من أجلِها كانت مجرَّدَ مسـرحيَاتٍ من الشـعرِ الغنائيِّ العاطفِيّ، ولا أنه كانَ يراها مجرَّدَ امرأةٍ تُخَفِّفُ عنه وحدَتَهُ.

ولكن عشقه إياها لم يصِلْ إلى حدِّ الجنون، ولو أنَّ الأمرَ كان كذلك فهل كان من الممكن أن يصبرَ السـلطانُ مدَّة طويلةً من الزمانِ -هي على

(١٠٨) أ. نور بيقال (*Baykal*)، " السلطانة خُرَّم "، مجلة " التاريخ الشعبي "، ٢٠٠١م، الجزء الثاني، العدد ١٦، ص ٢٩.

(١٠٩) أ. نور بيقال (*Baykal*)، " هل جعلت "السلطانة خُرَّم" زوجها القانوني قاتلا؟ "، التاريخ الشعبي، ٢٠٠٤م، الجزء الرابع، العدد ٤٤، ص ٤٥.

الأقلّ سبعة عشر سنةً- على كلام "خُرَّم" من أجلِ القضاءِ على مصطفى وليِّ عهدِهِ؟

وهل كان بمقدورِهِ أن يَقِفَ طِوالَ هذه السنواتِ ضِدَّ رغبتِها المتَّقِدَةِ هذه دون أن ينفِّذَها؟

وهل كان "القانونيُّ" سَيَسْمَحُ بأن يُشَكِّلَ الأميرُ مصطفى خطرًا على كرسيِّ سلطنتِهِ؟

أَلَمْ يَشُكَّ "سليمان القانونيّ" -ذو الدهاءِ العسكريِّ والسياسِيِّ المنقطعِ النظيرِ- أبدًا في الوِشاياتِ التي كانَتْ تقومُ بها "السلطانة خُرَّم" في حقِّ الأمير مصطفى؟ يبقى لنا أن نَذْكُرَ أنَّ هذه الوشاياتِ التي كانتْ تقومُ بها من أجلِ أن تضمنَ وراثةَ العرش لأحدِ أبنائِها كان عليها أن تستمِرَّ مدَّة سبعةَ عشرَ عامًا على الأقل وذلك من تاريخِ مقتلِ الصدرِ الأعظمِ "إبراهيم باشا" عام (١٥٣٦م) وحتى إعدام الأمير مصطفى عام (١٥٥٣م)!

إذًا كيف كان القانوني يحكم بهذا الشكل!؟

قام "بالي (*Bâli*) بك" الذي أظهرَ بطولاتٍ كبيرةً في حربِ "مُوهَاجْ" بكتابة خطابٍ إلى السلطان القانونيّ يطلبُ منه -وهو يذكرُ ويُعَدِّدُ الإنجازاتِ التي قام بها في الحربِ- أن يعيِّنَهُ كوزيرٍ عندَهُ، وإذا نظرنا إلى الرَّد الذي أرسلَهُ السلطانُ "القانونيّ" إلى "بالي بك" فإننا نَجِدُهُ لافتًا للانتباه حيث يقول فيه:

> "إن الخدماتِ التي قدّمتها من أجلِ دينِ الإسلامِ ومِنِ أجلِ الدولةِ العليّةِ لم تذهبْ عندنا سُدًى، أتمنى لك السعادةَ والتوفيقَ، وأن يرضى اللهُ عنكَ، وأن يطَهِّر الله وجهك وينَوِّره في العالمين، إنك تريدُ أن نُنْعِمَ عليك نظيرَ الخدماتِ التي قدّمْتَها، إننا لن نمنحك درجة قائد لواء فحسبْ، ولكن سنمنَحُكَ -دون تَرَدُّدٍ-

رتبةَ أميرِ الأمراءِ، لكن لا تغترَّ بهذا، واعلم أن كلَّ شيءٍ للهِ ومن عندِ اللهِ وحده، ولا تفعَلَنَّ شيئًا لتنالَ رضانا نحنُ، بل اصنَعْ كلَّ شيءٍ لتفوزَ برضا الله، وحذار أن تُخْطِئَ فتطلبَ شيئًا منا نحن العباد الفانين، لا تُصَغِّر نفسَكَ عندنا، ولا تتسوَّلْ من أحد ".

* * *

لقد كان "سليمان القانوني" حاكمًا يراعي الأمورَ الدينيَّةَ بشكلٍ كاملٍ، لقد كان صاحبَ قلبٍ رحيمٍ لدرجةِ أنه كان حريصًا حتى على ألا يُؤْلِمَ نملةً.

ففي إحدى المرّاتِ وبينما كانَ يتجوَّلُ في حديقةِ القصرِ ذاتَ يومٍ رأى مجموعةً وفيرةً من النملِ وقد أخذَ يغزُو إحدى شجراتِ الكُمَّثرى، وعلى هذا النحو رأى أن الشجرةَ ستنهارُ فأرسلَ هذا البيتَ من الشعرِ إلى شيخِ الإسلامِ "أبو السعود أفندي":

إذا ما كان النمل يؤذى الأشجار،

فهل هناك من إثم في قتله؟

وقد ردَّ شيخُ الإسلامِ على هذا السؤالِ بهذهِ الفتوى التي جاءَتْ هيَ الأخرى في صورةِ بيتٍ شعريٍّ:

غدًا عندما تقوم الساعة،

ستأخذ النملة حقها منك [١١٠].

إنَّ من يُنَبِّهُ كُلَّ مَنْ حولَهُ بضرورةِ القيامِ بكلِّ عملٍ من أجلِ نَيْلِ رضا الله، ويعتني بالدين ويرعاه لدرجةِ أنَّهُ يطلبُ فتوى كي لا يغتصِبَ ولو حتى حقوقَ نملةٍ، هل من الممكنِ يا تُرى أن يأمُرَ حاكمٌ يتمتَّعُ بهذا القدرِ من الرأفةِ والرحمةِ بقتلِ ابنِهِ دونَ أيِّ ذنبٍ؟

(١١٠) إن "أبو السعود أفندى" يشير بطريقة رقيقة في هذا البيت إلى الحكاية التي وقعت بين النملة ونبى الله سليمان والتى ورد ذكرها في سورة النمل.

رجلُ دولةٍ عاشقٌ للعدالة

لقـد كان السـلطان "سـليمانُ القانونـيّ" قبلَ أيِّ شـيءٍ رجـلَ "قانون" ومساواةٍ وعدالةٍ إلى جانبِ كونِهِ رجلَ دولةٍ.

لقد عُرِفَ "السـلطان سـليمان" كحاكمٍ باسمِ السلطان "القانونيّ"، وقد أَتَتْ هذه التسـميةُ بسببِ لائحةِ قوانينَ كانَ قد أصدَرَها وتضمّنَتْ الأُسُسَ الإداريّةَ والماليّةَ والقضائيّةَ التي تقومُ عليها الدولة.

لقـد جعلَ رجالُ القانونِ العثمانيُّون اللوائِحَ القانونيّةَ التي تمّ إعدادُها مسـتقاةً من الشـريعةِ الإسـلاميةِ والتي أصبحَ يَتِمُّ تطبيقُها من خلالِ تلك اللوائـح، بحيـثُ إنّ أيَّ شـخصٍ يرتكبُ الجـرمَ أيًا ما تكـونُ درجتُه فقد كانت تُطَبَّقُ عليه نفسُ الأحكامِ الجزائيّةِ وذلك بشـكلٍ متسـاوٍ سـواءٌ أكانَ هذا الشـخصُ غنيًّا أو فقيرًا، من عامّةِ الناس أو من أصحابِ السُّـلْطَةِ، من عليَّةِ القومِ أو مِنْ صغارِ الناسِ. (١١١)

لقد كانت القوانينُ مستمَدَّة من الأحكامِ الإسلاميّةِ وكانت تستنِدُ على المبادئ التي تراعِي المساواةَ والعدالةَ بين البشرِ.

* * *

لقد كان السـلطانُ يرغبُ في الاجتماعِ برجالِ العلمِ في "دار السعادة" (أي: إسـطنبول) وحتـى إذا كانَ هـؤلاء العلماءُ موجودين ببلـدانٍ أجنبيَّةٍ، وفـي الواقعـةِ التي سـنحكِيها الآن يتَّضِحُ بشـكلٍ قويّ الأهميـةَ التي كان السـلطانُ يوليهـا للعلمِ والعلمـاءِ والقيمةَ التي كان يمنحُهـا للعدالةِ وأهلِ الجدارةِ:

(١١١) إن هذا المنهج من العدل والإنصاف والذي سار عليه "سليمان القانوني" كان السبب في أن يكون هناك تمثال نصفيًا له في متحف الكونجرس بواشنطن.

بعـد أن ترقَّـى "رمضـان زاده محمد جلبـي"[١١٢] إلى رتبةِ "نِيشَـانْجِي (*Nişancı*)"[١١٣] عُيِّـن حاكمًـا لـ"حلـب" أوَّلًا ثـمَّ لإحـدى مقاطَعاتِ مصرَ وذلـك بجهـودِ معارضيـه، ثم بعد ذلـك عُيِّنَ كمسـؤولٍ عـن مقاطعةٍ من مقاطعـاتِ مصرَ، ولكن "القانونيّ" بعدَ أن وجدَ أنَّ وظيفةَ "نِيشَـانْجِي" في الحكومةِ قد أصبَحَتْ خاويةً أصدرَ فرمانًا ذكرَ فيه:

"لقد أوكلت هذا المنصب إلى محمد الذي تولى أمر "المورا (*Mora*)".

لكـن الصـدر الأعظم "رسـتم باشـا" كان يريـد أن ينال هـذا المنصبَ شخصٌ آخر؛ لذا فقد ادَّعى أن "رمضان زاده محمد جلبي" متنازلٌ عن هذه الوظيفةِ ويريدُ البقاءَ في مصرَ، لكن السلطانَ بفَراسَتِهِ أدركَ الغرضَ الحقيقيَّ في نفسِ الصدرِ الأعظمِ وأصدرَ أمرًا مخالفًا لما كان يسعى إليهِ قائلًا:

"ليس من المناسـب إرسال ذوي الخبرة وأصحابِ الكفاءات العاليةِ إلى خارجِ إسطنبول، بل العكسُ هو الصحيحُ، لأنّ قدومَهم من مصرَ ومن سـائرِ البلدان إلى مركزِ الخلافةِ وعاصمةِ السـلطنةِ هو الصواب".

وعقبَ ذلك تمَّ تعيينُ "رمضان زاده" في منصِبِ "نِيشَـانْجِي" السـلطنةِ وظلَّ به حتى وفاتِه.[١١٤]

---

(١١٢) " رمضان زاده " الذي ولد في "مرزيفون" تم تعيينه عام (١٥٥٣م) في منصب "أمين دفتر" وفي العام التالى تم تعيـنه في وظيفة "رسول الكتاب"، وقد تم تعيين "رمضان زاده" في منصـب "نيشانجي" نظرًا للنجاح والكفاءة التي أظهرها في موقعه كمسـؤول عن الضرائب والسجلات العقارية، وبعد أن عمل بكل من "حلب" و"مصر" لفترة فقد تم تعيينه للمرة الثانية في نفس المنصب عام (١٥٦٢م). وقد تم دفن " رمضـاتن زاده " الذي توفي عام (١٥٧١م) في فناء "أمير بخارى"، ويعرف " محمد شلبي " بكتابيه اللذين ألفهما وهما كتاب "سير الأنبياء العظام وأحوال الخلفاء الكرام ومناقب آل عثمان" بالإضافة إلى كتابه الصغير "تاريخ نيشانجى".

(١١٣) كانت وظيفة "نِيشَانْجِي" تمثل منصبا ذى مقام عال حيث كان صاحبها عضوًا بالإدارة المركزية العثمانية في الديوان السلطاني، وكان يعهد إليه بطغراء السلطان العثماني، وبناء على لائحة القوانين التي سنها السلطان "الفاتح" فقد كانت مرتبة "نيشانجى" من الدرجات العالية في إدارة الدولة وكانت تأتى في الأهمية بعد منصب الوزير وقاضي العسكر و"الباش دفتردار".

(١١٤) طَاشْكِيزَادْه، المصدر السابق، ص ٦.

آهٍ يا سليمان، لقد نجوتَ بنفسِكَ وأمّا نحنُ؟!

لقد أوصى "السلطان سليمان" بأن يتِمَّ دفنُ دُرْجِ خزانتِهِ إلى جوارِهِ، ولهذا السبب فقد تمَّ بعدَ وفاتِهِ احضارُ دُرْجِ خزانتِهِ إلى المقبرةِ، لكنّ العلماءَ اعترضُوا على وضعِ دُرْجِ الخزانةِ في القبرِ وعلى دفنِهِ مع جثمانِ السلطانِ وبينما كانَ النقاشُ يدورُ حولَ إذا ما كانَ يجوزُ أو لا يجوزُ أن يُدفَنَ درجُ الخزانةِ في القبرِ إذا بالدرجِ يقعُ على الأرض وتتناثرُ الأوراقُ التي كانت موضوعةً فيهِ، وكانتْ هذهِ الأوراقُ عبارةً عن الفتاوى التي تلقَّاها السلطانُ من شيخ الإسلام "أبي السعود أفندي".

لقد أرادَ السلطانُ سليمانُ بوصيّتِهِ تلك أن يُبيِّنَ أنَّ كلَّ ما قامَ به من أعمالٍ كانَ على أساسٍ من العدالةِ ومراعاةِ الحقوقِ الإسلاميّةِ.

عندما رأى شيخُ الإسلام "أبو السعود أفندي" الذي شاركَ في مراسمِ الجنازةِ هذا المشهدَ قال وقد اختنقتْ كلماتُه وسطَ الدموعِ:

"آه يا سليمان، لقد نجوتَ بنفسِكَ، أما نحن؟!"

* * *

لقد استطاع السلطانُ "سليمان القانونيُّ" أن يُمَثِّلَ الإسلامَ خيرَ تمثيلٍ بعدلِهِ ومراعاتِه للحقوقِ، إلى جانبِ إنسانيّتِهِ وأخلاقِهِ الساميَةِ، وبهذا الشكل استطاعَ أن يتغلّبَ على القُوى التي كانَتْ تواجِهُهُ.

وقد كان دهاؤُهُ السياسيُّ يفوقُ الوصفَ، لقد تمكَّنَ "القانوني" من أن يُؤَسِّسَ دولةً عظيمةً حكمَتِ العالَمَ طِوالَ القرونِ ليس فقطْ بالقوّةِ العسكريّةِ، ولكن أيضًا بالمناوراتِ السياسيّةِ التي كان يجيدُها، كما أثَّرَ

من الناحيةِ السياسـيةِ في الأحداث الاجتماعيّةِ الحاصلةِ في أوربّا وتدخَّل فيهـا بدهـاءٍ وحنكـةٍ إلى أن نجـحَ في الاسـتفادةِ منها إلى أقصـى درجةٍ، أمـا فيمـا يخصُّ أوجهَ النقـدِ التي وُجِّهت إلى "القانونـي" فقد كانت هناك مجموعـةٌ مـن الانتقاداتِ المكـرَّرَةِ التي تعرضَت لها سـيرةُ حياتِهِ، وعلى وجهِ الخصوصِ تلك الادّعاءاتُ التي تناولت موضوعَ (تأثيرِ النساءِ عليه)، ولكـن تلـك الادعاءاتِ لا تعدو في النهايةِ سـوى أن تكـونَ مجموعةً من الإشاعاتِ التي تُشْبِهُ البالوناتِ التي نُفِخَتْ أكثرَ من اللازم، فهي في النهاية ادِّعاءاتٌ تفتقر إلى البراهين أو الوقائعيَّةِ والمنطقيَّةِ. (١١٥)

* * *

أليس من الظلم -ولو في نظر الإنسان العادي على الأقل- أن يُحَمِّلَ الكاتـبُ "دانِشْـمَنْد" مسـؤوليةَ بدايـاتِ سـقوطِ الدولـةِ العثمانيّـةِ في عام (١٩١٨م) للسلطانةِ خرّم زوجةِ القانونيّ مـع أنها ماتت عام (١٥٥٨م) أي قبلَ بدايات السقوطِ بأربعةِ قرون تقريبًا!؟

ويرى الكاتب نفسُـه في كتابِهِ المسمّى "الأحداث التاريخيّة المسلسلةُ في الدولة العثمانيّةِ" أن "السلطانة خُرَّم" مذنبةٌ بموتِها المفاجِئ! ياللعجب! وكأنها ماتت برغبتها وطلبها! فيقول:

> "بوفـاة "السـلطانة خُرَّم" عـام (١٥٥٨م) وبعد أن تسـبَّبَتْ في إعدامِ الأميرِ المسـكينِ مصطفى من أجـلِ ضمانٍ أن تُصْبِحَ ولايةُ العهدِ في صالحِ ابنها "بيازيد"، نجدُ أنها قد جعلتِ السـاحةَ خاليةً أمامَ أنصار "سـليم" مما كان له نتائج كارثيّة على الدولة العثمانيّة، وهكـذا نجد أن تلكَ المرأةَ قد تسـبَّبَتْ في إلحـاقِ الأذى بالدولةِ

(١١٥) أكثبون، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣٣٧.

العليّةِ العثمانيّةِ سواء أكان ذلك في حياتها أو حتى بعدَ وفاتِها."(١١٦)

فنفهـمُ من كاتـبِ هذهِ الكلماتِ أنـهُ ربَّما يرفـعُ تهمةَ انهيارِ وسـقوطِ الدولـةِ العثمانيّـةِ عن السـلطانةِ خرَّم لـو أنَّها أخَّرَتْ وفاتَهـا وموتَها بعضَ الوقتِ! وهل هذا كلامُ رجلٍ عاقل؟! وهل هيَ التي اختارَتْ زمانَ وتوقيتَ موتِها!؟

الأبناءُ الذين يتمرّدُونَ على الآباءِ

هـل كان التاريـخُ العثمانيُّ خاليًا من الأبناءِ الذيـن أعلنُوا التمرُّدَ على آبائِهم؟ فمثلًا: ألمْ يتحدَّى "السلطان سليم ياووز" والِدَهُ "السلطانَ بيازيد"؟ ألم يُزِحْ السـلطان "سليم ياووز" -بمسـاعدةِ العسكرِ ورغبَتِهِم- والدَهُ عن العـرشِ ويجلس مكانَهُ؟! وعلى حيـنِ أنَّ تلك الحادِثَةَ المُهِمَّةَ التي وقعت فـي حيـاةِ "القانوني" كانت حاضرةً في الأذهان، فهل من الممكنِ الاعتقادُ بأن السلطانَ لم يُبالِ بحادثةِ الأمير مصطفى ؟! وكما حاولنا عرضَهُ وتقييمَهُ في الأقسـامِ السـابقةِ فإن السـلطانَ كان مشـغولًا بـ"بقاءِ الدولـةِ والحفاظِ على سـلامةِ اسـتمراريَّتِها" أكثر من انشغالِهِ بشـكوكِهِ ومخاوفِهِ الشخصيَّةِ

---

(١١٦) لقد تم تعيين "الأمير سليم" وليًا للعهد نظرًا لأنه كان الأكبر سنًا، أما "الأمير بيازيد" فقد كان محبوبًا من والدته وتحت حمايتها، وقد كانت هناك قناعة لدى أي شخص بأنه إذا كان اختيار السلطان الجديد بيد "السلطانة خُرّم" فإنها كانت ستولي "بيازيد" على العرش، لكن "السـلطان سـليمان" كانت لديه رغبة قوية في أن يخلفه "الأمير سليم" من بعده، أما "بيازيد" الذي كان يعلم هذا الأمر فقد كان يسعى بكل الطرق من أجل أن ينقذ نفسـه من المصير الذي كان ينتظره ومن أجل الإفلات من الموت المحتوم على يد جلادي أخيه، وقد قرر "بيازيد" أن يجرب حظه ويصارع من أجل العرش بدلًا من أن ينتظر الموت. (بوسبيك، مذكرات سفير في عصر "القانوني"، أنقرة ١٩٥٣، ص ٤٨).

كان "القانوني" في صف ابنه "سليم" عندما اندلع الصراع بين الأخوين وأرسل له العون بقيادة "صوكوللو محمد باشا"، وقد فر "بيازيد" هاربًا بعد أن هزمت قواته في المعركة التي وقعت بين الأخوين عام (١٥٥٩م) عند السهل "قونيه (Konya)"، وتلا هذا أن التجأ إلى إيران مع ابنائه الأربعة وحوالي ألف رجل من رجاله، أراد "القانوني" أن يسلم إليه "بيازيد"، وفي النهاية وافق شاه إيران الذي لم يستطع أن يقاوم رغبة السلطان فقام بتسـليم الأمير "بيازيد" إلى أخيه "سليم"، وتم إعدام "بيازيد" وباقي الأمراء شنقًا في "قزوين" في يوم السادس من تشرين الأول/أكتوبر من عام (١٥٦١م) حيث تم إحضار جثامينهم إلى الأناضول ودفنوا في مدينة "سيواس". (علي آقتاش، مجلة العالم التركي التاريخية، إسطنبول - ١٩٨٧م، ص ٤٧).

والنفسيَّةِ، وكان هذا الشاغِلُ بالنسبةِ لرجل دولةٍ قويٍّ بحجمِ القانونيِّ أمرًا له الأولويّةُ عنده ويفوقُ كلَّ اهتمامٍ آخر.

إن سعيَ الأمير مصطفى للتعاونِ مع شاهِ إيران كانَ من الممكنِ أن يُؤَدِّي إلى حربٍ أهليّةٍ، وهو ما كان سيُعَرِّضُ الدولةَ العليَّة في حالِ حدوثِ ذلك إلى أضرارٍ كبيرةٍ وشُرُورٍ مستطيرةٍ، وبالنسبة لحاكمٍ كان يُطَبِّقُ على نفسِهِ أوّلًا وقبلَ الجميعِ القوانينَ التي تكفلُ الحفاظَ على الدولةِ، أفلا يكونُ قيامُ الأميرِ مصطفى بالتعاونِ مع الأعداءِ واختيارِ طريقِ التمرُّدِ على الدولةِ بمثابةِ زعزعةٍ لأركانِ الدولةِ السياسيَّةِ والاجتماعيّةِ؟.. وهكذا نرى أن إزاحةَ "السلطان سليمان" للأمير مصطفى وقيامَهُ بالتضحيَةِ بابنِهِ وفَلْذَةِ كَبِدِهِ لا يُفْهَمُ منه سوى أنه قد فعلَ ذلك لضمانِ بقاءِ الدولةِ واستمرارِها، وأيضًا من أجلِ الحيلولةِ دونَ حدوثِ حربٍ أهليّةٍ.

إن فكرةَ أنَّ إعدامَ الأمير مصطفى كان مرتبطًا بعلاقةِ العِشْقِ التي جمعَت السلطانَ "القانونيَّ" وزوجته "خُرَّم"، وأنَّ إعدامه كان مرتبطًا أيضًا بالدسائسِ والوشاياتِ التي كانت تقومُ بها "السلطانة خُرَّم" لهيَ فكرةٌ ساذَجَةٌ وضحلةٌ إلى أقصى درجة! بلْ هي فكرةٌ نابعةٌ عن عدمِ معرفةٍ بالدولةِ العثمانيَّةِ وحاكِمِها العظيمِ حقَّ المعرفة! وأيضًا فإن مثل هذا المنهج في التفكير ينم عن عدمِ إدراكِ وجهةِ النظرِ التي كانَتْ لدى السلطان وعن عدمِ فهمِ العواقبِ السيّئةِ التي كان يحرصُ السلطان أن يحميَ الدولة منها في ذلك الوقت.

أينَ هيَ الرسائلُ المُزَوَّرَةُ؟

هل حقًّا كان الأميرُ مصطفى يسعى لعقدِ تحالُفٍ مع شاهِ إيران؟! أم أنّه كما تُشِيعُ بعضُ الادِّعاءاتِ كانَ ضحيَّةً لمؤامرةٍ ثلاثيّةٍ أركانُها هم "خُرّم

ومِهْرِمَاهْ ورستم"؟! وبعبارةٍ أوضح هل كان السلطان "سليمان القانوني" هو الآخرُ ضحيَّةً للتقاريرِ المُلَفَّقَةِ التي فبركَها هذا الثلاثيُّ المتآمرُ؟!

ألَمْ تكنْ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" -باعتبارِها ابنة السلطان- تُحِبُّ أباها السلطان بنفسِ القدرِ أو أكثر من محبَّةِ أمِّها خرّم لأبيها السلطان؟! أكانَ من الممكنِ أن تكونَ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" مشتركةً في عمليّةٍ موجَّهَةٍ ضِدَّ والدِها السلطان، وأن يكونَ لها دورٌ في مؤامرةٍ تؤدِّي إلى موتِ أخيها الأكبرِ مصطفى، أَلَمْ تشعُرْ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" بأيِّ قلقٍ من أنْ يعلمَ والدُها "السلطان سليمان" بهذا الأمرِ؟!

إن هناكَ ادِّعاءاتٍ بأنَّ الصدرَ الأعظمَ "رستم باشا" قد فبركَ خطاباتٍ مزوَّرَةً منسوبةً إلى الأميرِ مصطفى بعد أن تلقَّى الأمرَ بذلكَ من حماتِهِ "السلطانة خُرَّم"، ألم يكنْ "رستم باشا" صهرًا للسلطان "سليمان" كما كان صِهرًا للسلطانة "خُرَّم"؟!

أَلَمْ يأمُرِ السلطانُ بقتلِ "إبراهيم باشا" رفيقَ حياتِهِ وأعزَّ أصدقائه قبلَ سبعةَ عَشَرَ عامًا -كما أوضحنا في الأجزاءِ السابقةِ- بسببِ الأخطاءِ العديدةِ التي نُسِبَتْ إليه؟! أكانَ من الممكنِ أن يتجرأَ "رستم باشا" على خيانةِ "سليمان القانونيّ" والتحرُّكِ ضدّه واثقًا في وعودِ حماتِهِ "خُرَّم"؟! ومن يا ترى كانَ يجرُؤُ أو يستطيعُ خداعَ "القانونيّ" ملفِقًا ومُفبرِكًا خطاباتٍ مزوَّرةٍ؟! أليس من الأقلِّ خطورةً والأكثرِ أمانًا أن يقفَ "رستم باشا" في صفِّ السلطانِ بدلًا من أن يقفَ في صفِّ "خُرَّم" ؟!

إن الفكرةَ القائلةَ بأن "رستم باشا" قد أعدَّ خطاباتٍ مزوَّرةً لتكونَ دليلًا ضدَّ الأمير مصطفى هي فكرةٌ يصعبُ على الإنسان العاقلِ قبولُها بل تكادُ تكونُ مستحيلةً.

يبقى أن نذكرَ ما قاله "دَانِشْمَنْد" عن التأثيرِ الكبيرِ للخطاباتِ المزوَّرةِ التي تحدَّثَ عنها "روبرتسون" في كتابه "تاريخُ الامبراطورِ شارل كانت" -والتي لم تأت المصادر العثمانية على ذكر لها- حيث يذكرُ لنا "دَانِشْمَنْد" معتمدًا على الروايةِ المذكورةِ في نفسِ المرجِعِ أنّ "رستم باشا" أرسلَ دليلَ الخيانةِ الذي يحوي الخطاباتِ المُزوّرةَ المرسلةَ إلى "السلطان سليمان".

بالإضافة إلى ذلك يذكرُ الكاتبُ أنَّ روايةَ الخطاباتِ المزوّرةِ مثبتةٌ وموجودةٌ في بيتِ الشعرِ الموجودِ بالهامشِ(١١٧) وكذلك أيضًا بالوثائقِ، حيث نجدُ بيتَ الشِّعْرِهذا يُصَدِّقُ هذه الروايةَ في المرثيّةِ المشهورةِ والمقروءَةِ في كلِّ مكانِ والتي نَظَمَهَا وأعدَّها "يحيى بك". (١١٨)

لكن المثيرَ للعجبِ أنّنا لا نجدُ أثرًا لتلكَ الخطاباتِ المُزَوَّرَةِ لا في الأرشيفِ العثمانيِّ ولا في أيِّ أرشيفِ آخرَ بأيِّ مكانِ في العالم.

* * *

وفاةُ "السلطانة خُرَّم" عن عمرٍ يناهزُ السادسةَ والستينَ

لقد أصبحتِ "السلطانة خُرَّم" -التي تُعتَبَرُ من أكثرِ نساءِ القصرِ العثمانيِّ قوَّةً خلالَ العصرِ الذي عاشَتْهُ- رمزًا لحبِّ الخيرِ والحماسةِ، وتكادُ تكونُ هذه السلطانةُ قد اقتربَتْ أن تكونَ شريكةً لزوجِهَا السلطان في هذا المجالِ.

(١١٧) واحد أو اثنان من أهل الفساد المنحرفين كانا هما حطب الحريق،
واحد أو اثنان قاما بتزوير الخطاب فكانا السهم الذي قتله.

(١١٨) أليس من المضحك أن يعتبر الكاتب أن هذا البيت الذي في مرثية الشاعر بمثابة وثيقة تاريخية وأن يجعل إدعائه معتمدًا على هذا البند ؟!

و إلـى جانـبِ الأوقافِ التي شـيّدَتْها "السـلطانة خُرَّم" في إسـطنبولَ والقـدسِ فقـد أمرت بتحويلِ إحدى التكايا التي كانت تُعرف باسـم "قَرِيَه (*Kariye*)" إلى مدرسةٍ دينيّةٍ، وقد خَصَّصَتِ الأوقافَ ذاتَ الدخلِ المرتَفِعِ لجميعِ المؤسَّساتِ التي أنشأتْها وعلى رأسِها كلّية "خَاصَكِي".

* * *

وقبيـل عـام (١٥٥٨م) كانـت والـدةُ السـلاطين -حضـرة خَاصَكِي السـلطانة الكبـرى العتيقة[١١٩]- "خُرَّم"[١٢٠] تصـارعُ الأمراضَ، وفي نهاية عام (١٥٥٧م) وأثناءَ تواجُدِها في "أَدرنه" مـع زوجِها "السلطان سليمان" اشـتدَّ عليهـا المـرضُ، ورغـمَ كلِّ الجهودِ التـي بَذَلَهَا أطبـاءُ القصرِ عند عودتِهـا فـي مطلـعِ ربيـعِ عامِ (١٥٥٨م) إلى إسـطنبول إلا أن "السـلطانة خُـرَّم" تُوُفِّيَـتْ عن عمرٍ يناهزُ السادسـةَ والخمسـينَ بحيـثُ يمكنُ القولُ أنهـا قـد ماتت في سـنٍّ مبكِّـرةٍ نوعًا مـا، فكانت وفـاة "السـلطانة خُرَّم" في السـادس والعشـرين مـن جمادى الآخر مـن عام (٩٦٥هـ) الموافق للخامـس عشـر مـن نيسـان/إبريل عـام (١٥٥٨م)،[١٢١] وقد قـام الأطباء بتشـخيصِ سـببِ وفاةِ "خُرَّم" بأنه حُمَّى الملاريا! إلا أنَّ الموتَ بسـببِ هـذه الأمراضِ في يومِنا هـذا من الأمورِ القليلةِ والنـادرةِ، والأقربُ إلى المنطـقِ أنّ وفاةَ "السـلطانة خُرَّم" قد جاءت نتيجةَ مـرضٍ مختلفٍ تمامًا عمّا قاله الأطباء[١٢٢].

---

(١١٩) حضرة خاصكي السلطانة الكبرى العتيقة: لقب أطلق على السلطانة خرم، ويقصد منه التبجيل والتكريم والإحترام.

(١٢٠) حيث كانت تسمى والدة السلاطين، حضرة السلطانة المبجلة الأولى...

(١٢١) بَلْطَجِي، المصدر السابق، ص ٤٩٨.

(١٢٢) طَاشْكِيزان، المصدر السابق، ص ٢٧.

ونجدُ الرحالةَ المشـرقِيَّ "قطبَ الدين المكّيَ"[١٢٣] يذكرُ لنا ما يلي في كتابه "الفوائدُ السنيَّةُ في رحلة المدينة والروميّة":

"لقد توفِّيَت والدةُ السـلاطين يوم السبتِ في السـادسِ والعشرينَ من جمادى الآخر بعد أن تَعَسَّـرَ شـفاؤها من مرضٍ عضالٍ ألمَّ بها قبلَ فترةٍ، ولقد شُـيِّعَت جنازةُ أمِّ السـلاطين وملجأِ المسـاكين السـلطانة "خَاصَكِي" طيَّبَ الله ثراها ودامَتْ عِصْمَتُهَا حتى جامعِ "بيازيد" الذي وصلَتْهُ محمولةً علـى أكتافِ الوزراءِ،[١٢٤] وبعـد أن قُضِيَتْ صلاةُ الجنازةِ التي أمَّهَا المفتي الأعظـم تمَّ دفنُها على يدِ المفتي الأكبرِ شـيخِ الإسـلام، وقـد عمَّ الحزنُ على أهلِ إسطنبولَ بوفاتِها."[١٢٥]

الضريحُ الذي منحَ الحياةَ لحديقةِ الربيعِ

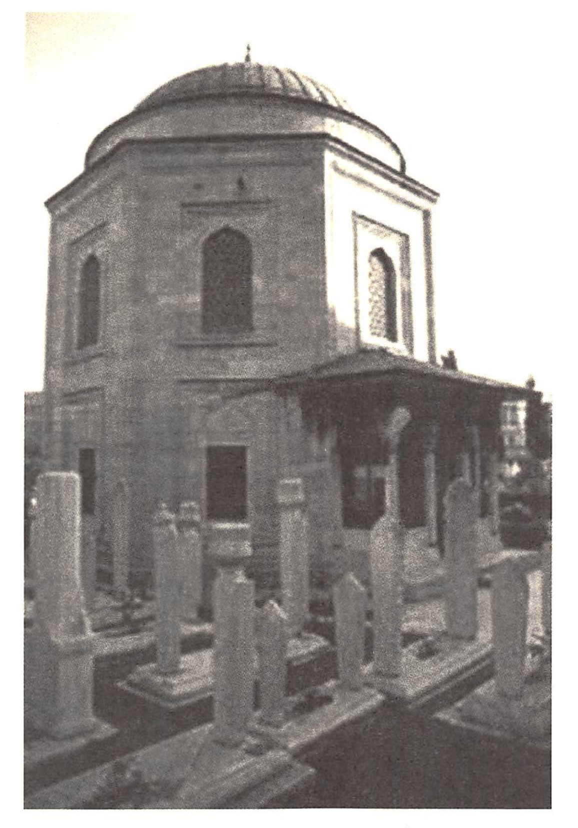
بعدَ أنْ دُفِنَتْ "السـلطانة خُرَّم" في مقبرَةِ جامِعِ "السـليمانيّة" أُقيمَ لها ضريـحٌ هنـاك حيثُ أمَرَ السـلطانُ "القانونيّ" فيما بعدُ بتشـييدِ مقبرةٍ كبيرةٍ لها، ونجدُ أنه قد كُتِبَتْ آيةٌ قرآنيَّةٌ ذاتُ حَجْمٍ كبيرٍ على الرخامِ المُثَبَّتِ في إطارِ القُبَّةِ الخاصَّةِ بضريحِ "السلطانة خُرَّم" ذي الثمانِ زوايا.

ويتميَّـزُ مدخـلُ ذلـك الضريحِ بـأنَّ له رواقًـا وبابًـا وكلا جانبيه مزيَّنٌ بلوحـاتٍ خَزَفِيّـة، وعلى هـذه اللوحات نجدُ آياتٍ من القـرآن الكريم قد

(١٢٣) ولد "قطب الدين مكي نهروالي" في "لاهور" عام (١٥١١م/٩١٧هـ)، درس لفترة في مكة، وفي الأعوام التالية تم تعيينه مفتي وقاضي لمدينة مكة نتيجة لعلو مكانته وتقدير رجال الدولة له. قام "مكي" بزيارتين إلى إسطنبول كانت أولاهما عام (١٥٣٦م) حيث اجتمع في كلا الزيارتين برجال الدولة العثمانية وكذلك دخل في نقاشات علمية مع العلماء، وفي عام (٩٦٥هـ/١٥٥٧م) أرسل إلى مقر الخلافة بصفة مبعوث من شريف مكة السيد "حسن ابن نومي" مع رجاء وطلب منه بإعفاء رئيس الانكشارية "بيري" الذي كان بالمدينة المنورة. وفي عام (١٥٦٧م) تم تعيين "مكي" من قبل السلطان "القانوني" كأول مدرس للمذهب الحنفي في المدرسة (السليمانية)، وفي عام (١٥٨٢م) توفي الشيخ "مكي" في مكة عن عمر يناهز الواحد والسبعين حيث دفن في مكان يسمى "الجنة المعلى".

(١٢٤) لقد حملت "السلطانة خُرَّم" عدة ألقاب سواء في حياتها أو بعد وفاتها، وصار من الثابت أن هذه السيدة قد استحقت الكثير من الألقاب العظيمة وقد تمتعت السلطانة بالاحترام وكانت لها مكانة مميزة بين أفراد الأسرة الحاكمة.

(١٢٥) طَاشْكِيزادَه، المصدر السابق، ص ٢٠.



ضريح "السلطانة خُرّم" في حظيرة جامع السليمانية في إسطنبول



كُتِبَتْ بالخَـزَفِ أيضًا بالإضافةِ إلى عباراتِ "لا إله إلا لله" و"سـبحان الله" و" الحمد لله"، وعند الدخولِ من بابِ الضريحِ نرى أعمالًا خزفيّةً مزخرفةً صفراءَ تعودُ إلى القرنِ السـادسَ عشـرَ، وعلى النافذةِ نلاحِظُ آياتٍ قرانيّةً مكتوبـةً أيضًـا على اللوحـاتِ الخزفيَّةِ التـي تعلوها، أما حوائـطُ الضريحِ فعليهـا أعمـالٌ خزفيَّةٌ تكادُ من روعتِها تَمَسُّ القلبَ وتُشْـعِرُ الإنسـانَ بأنه فـي حديقة مـن حدائقِ الربيـعِ، وفي نهايةِ الحائطِ نجـدُ إطارًا من النقوشِ الخزفيَـةِ البديعـة والخلّابةِ، أما زخـارفُ قبّةِ الضريحِ التي تحمِلُ سـماتِ عصرِها فقد ضاعت نتيجةَ عمليّاتِ الترميم(١٢٦).

* * *

ومـن أجـل خدمـةِ ضريحِ "السـلطانة خُرَّم" فقـد تمَّ تعيينُ عـددٍ كبيرٍ من الموظفين، وكان هؤلاءِ الموظفونَ ينقسـمون إلى مجموعات متنوعة، أمَّـا مجموعـةُ القـرَّاء فقد كانت تتكـوّنُ من واحدٍ وثلاثيـن قارئًا تقرأُ هذه المجموعـةُ جزءًا مـن القرآن الكريمِ في أوقاتِ الصبـحِ والظهرِ والعصرِ، هذا بالإضافةِ إلى مجموعةِ الحِراسـةِ والتي كانت تتكوّن من سـتةٍ وثلاثين شخصٍ يقومون بأعمالِ الحراسةِ، أما المجموعةُ الأخيرةُ التي كانت تعملُ فـي خدمـةِ الضريحِ فقـد كانت تتكوَّن من تسـعةِ أشـخاصٍ عُهِدت إليهم أعمـالٌ مختلفةٌ، ومن خـلال ذلك يُفهَمُ أن عددَ العمال بلـغَ مائةٌ وثمانيةً وثلاثين شخصًا يعملُ يوميًا في خدمةِ الضريحِ.

* * *

لقـد نجحت "السـلطانة خُـرَّم" في أن تَلْفِـتَ نظرَ "القانونـيّ" من بينِ جـواري القصـر الكثيـرات، حتـى إنها اسـتطاعَتْ فـي النهايـةِ أن تُصبِحَ

(١٢٦) هَالُوك شَاهْسُوفَاز أُوغْلُو (*Haluk Şehsuvaroğlu*)، " إسطنبول على مر العصور "، الملحق التاريخي لجريدة الجمهورية، ص ١٤٥.

محظيَّتَه والأقربَ إليه من بينِهِنّ، كما تمكَّنَتْ من أن تفوزَ بحقِّ العِتْقِ بعد أن أنجبت للسلطانِ أمراءَ، وكانت تَتَمَنَّعُ عن لقائِهِ حتى نالت في نهايةِ الأمر ما كانت تصبو إليه؛ إذ عُقِدَ قرانُها على السلطانِ بشكلٍ رسميّ، لقد أحبَّها "القانونيُّ" كثيرًا لدرجةِ أنه قد شيَّد الأوقافَ باسمِها، حيث أمرَ بتشييدِ دارٍ لإطعامِ المحتاجين في كلٍّ من مكةَ المكرمة والمدينة المنورة، كما قام ببناءِ دارٍ أخرى وخانٍ للقوافل وجامعٍ في منطقة "جسر مصطفى باشا" بمنطقة "أدرنه" وذلك على شاطئِ "مَرِيخ (*Meriç*)"، كما أمر بإقامةِ الكثيرِ من السُّبل المجانيةِ في "أَدرنه" وجلبَ لها الماءَ، وأرسل إلى أهالي الحجازِ -متصدّقًا عن زوجته السلطانة المرحومة- عام (١٥٦١م) صدقاتٍ تُقَدَّرُ بنحوِ ثلاثة آلاف قطعةٍ من الذهب.

حكاياتٌ ملفّقةٌ من نسج الخيال

إنّ بعضًا من المؤرّخين الأتراك وبعضًا من المؤرّخين الغربيّين الذين يُصدرون الأحكام -في حقّ حريمِ السلطان عمومًا، وفي حقّ السلطانة خرّم خصوصًا- كان هدفُهم ومبتغاهم الإساءةَ إلى كلِّ ماقامت به السلطانة خرّم، حتى صاروا يسعَون جاهدين بكلّ وسائلِهم المتاحةِ إلى إظهارِ هذه السيدة المحبة للخير ذاتِ الفِطْنَةِ وصاحبةِ الفَراسة على أنها منبعٌ للشرِّ والفساد.

فَمِنْ جُملةِ الأعمالِ التي تُنسَبُ لمؤلّفين اعتُبِرُوا من الكُتّاب العالميين والمشاهيرِ بسببِ الرواياتِ والسِّيَرِ الذاتيّةِ التي كتبوها عن السلطان "القانونيّ" كتابُ "فيرفاكس دونى (*Fairfax Downey*)"[١٢٧] و"هارولد لامب

(١٢٧) ولد "فيرفكس دونى" عام (١٨٩٤م) تخرج في جامعة "ياله" وعمل كصحفي، عرف ككاتب في التاريخ العسكري، واشتهر عندنا بكتابه عن التاريخ العثماني الذي صدر تحت عنوان"*The Grande Turke, Suleyman The Magnificent, Sultan of The Ottomans*" أو "التركي المبجل، السلطان العثماني "سليمان العظيم"، وقد توفي في ولاية "نيو هامشير" في الولايات المتحدة الأمريكية عام (١٩٩٠م).

(*Harold Lamb*)"[١٢٨] فإننا لا نجدُ سوى قصصٍ لا تعتمدُ على أيّ أساسٍ مِن الصحّةِ وتبدو في صورةِ حكاياتٍ شخصيّةٍ تُصَوِّرُ "خُرَّم" والسلطانَ "القانونيَّ" على أنهما كانا كيانًا واحدًا لا يفترقانِ عن بعضِهما البعض، وإن العاقلَ والمتدبِّرَ ليَعلمُ أنّ تلك المؤلفاتِ ما هي إلا أعمالٌ خياليّةٌ وقصصٌ خرافيّةٌ، وإنه لَمِنْ إضاعةِ الوقتِ كذلكَ أن نجلِسَ لِنَنْقُدَ هذه الحكايات والروايات والتي نراها في الغالبِ تأخُذُ شكلَ الأسطورةِ دون أن تستَنِدَ إلى أيِّ حقيقةٍ أو معلومةٍ صحيحةٍ أو برهان.

* * *

إننا نَجِدُ في المقابلِ أنّ "قطبَ الدين المكّيَ" -الذي كان من العلماء المشاهيرِ في تلك الفترة- يذكرُ لنا أنَّ "السلطانة خُرَّم" قد انشأتِ الكثيرَ من الأوقافِ والأعمالِ الخيريّة في عدَّةِ مدنٍ عثمانيّة، وعلى رأس هذه الأعمال ما نجده في مكةَ المكرمة والمدينةِ المنوّرة والقدسِ الشريفِ، كما يذكُرُ كذلكَ لنا أنَّ كلَّ أهلِ إسطنبولَ قد تأثّروا لوفاتِها.

هدفُهم معاداةُ الدولةِ العثمانيّةِ

إن هناكَ فئةً كبيرةً من مؤرِّخي الغربِ قد اغتنمَتْ كلّ الفُرَصِ لكي تفصحَ عن عداوتِها للدولة العثمانيّةِ، وقد بذلَ أولئِك المؤرّخون قُصارى جُهدهم لكي يحقِّقوا غايتَهم في النيلِ من شموخِ ومكانةِ الدولةِ العثمانيّةِ، مستغلِّينَ بذلك كلَّ الأحداث، ومستخدمينَ شتَّى الوسائل.

(١٢٨) ولد "هارولد لامب" في ولاية "نيو جيرسي" بالولايات المتحدة عام (١٨٩٢م). أنهى دراسته في جامعة "كولومبيا"، اهتم أثناء فترة دراسته بتاريخ الشعوب الأسيوية ثم تفرغ بعد الحرب العالمية الأولى لعمل الأبحاث التاريخية. ونظرا لأعماله العلمية فقد نال عام (١٩٣٣م) بمدينة "سان فرانسيسكو" جائزة مجموعة "الكومونولث"، وهو معروف لدينا بفضل دراساته التي تناول فيها "جنكيز خان" و"تيمورلنك" والسلطان "القانوني".

وقد كانت الحوادث المتعلقة بمقتل "إبراهيم باشا" والأمير مصطفى إحدى حلقات سلسلة الأحداث التي استغلَّهَا هؤلاءِ الكُتَّاب الغربيون من إجل إثبات ادِّعاءاتِهم والوصولِ إلى غاياتِهم .

لقد كان الهدفُ من هذه المحاولاتِ هو التقليلُ من القامةِ العاليةِ والهامةِ المرفوعةِ التي كان يمثِّلُها السلطان "القانونيّ" الذي رفعَ رايةَ الإسلامِ عاليًا، واستطاعَ أن يصنعَ لنا أزهى عصورِ الدولةِ العثمانيَّةِ وأن يجعلَ كلَّ أوروبًا ترضخُ لقوَّةِ الهلالِ (أي: الإسلام) الذي انطلَقَ من البلقان فاستطاعَ أن يملأَ بأصواتِ نِعالِ خيولِهِ العثمانيَّةِ أرجاءَ القارةِ الأوروبيَّةِ.

لقد حاول هؤلاء أن يطبعوا في الأذهانِ صورةً عن "سليمان القانونيّ" توحي بأنه عجوزٌ خائرُ القُوى، أسيرٌ لغرائزِهِ، ضعيفُ النفسِ بلا إرادةٍ، ظالمٌ، قاسي القلب، قتلَ ابنَهُ بلا شفقةٍ إرضاءً لِعِشْقِهِ، لقد قام هؤلاءِ بمحاولاتِ التشويهِ المتكرِّرة لسيرةِ حريمِ السلطانِ العثمانيِّ، وكانت وسيلتُهم في ذلك هي "السلطانة خُرَّم" وابنتها "مِهْرِمَاهْ" من خلالِ تصويرِ تلك القاماتِ الشامخةِ على أنها شخصيّاتٌ شيطانيةٌ وفي أسفلِ السافلين.

ومع الأسفِ فقد انساقَ كُتَّابُنا ذوو الميولِ الغربيّة هم الآخرون وراءَ هذه الادِّعاءات والأكاذيبِ، فسقطوا في حماقةِ ترديدِ الهراءاتِ والمقولات غيرِ المنطقية عن "سليمان القانونيّ" مثلَ مقولةِ "البطلُ المسكينُ الذي انساقَ مخدوعًا بالأباطيلِ".

إن مما يجبُ على المؤرِّخِ أولًا: أن يضعَ يدَه على الوثائقِ السليمةِ قبلَ أن يشرعَ في تقييمِ الأحداثِ، ثم يدقِّقُ النظرَ والفحصَ في المصادرِ والوثائقِ التي بين يديهِ حتى يتأكدَ من صحّتها من خلالِ العقلِ والمنطقِ، كما يجب على المؤرِّخِ أيضًا أن يجتهدَ في تحرِّي وفهم الأهدافِ التي يحملُها أصحابُ هذه الوثائقِ، إن المؤرِّخَ العادل لا يوجِّهُ للشخصيَّاتِ

التاريخيةِ افتراءاتِ بلا سندٍ أو ادعاءاتِ بلا دليل، حيث إنه لا يمكنُ تقييمُ الحـوادث أو الأشـخاصِ بشـكلٍ صحيحٍ من خلالِ مثلِ تلـكَ الافتراءاتِ والادعاءاتِ، فإنّ المؤرّخ لا يكيلُ الإهاناتِ ويُصدِر الاتهاماتِ إلى أعلامِ التاريخِ بشكلٍ تعسُّفِيّ دون دليل .

إن بعـضَ مؤرّخينـا لم يقوموا بتحليلٍ وافٍ للأحـداثِ التاريخيّةِ، ولم يسـتوعِبُوا بشـكلٍ سـليم العلاقةَ الحتميّةَ بين السـببِ والنتيجةِ، حتى إنهم مـعَ الأسـفِ ضاقت أفُقُهُمْ وصـاروا يتعاملونَ بانحيازٍ تـامّ مع الأحداثِ التاريخيّةِ.

ونلاحِـظُ أن هـؤلاءِ المؤرّخين -في أغلب أحوالهم- لم يفعلوا شـيئًا سوى إعادةِ وترديدِ أفكارٍ وأقوالِ الكُتّاب الغربيّين.

إن أحدَ مؤرخينا الكبار وهو الأسـتاذ الدكتور "أ. ذكى وليدى توجان (*Zeki Velidi Togan*)" يقول لنا:

> "إن ممّـا يجـبُ على المؤرّخِ أن يجتهـدَ ليتأكّدَ من معرفةِ أيِّ عامـلٍ مـن العوامـلِ المؤثِّـرةِ في حـدوثِ وتطوُّرِ الأحـداثِ كانَ الأكثـرَ تأثيـرًا، كما على المـؤرّخِ أن يعلـمَ جيّدًا التركيبةَ النفسـيَّةَ للبشـرِ، وأكثر من ذلك فإنَّ على المؤرّخِ أن يُدْرِكَ الطبيعةَ النفسيَّةَ للشـعوبِ والمجموعـاتِ وذلـك من أجـلِ أن يكونَ قـادرًا على فهـمِ الأحداثِ التي وقعَتْ في الأزمِنَةِ الماضية وكذلك على فهمِ الأشـخاصِ والجماعاتِ التي لعبت دورًا في تلك الأحداث فهمًا صحيحًا. "(١٢٩)

ومـن الباحثيـن المهمّيـن في التاريخ نجـدُ "محمد نيـازي (*Mehmed Niyazi*)" الذي يقول لنا معلّقًا على هذا الموضوع:

(١٢٩) أ.د أحمد ذكي وليدي توجانْ (*Togan*)، " الأساس في التاريخ "، إسطنبول – ١٩٨٥م، ص ١٠٧.

"علـى المؤرخ عندمـا يـدرُس كلَّ الأبعادِ المحيطـةِ بالواقعةِ التاريخيّةِ التي بين يديه أن يتحلَّى بدقَّةٍ وحرصِ العالِمِ الخبيرِ الذي يقفُ في المختبرِ العمليّ، وعليه أيضًا أن يكونَ محايدًا إلى أقصى درجةٍ في مواجهةِ ما يسجّلُه من وقائِع."(١٣٠)

* * *

إن المـؤرِّخَ المحايدَ لا ينبغي لهُ أن يُصْدِرَ حكمًا على البشـرِ اسـتنادًا إلى الجنسيّةِ التي ينتمي إليها هؤلاءِ البشر كأنْ يقولَ:

"إن المسـؤوليةَ عن هذه الجريمةِ التاريخيّةِ المهولةِ تقـعُ على عاتـقِ "السـلطانة خُرَّم" ذاتِ الأصـلِ البولنديّ أو الروسـيّ والتي قامت بها بالاشـتراكِ مـع عريسِ ابنتِها المقرّبِ منها "رسـتم باشا" الكرواتي الذي كان أداتَها لتنفيذِ مآربِها السياسيّةِ ".

وذلـك لأنّ البشـرَ لا يختـارون بإرادتهـم الأعـراقَ أو الشـعوبَ التي ينتمونَ إليها.

إن المـؤرِّخ المحايدَ والناجحَ لا يسـوقُ تخميناتِهِ الشـخصيّة الخاصّةِ بهِ فيما يتعلَّقُ بالأحداثِ التاريخيّة، فلا يأتي بمثلِ هذهِ العباراتِ الرديئةِ:

"لا شـكّ في أنَّ "السـلطانة خُرَّم" كان لها دورٌ في وفاةِ الأميرِ مصطفـى، إذ من المحتملِ أنها لم تكنْ ترغبُ في وجودِ أيّ عائقٍ أمام أحدِ أبنائِها في طريقِ تولّي الحكمِ عند وفاةِ القانونيّ ".

إن المؤرِّخَ المحايدَ لا يسمحُ لنفسِهِ أن يُصدِرَ أحكامًا عامَّةً فيما يتعلَّقُ بمُجملِ أحداثِ التاريخ، فلا يستخدِمُ تعبيراتٍ مثلَ؛

"...هؤلاء الناس الذين انعدمَ عندهم الضمير"

أو:

(١٣٠) محمد نيازي أوزدمير (Özdemir)، فلسفة التاريخ التركي، إسطنبول – ٢٠٠٨م، ص ٩٤.

"...لقد كانت تلك إحدى الفترات التي استطاعت فيها عناصرُ غيرُ تركيّةٍ سواء من الرجال أو النساء الاستيلاءَ على مقاليدِ الحكم وعلى القصر العثماني..."

لقد كان في تاريخِ العثمانيين الكثيرُ من العناصِرِ غيرِ التركيّة التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى والتي خدمت الدولةَ العليّةَ والعالم الإسلاميَّ الحنيفَ، فنجدُ العشراتِ من رجالِ الدولةِ ابتداءً من "صوكوللو (*Sokullu*)" إلى "كوبورلو (*Köprülü*)" والذين لا ينتمون إلى أصول تركيّة ولكنّنا نَجِدُ أنهم قد قاموا بخدَمَاتٍ جليلةٍ للدولةِ، وجعلوا حياتَهم وقفًا على الدولة العثمانية من أجلِ إعلاءِ شأنِها.

إنّ تاريخ العثمانيين يحوي الآلافَ من الجواري اللاتي كُنَّ ضمنَ الحريمِ واللاتي كُنَّ من جميعِ الجنسيّات، فكانت منهنّ ذاتُ الأصلِ الإيطاليّ أو الروسيّ أو البولنديّ أو الأوكرانيّ أو الجورجيّ أو الشركسيّ أو غيرِها من الأصولِ، وقد تمكّنَ قسمٌ من هؤلاءِ الجواري أن يكونَ جزءًا من حريمِ السلطانِ لتصبحَ الواحدةُ منهنَّ مُسْتَفْرَشَةً (*ikbal*) أو زوجةً (*kadınefendi*) أو محظيّةً (*haseki*)، بل إنَّ بعضَهُنَّ قد علا شأنُها أحيانًا فوصلت إلى درجة أن تحمِلَ لقبَ "السلطانة الوالدة".

فمن السلطانة "نوربانو (*Nurbânu*)" إلى "برتفنيال (*Pertevniyal*)" ومن "خديجة طرخان (*Tarhan*)" إلى "بزمي عالم (*Bezmiâlem*)"، نجدُ الكثيرَ من نماذجِ السلطانةِ الوالدةِ واللاتي ضربْنَ المثلَ في الشفقةِ والرحمةِ، وكانت غايةُ حياةِ هؤلاءِ السيداتِ هي تقديمُ الخِدمةِ للناسِ، حيث تعلَّقَتْ قلوبُهُنَّ باللهِ وبحبيبِهِ الرسول ﷺ، كذلك نجدُ أنَّهُنَّ قد سعَيْنَ من خلالِ الأوقافِ الخيريَّةِ الكثيرةِ اللاتي أقمْنَها إلى ضمانِ تحقيقِ التكافلِ الاجتماعيِّ داخلَ المجتمع.

أعمال "السلطانة خرم" الخيرية

أفضل الأعمال الخيريّةِ هو تأسيسُ وقفٍ

لقد كانت الدولة العليّة تستوعب الناس من كلِّ دينٍ ومذهبٍ وعِرقٍ، رجـالًا ونسـاءً، وتصبغهـم بصبغتها، وبذلك جعلت كثيرًا من الأشـخاص الذيـن نشـؤوا فـي بيئـات مختلفة وينتمـون إلى أفـكار متباينـة، يخدمون الإسلام والقرآن.

لقد أصبحت "السلطانة خُرَّم" بالنسبة للسلطان "القانوني" هي السلطانة المُقَرَّبَـةُ إلـى قلبـه، فصـارت بذلك سـيدةَ القصـر الأُولَى، أما "السـلطان سـليمان" فهو باعترافِ المُؤَرِّخين الغربيّينَ والأتراك على حدٍّ سواء، يُعتَبَرُ واحدًا من أقوى حُكّام العالَم على مرِّ التاريخ.

لقد استطاعت "السلطانة خُرَّم" التي كان "السلطان سليمان" شغوفًا بها ويُكِنُّ لها حبًّا شـديدًا، أن تحيا حياةً سـعيدةً مليئةً بالهناء والسرورِ، ورغم أنها لم تكن لديها أيّةُ أطماعٍ دنيويّةٍ، فقد سَـعَـتْ من أجل نَيلِ رضا الله ﷻ[١٣١] وشفاعةِ الرسول ﷺ ببناء الكثيرِ من الأوقافِ الخيريّةِ، تحدوها الرغبة في خدمة الإنسانية والمجتمع[١٣٢].

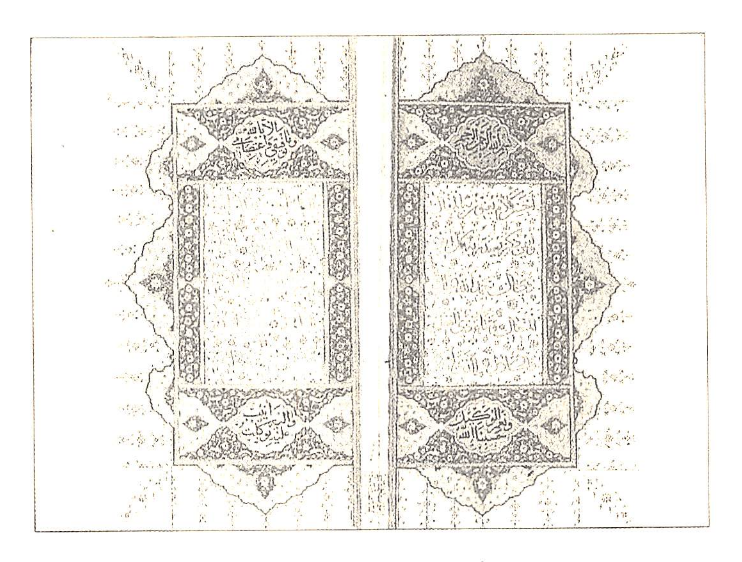
* * *

---

(١٣١) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٨٢/٢).

(١٣٢) رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ". (مسلم، الوصية، ١٤).

لا يوجد شك في أن إنشاء الأوقاف من أفضل الأعمال الخيرية التي تبقى للإنسـان، إن الوقف يظلّ مستمرًا في القيام بواجبه بلا انقطاع حتى بعد موت صاحبه، ولا يتوقف ما دامت الدنيا قائمة.



الصفحتان الأولى والثانية في لائحة وقف "السلطانة خُرّم" (أرشيف وزارة الأوقاف، رقم-K/٢٨)



ولقد أُشيرَ في لائحةِ الوقفِ الذي بَنَتْهُ "السلطانة خُرَّم"، وهي سيدةٌ ناضجةٌ في سنّ السادسةِ والثلاثين من عمرها، عام (١٥٤٠م/٩٤٧هـ)، إلى عجزِ الإنسانِ أمام القدرة الإلهيّةِ، وإلى أن الحياةَ في الدنيا قصيرةٌ، كما بين غمضةِ عينٍ وانفتاحِها.

والكلمات التاليةُ في لائحة وقف السلطانة "خَاصَكِي" تُبَيِّن لنا مدى حُبّها لِعَمَلِ الخير والمعروف، وقَدْرَ ما تَمَتَّعَتْ به من حماسةٍ وجهدٍ في هذا الصدَدِ:

"لقد أَغْدَقَ ذلك الوَقْفُ بالنِّعَمِ والخيرات على كلّ الأهالي، كما بُسِطَتْ موائدُ الخير في شتّى البقاعِ، لقد كانت نِعَمُ ذلك الوَقْفِ وافرةً منتشرةً، كالأنهار التي ينال كلُّ إنسانٍ نصيبَه منها، ونَدُرَ مَنْ لم يَنْهَلْ مِن مَعِين هذه النعم والخيرات الوفيرةِ، وكان الناس يأتونَهُ من كلّ حَدَبٍ وصَوْبٍ، ومن كل مكانٍ قريبًا كان أم بعيدًا".

"لقد أرادت السلطانة أن تستمر خيرات هذا الوقف الوفيرةُ، وأن تظلَّ متوفِّرة ومفتوحةً أمام الفقراء والمحتاجين بدون انقطاع إلى يوم القيامة".

"اللهم لا تَقْطَعْ غَيْثَ إحسانِها عن السائِلِينَ، ولا تَحْرِمْ أحدًا كَرَمَها، ولا تَرُدَّ أَحَدًا خَاوِيَ الوِفَاضِ مِن عندها، ولْيَهْطِلْ على الناس إحسانها ومَدَدُها كالأمطار المباركة المُتَتَابِعة"(١٣٣).

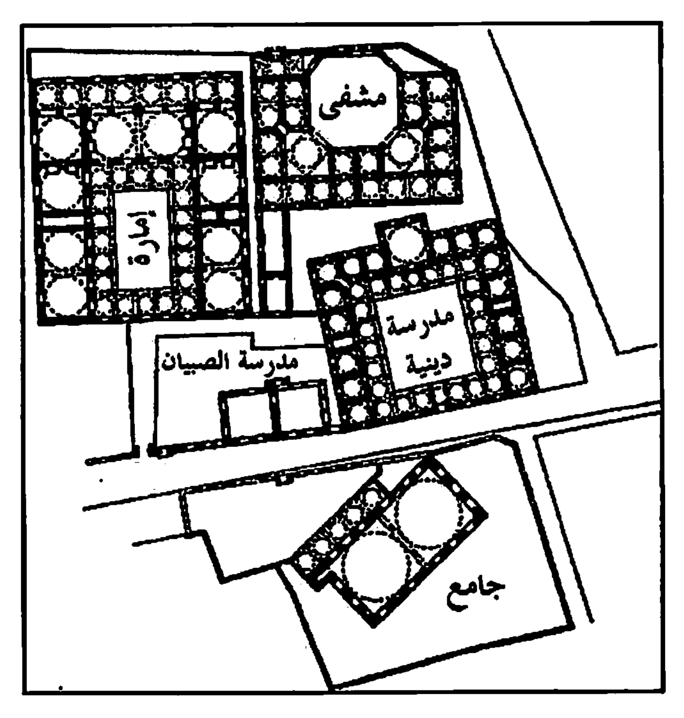
المجمع الذي بُني مكان سوق "أَوْرَتْ" (*Avrat*)(١٣٤)

كان "السلطان سليمان" الذي حكم أرجاء المعمورة، مع زوجته

---

(١٣٣) نِعْمَة طَاشْكِيرَانْ (*Taşkıran*)، كتاب "حصاكي"، إسطنبول - ١٩٧٢، ص ٤٢-٤٣.

(١٣٤) أَوْرَتْ: تعني بالتركية المرأة، ولقد تغير اسم المكان هذا وتعاقبت عليه أكثر من تسمية، وهو الآن يشتهر باسم منطقة الفاتح. (المترجم)



مخطط مجمّع "خَاصَكِي السلطانة خُرّم" في "خَاصَكِي/إسطنبول"

"السـلطانة خُرَّم" أثناء الإشـراف على بناء مجمـع "خَاصَكِـي"، ولـم يَتَوَانَ عن تقديم الدعم المطلق إلى زوجته؛ من أجل إنجاح هذا المشروع.

وكان المهنـدسُ التركـيُّ الذي عُهِدَ إليه بمهمةِ إنشـاءِ هـذا المُجَمَّـعِ، وخلـد ذِكْـرُه، هو المعماري الكبير "سِـنَان"، ذلك الفنـان المعماري الذي عمَّتْ شُهرتُه الآفاقَ(١٣٥).

بُنِيَ "مجمـع خَاصَكِي" في ميدان "أركاديوس (*Arkadius*)" الذي يُعتَبر واحدًا من أربـعِ سـاحاتٍ رئيسـيَّةٍ في إسـطنبول في عهـد البيزنطيين(١٣٦)، حيث تقـع هذه المنطقة على إحدى هضاب إسطنبول السبعة.

وقد سُـمِّيَ هذا الحيُّ بعد فتح إسـطنبول باسـم حي "باشجي حاجي (*Başçı Hacı*)"،(١٣٧) ثم أصبح يطلقُ عليه بعد تَشْيِيدِ بناياتِ وعمائرِ الأوقافِ اسمَ سوق "أَوْرَتْ (*Avrat*)" أي: النساء(١٣٨).

وظلت المنطقةُ تحمل هذا الاسـمَ لمدَّةٍ تزيدُ عن أربعمائة عام، حتى أواخرِ القرنِ التاسـع عشر.

(١٣٥) لقد كان المجمع الخيري الذي أنشأته "السـلطانة خاصَكي"، هو أول الأعمال التي قام بها "سِنان" بعد أن تم تعيينه كمهندس معماري؛ حيث استطاع هذا المجمع أن يقدم إلى الفن المعماري إضافة متميزة ومختلفة.

(١٣٦) أقام الإمبراطور البيزنطي "أركاديوس" في هذا المكان عام (٤٠٣م) بإقامة عمود بارتفاع أربعين مترًا؛ ليحمل اسم والده "ثيودوس"، أما ابنه "ثيودوس الثاني" فقد قام بوضع تمثال لوالده بجوار العمود، ويمكن أن ترى بقايا هذا العمود اليوم في المنطقة نفسها؛ حيث تبدو في صورة كتلة حجرية.

(١٣٧) كان طَبَّاخ الكِرْاع "الحاج محمود" هو كبير طهاة الكِرْاع لدى السـلطان "الفاتح"، وكان من الشـخصيات المعروفة في ذلك العصر، وقد قام ذلك الشخص فيما بعد بإنشاء مسجد صغير في المنطقة التي تحمل اسمه، لكن هذا المسجد احترق تمامًا في الحريق الذي وقع عام (١٩١٨م).

(١٣٨) بعد أن تم تأسيس المجمع، أمر السلطان "سليمان القانوني" بتأسيس سوق للنسـاء في المنطقة نفسها، وقد فُهِمَ هذا الأمر على مَحْمَل اللُّطْف مِن قِبَل السلطان تجاه زوجته، وبناءً على ما يذكره "ممبوري (*Mamboury*)" الذي ألَّف كتاب "دليل إسطنبول": إن هذه السوق المفتوحة التي تُعرَف باسم سوق "أَوْرَتْ" التي ترتادها النساء على وجه الخصوص من أجل البيع والشراء، كان يتم العمل بها في أحد أيام الأسبوع، وذلك في المنطقة السـالف ذكرها، إن مصطلح سوق "أورت" لا يشير إلى بقاء بيع الجواري فيه على ذلك الوقت أو أنه سوق تباع فيه النساء الأسيرات.

لقد صار "حيُّ خَاصَكِي"(١٣٩) حيًّا محبوبًا ومميّزًا منذ عام خمسمائة ميلاديّة حتى يومنا هذا.

ولم يكن من قَبِيلِ الصدفةِ أن يقومَ السلطان باختيار هذه المنطقةِ من أجل تخليد ذكرى محبوبتِهِ السلطانه "خُرَّم" التي أُغْرِمَ بها.

إن هذه المنطقة التي أحبَّها البيزنطيون قد تعلَّق بها العثمانيون أيضًا.

* * *

وقد بدأت مجموعةُ أبنيةِ "خَاصَكِي" بجامعٍ صغيرٍ ذي قُبَّةٍ واحدةٍ في سوق "أَوْرَتْ" من عام (١٥٣٨م)، ثم توسَّعت في العام التالي لذلك التاريخ؛ حيث أُلحِقَت بها مدرسة دينيّةٌ ومدرسةٌ للصبيان(١٤٠).

وقبل الانتهاء من بناء كلٍّ من مجمع "شهزاده (*Şehzâde*)" الخيري، ومجمع "السليمانية" كان "مجمع خَاصَكِي" قد صار مركزًا اجتماعيًّا كبيرًا بعد أن أُضيفَ إليه مشفى ودار لإطعام المحتاجين.

وقد كان الجامع في شارعٍ مُحاذٍ لـ"مجمّع خَاصَكِي" بالقُرْبِ منه، أما المدرسةُ الدينيّةُ، ومدرسةُ الصبيان، والمشفى، ودارُ إطعامِ المحتاجين، فعلى الجانبِ الآخَرِ منه.

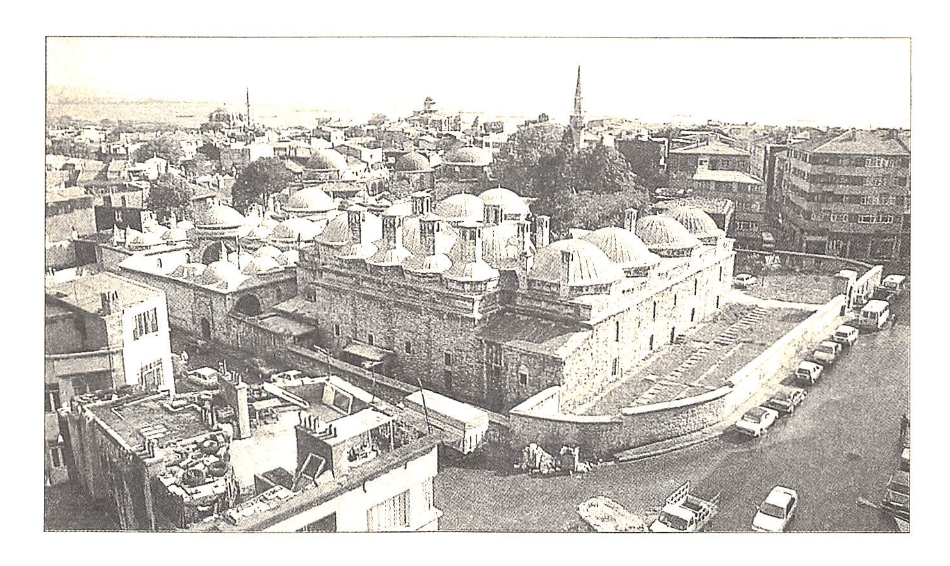
كلمة "محمد" بالخط الكوفي

إن الجوامع في المجمّعات العثمانيّة الخيريّة، تُعتبرُ هي البناء الرئيس في المُجَمَّعِ أو الوقف، وكان النظام المُتَّبَعُ أن تشيَّدَ حولَ الجامعِ وفي محيطه باقي البنايات المُلحَقة بذلك الوقف.

---

(١٣٩) لقد أخذت هذه المنطقة اسم "خَاصَكِي" مع بداية القرن العشرين.

(١٤٠) "دُوغَانْ كُوبَانْ (*Doğan Kuban*)"، "مجمع خَاصَكِي" موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول - ٢٠٠٣م، الجزء الرابع، ص ٥.



المنظر العام لمجمّع "خَاصَكِي السلطانة خُرّم" في "خَاصَكِي/إسطنبول"

وبِناءً على لوحة جامع "خَاصَكِي"، المحفوظةِ اليومَ في متحفِ "جِينِيلِي كُوشْك (*Çinili Köşk*)" بقصر "طوب قابي"، فقد شُيِّدَ الجامعُ فيما بين عامَيْ (١٥٣٨/١٥٣٩م).

وفي هذه اللوحةِ المنقوشةِ، يُذكَر بشكلٍ وجيزٍ المراحلُ التي مَرَّ بها الجامع، على النحو الآتي:

"لقد شُرِعَ في بناء هذا الأثر من قِبَل "السلطانة خُرَّم" عام (١٥٣٨م/٩٤٥هـ)، وقد تطوَّعت السلطانةُ وبشكلٍ خيريٍّ في تجهيزِهِ بالكامل، وبسبب ضيقِ المكان، وعدمِ اتِّساعِ الجامع لأداء صلاةِ الجماعة، فقد تَمَّتْ توسعتُه، بإضافة قُبَّةٍ أخرى، بفضل جهود "حسن بك" المسؤول عن الوقف في عهد السلطان "أحمد الأول" عام (١٦١٢م)، وذلك بعد مُضِيّ أربعة وسبعين عامًا على إنشائه، وتمَّ إجراء هذا التعديل من قِبَل المهندس المعماري "صدفكار (*Sedefkâr*) محمد آغا"[١٤١].

* * *

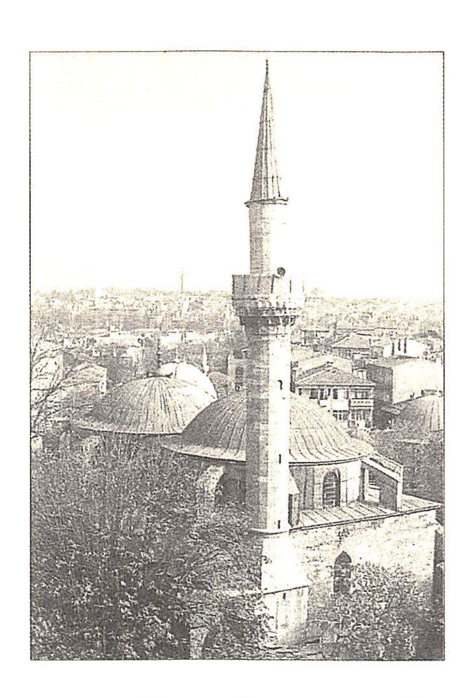
كان جامع "خَاصَكِي" يُشبه قبل ترميمِهِ الجوامعَ العثمانيَّةَ التي شُيِّدَت قبله. أي: إنه كان عبارةً عن قُبَّة واحدةٍ مُشَيَّدةٍ فوقَ مكانٍ مربَّعِ الشكلِ، وكان يُستخدَم تعبير "جامع ذو قبَّةٍ واحدةٍ" من أجل الإشارة إلى هذا الطِّرَازِ من الجوامع العثمانية.

عند الوصولِ إلى مدخلِ الجامع، وبعدَ اجتيازِ بابِ الحديقةِ، نجدُ أمامَنا مكانَ الصلاة، ورُوَاق الجامع الذي تحمله ستةُ أعمدةٍ -وقد انمحى جمالها المعماري؛ جرّاء إقفالِ المسافاتِ التي بينها بالزجاجِ والحديدِ حاليًا- وقد كانت هذه الأروقةُ تغطِّي فحَسْب الجزءَ الأماميّ من المكان القديم ذي القبّةِ الواحدةِ، الموجود في هذا الجامع والذي تمّ تشييدُه في

(١٤١) "سَمَا دُوغَانْ (*Sema Doğan*)"، "مجمع خَاصَكِي"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - ٢٠٠٣م، الجزء السادس عشر، ص ٢٧٠.

عهدِ السلطانِ القانونيّ، يعني أنه لا يوجد رُوَاق أمام القسم الإضافي الذي أُنشِئَ وأُضيفَ بعد ذلك بإلحاق قبّة أخرى في عهد السلطان "أحمد الأول".

* * *



مسجد "خَاصَكِي السلطانة خُرّم" في "خَاصَكِي/إسطنبول"

وداخلَ البابِ الرئيسي لجامعِ السلطانة "خَاصَكِي" ذي الشكل المستطيل، نجدُ أنَّه تمَّ عملُ باب ثانٍ أصغرَ قليلًا، وقد زُيِّنَ هذا البابُ الثاني، وكُتب على جوانبه بالخطِّ الكوفيِّ ناحيةَ اليمينِ عبارة: "لا إله إلا الله"، أما على اليسارِ فقد كُتِبتُ كلمة محمد ﷺ أربعُ مرَّاتٍ بشكلٍ مستديرٍ.

ويُلاحَظُ أن محاريبَ الجوامعِ العثمانيَّة تكونُ في منتصفِ حائطِ القِبلةِ دائمًا، وعندما كان جامع "خَاصَكِي" ذا قُبَّةٍ واحدةٍ، فقد كان مِحراب المسجد واقعًا في منتصف حائطِ القِبلةِ، لكن بعد أعمال التوسيعِ التي أُجريت للجامع، فقد تمَّتْ زيادةُ طولِ حائطِ القبلةِ بمقدارِ الضعفِ، ونتيجةً لهذه الزيادةِ في الطولِ، فقد أصبحَ من الضروريِّ أن يتغيَّرَ مكانُ المحراب أيضًا حيث أُلْغِيَ مكانُه الأصلي بإحلال عمودٍ كبيرٍ محلَّهُ، ليُصْبِحَ موضعُ المحرابِ الجديدِ في مكانٍ آخرَ، وليقعَ متوسطًا بين القُبَّتَينِ.

هل المعماري "سِنَان" هو من أنشأ الجامع؟

إن عملية توسيع جامع "خَاصَكِي"، وما صاحبها من إضافة مساحة جديدة للجامع، أدَّت إلى تغيير مكان المحراب الأصلي، وحدوث تحوُّل في شكل الجامع من الشكل المربّع إلى الشكل المستطيل، ويمكن أن نقول بتعبيرٍ آخر: إن الشكل الخارجي للجامع قد أصابه شيء من الانحراف عن نَسَقِهِ القديم.

ففي حين كان طول حائط المحراب القديم (١١,٦٥) مترًا، فقد صار طول الحائط الجديد (١١,٩٠) مترًا، وبما أن طولَ كلِّ حائطٍ من الحوائطِ المتبقية في الجامع هو (١١,١٠) مترًا، فهذا يعني أن القسم الجديد الذي تمَّت إضافته يعتبر أكبر إلى حدٍّ ما.

إن الأعمدةَ التي تمّ رَفْعُها بين كلا القِسمين قد أفسدتْ شكلَ الجامع، وهو ما يمكن اعتباره نتيجةً حتميّةً من الناحيةِ الهندسيّةِ، كما أَحْدَثَت إضافةُ قسمٍ جديدٍ إلى الجامع انتقالَ موضعِ جلوسِ السلطانِ العثمانيّ، ليصبحَ في القسمِ الجديدِ، في حين ظلّ المنبرُ كما هو في المكان القديم.

وعلى هذا النحو، فإننا إذا نظرنا إلى الجامع من ناحية الفِناء، يتَّضِح لنا بشكلٍ جليّ ذلك المكان الذي ضُمّ فيه القِسمانِ القديم والجديد معًا.

* * *

تتَمَيَّزُ البناياتُ التي يضمُّها "مجمَّع خَاصَكِي" بأنها على النمطِ ذاته، وتتشابه فيما بينها، بينما نجدُ مجمع البنايات في الوقت نفسه بعيدًا من ناحيةِ التصميم عن جامع "خَاصَكِي"، وبمعنى آخر: فإن الجامعَ لا يُشبه أعمالَ المهندس المعماري "سِنَان"، سواءٌ أكانت أعماله السابقة أو اللاحقة.

إن هذا الجامع الذي بُنِيَ وشُيِّدَ تحت رعاية "السلطانة خُرَّم" هو بعيدٌ -من ناحيةِ الفنِّ المعماريّ- كلَّ البُعدِ، عن أن يُعَدَّ من ضمنِ الأعمالِ الرائعةِ التي صمَّمها وأبدعها المعماريُّ العظيم "سِنَان" ولذلك فنحنُ لا نستطيعُ أن ننسُبَ بناء هذا الجامعِ إليه.

وثَمّةَ دليلٌ آخر على أن هذا الجامع ليس من أعمال "سنان"، وهو كونه ضعيفًا جدًّا إلى جوار الجوامع التي أمر السلطانُ "القانوني" وزوجته "خُرَّم" "سنانًا" بتشييدِها باسم أفراد عائلتيهما، بالإضافةِ إلى أنه لا يحملُ قيمةً من الناحيةِ المعماريّةِ.

كما لا يمكن أن نَعْقِدَ مُقارَنةً بين هذا الجامع وبين جامع "السُّليْمانيَّة" أو جامع "السَّليميَّة" اللذَينِ يُعَدَّانِ على رأسِ الأعمالِ الرائعةِ والفريدةِ

الخاصَّةِ بالمعماريّ "سِـنَان"، ولكن إذا دقّقنا النظر في هذه الأبنية فإننا نجد بعض بناياتِ المجمّـعِ، سـواءٌ أكانت بناية المعهد أو دارُ إطعامِ المحتاجين أو المشـفى أو المدرسـة، نجد بعضها يحمل طابَـعَ وبصمةَ "سِـنَان" بشكلٍ قَطْعِيّ، عندها يمكن القول بأن بعض ملحقات الجامـع -وليس كلّها-، مثل: المِئْذَنَةِ، والأرْوِقَةِ، والصُّفَّة الأخيرة، هي من أعمال "سنان" فقط [١٤٢].

هـذا، وقـد تم تعيين المعماري "سِـنَان" في الأسـاس عـام (١٥٣٩م) كبيرًا للمهندسينَ المعماريّين لاستكمالِ إنشاءِ هذا الجامـع؛ لأن التصميمَ الهندسـيَّ الخاصَّ بجامـع الوقفِ لم يَحْظَ بالإعجابِ المطلوبِ، فقد كان ذلك التصميمُ فاشلًا من الناحيةِ الجماليّةِ في ذلك الوقت؛ فتحوّلت مهمَّةُ إكمـالِ بنـاءِ الجامـع إلى "سـنان" بعـد أن أُعفيَ باقي المهندسـين من هذه المُهِمَّة، فجاءَ "سِنَان" وحاولَ جاهدًا من أجل أن يُنقِذ على الأقلّ الواجهةَ الخارجيّـةَ للجامـع، مُنشِـئًا قُبَيلَ الانتهاء من أعمال بناءِ المسـجدِ أقسـامَ المَنَـارَةِ والأَرْوِقَـةِ ومـكان الصُّفَّة، حتـى إذا اكتمل بناء الجامـع عُهِدَ إلى "سِنَان" مهمَّة إنشاءِ واستكمالِ باقي الأبنيةِ المُلحَقةِ بالمجمَّـع.

اللوحاتُ الخزفيَّةُ المفقودةُ

تعتبر المدارس الدينيَّةُ من الأقسام التي لا يمكن إغفالُها في المجمَّـع؛ إذ إن هذه المدارس تُعَدُّ بحقٍّ نماذجَ مُعبِّرةً عن مدى الاهتمام الذي أَوْلاه حُكَّامُ ذلك العصر بالعِلْم والمعرفة [١٤٣].

---

(١٤٢) طاشكيزاذه، المصدر السابق، ص ٩٩-١٠٠.

(١٤٣) كانت تعطى الأهمية في المقام الأول لبناء المدارس الدينية بين المؤسسات التي تبنى حول المسجد وذلك في الآثار العثمانية الأولى التي توجد في " إسطنبول " أو تلك التي نجدها في مراكز الدولة القديمة مثل " إزنيك (*Iznik*) " و"بورصه (*Bursa*) ". ويعتبر إنشاء أربعة مدارس في مجمع " السليمانية " وثمانية مدارس في مجمع " فاتح " بإسطنبول دليلًا واضحًا على الأهمية التي كانت تمنح للعلم، وكان يتم ترتيب المدارس بناء على مستواها العلمي، حيث كانت مدارس " ثمانية " هي أعلى المدارس مرتبة بين مدارس إسطنبول، وكان يليها مباشرة مدارس " السليمانية " و"خاصكي"، وعند تعيين المدرسين في هذه المدارس لم يكن يسمح إلا فيما ندر بالانتقال الفجائي إلى المراتب العليا دون المرور بالمراتب الأولى.

وفـي عـام (١٥٣٨م)، بعد أن تـم الانتهاء من بناء الجامـع، ذلك البناء الأوَّل فـي مجمَّـع السـلطانة "خَاصَكِي"، شُـرِعَ في بناء المدرسـة الدينية، ويُعتَبـر هذا الأثَرُ مـن الأعمال العظيمة التي خَلَّفَها لنا "سِـنَان"، ويُعَدُّ بحقٍّ نموذجًا رائعًا في فن رسم المُنَمْنَمَات، ومن خلال الكتابة المُدوَّنة على باب مدخل المدرسـة يتَّضِحُ لنا أن هذه المدرسـة الدينيَّة قد تَمَّ إنشاؤها في عام (١٥٣٩م)، لكن هذه الكتابة لم تعدْ موجودةً الآن كما كانت في سابق عهدها بـل أصبـحَ مكانُها خاويًا، وصـارت هذه الكتابةُ معروضـةً الآن في متحفِ "جِينِيلِي كُوشْك (*Çinili Köşk*)"، بحيث نراها هناك وهي مزدانة بقِطَـعٍ بديعةٍ ورائعةٍ من الخَزفِ، الذي يعودُ إلى القرنِ السـادسَ عَشَـرَ، كما كُتِبَ تاريخ إنشاءِ هذه المدرسةِ الدينيَّةِ مرَّةً ثانيةً بحِسَاب الجُمَّل[١٤٤] في البَيت الشِّعْريّ الأخيرِ الموجودِ على هذهِ اللوحةِ الخَزَفيّةِ، وفوق هذه القطعة الخزفيَّةِ -التي يعلوها جُزءانِ ناقصان من جَرَّاء كَسْرٍ لَحِقَها- نَجِدُ كَلِماتٍ قد كُتِبَتْ؛ نحو:

"يـا قاضـيَ الحاجـات... يـا مُجِيـبَ الدَّعَـوات... يـا وَلِـيَّ الحسنات... يا رحمن... يا رحيم..."

بحـروفٍ كبيـرةٍ بيضـاءَ ذاتِ خلفيَّةٍ زرقـاء، وتبدو أمامنا هـذه الكتابة وقـد أُحِيطَـتْ بإطارٍ رقيقٍ لتزيينِ الحواشـي، كما كُتِبَ فـوق تلك القطعة الخزفية أيضًا آية الكرسـيّ والبسـملةِ بلَونٍ أصفرَ يميل إلى الفيروزيّ، أما في منتصفِ القسمِ السُّفْلي منها فقد كتب التاريخ (٩٤٦هـ/١٥٣٩م).

أما القطعةُ الخَزَفيَّةُ الثانيةُ، الموجودةُ على باب قاعة الدروس -التي تعد هـي الأخرى من أكثر النماذج الفنيَّـةِ جمالًا وروعةً في مجال الفنِّ الخزفي في القرن السـادِس عَشَـرَ- فقد أُرسِـلَتْ هي الأخرى مـع القطعـةِ الخزفيَّةِ

(١٤٤) حِسَاب الجُمَّل: نوع من الحساب يُجعَل فِيهِ لكل حرف من الحُرُوف الأبجدية عَدَدٌ من الوَاحِد إِلى الألف على تَرْتِيب خَاص. (المترجم)

الأولى، الموجودة فوق الباب الرئيسيّ للمدرسة، إلى متحف "جينيلي كُوشْك"؛ حيث تَمَّ رفعهما من أماكنهما بعد أنْ كانتا على وشكِ السقوط.

وعلى هذه اللوحةِ الثانية، كُتِبَتْ الآيةُ الثامِنةَ عَشَرَ من سورة الحشر(١٤٥) في القرآن الكريم، بالخطِّ الروميّ الأصفرِ فوقَ خلفيّةٍ خضراء(١٤٦).

كما لوحظَ أنَّ أماكنَ المرايا الخاصَّةِ بنوافذِ المدرسةِ التي تُطلُّ على شارع "خَاصَكِي"، قد أصبحت خاويةً تمامًا، لكن من المُؤَكَّد أن تلك الأماكن كانت مغطّاةً بِقِطَعٍ من الخَزفِ عند افتتاحِ تلك المدرسة، واليوم مع الأسف، فإن "مجمَع خَاصَكِي" لم يَعُدْ به أيُّ أثَرٍ للقِطَع الخزفيّةِ الرائعةِ التي عَمَّتْ شُهرتها الآفاقَ، والتي كانت تُذكِّرُ الناظرينَ إليها بموسم الربيع.

وللأسف الشديد، فإن الذي قضى على تلك الآثار الفنّيّة الرائعة ليس تعاقُبُ الزمان بل يد الإنسان.

المدرسةُ تَحوَّلت إلى ملجأ

تعتبر مدرسة "خَاصَكِي" من الناحيَةِ المِعماريَّةِ أثرًا فريدًا من ضمن الآثار التي حَمَلت لنا طابعَ وبصمة الفنان المعماري "سِنَان"، عند الدخول من باب المدرسة نجد فناءً واسعًا ذا حوض، وحوله غرف الطلاب، ويليها قاعةُ الدرس، كما نجدُ فِناءً آخرَ به رُواقٌ أحاطت به الأبنيةُ المغلقةُ من ثلاث جهاتٍ، وتقع قاعةُ الدرس في وسط الرُواقِ الذي يواجهُ البابَ، وكانت قاعة الدرس، بِقُبَّتِها التي يصل حجمها إلى ٦,٨ أمتار، زائدةً عن محيط المدرسة وخارجةً عنها، وقاعةُ الدرسِ مُقسَّمةٌ إلى سِتِّ غُرَفٍ

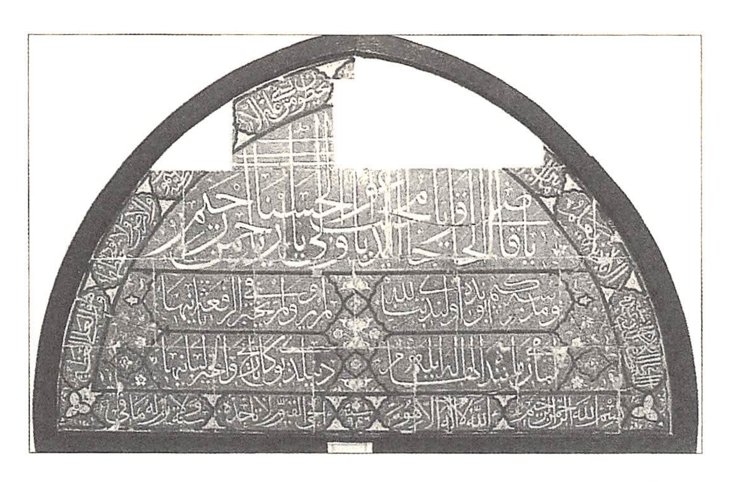
(١٤٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة الحشر: ٥٩/١٨).

(١٤٦) طاشكيزان، المصدر السابق، ص ١٠٨.



مدرسة "خَاصَكِي السلطانة خُرَّم" الدينية في "خَاصَكِي/إسطنبول"





أحد الميازيب والحفر الخزفية على إحدى نوافذ مدرسة "خَاصَكِي السلطانة خُرّم" الدينية (متاحف آثار إسطنبول، متحف القصر الخزفي، معروضة رقم: ٤١/٥٤٤)



مُوزَّعـةٍ علـى الجانبين، ثلاثةٌ منها عن اليمين وثلاثةٌ منها عن الشـمال، أما فِناءُ المدرسة فقد قُسِّم إلى عَشرِ غُرَفٍ موزَّعةٍ هي الأخرى على الجانبين، خمسـةٌ عن اليمينِ وخمسـةٌ عن الشـمال، تتميَّزُ كلُّ الغُرَفِ بـأن لها قِبابًا، وبداخل كلِّ واحدةٍ منها يوجدُ موقدٌ صغيرٌ.

وقـد بُنِيـت أَقْـوَاسُ الـرُّواق بالحَجَـر الأبيـضِ والأحمـر علـى نحوٍ مُتَنـاوِب، فـكلّ لَبِنَـةٍ بيضـاءَ تليها لبنةٌ حمـراء، وكلّ لبنةٍ حمـراءَ تليها لبنةٌ بيضاء، وهكذا.. أما الأعمدةُ فقد شُيِّدت مِن الرخام وحجر السُّمَاقِي. (١٤٧)

• • •

وقـد تَعَـرَّض هذا الأثرُ الرائع على مرّ الزمن إلى أضرارٍ وتلفيَّاتٍ منذ أن قـام "سِـنَان" ببنائِهِ؛ من جـراء الحوادث والـزلازلِ والحرائقِ، ففي عام (١٨٩٤م) وقـع زلزالٌ ضخمٌ تعرَّضتِ المدرسـةُ على إِثْرِهِ مـع بقيَّةِ بناياتِ "مجمَّـع خَاصَكِي" إلى الضرر الشـديدِ، لكن فـي أوائل عام (١٨٩٦م) تمَّ ترميمُها.

وبناء على تقرير المعاينة والفحص الصادر في الثاني من أيلول/سبتمبر (١٩١٤م)، فقـد أُخرِجت المدرسـة من الخدمةِ؛ نظـرًا لحالتها التي كانت تسـتدعي الإصلاحَ والترميمَ، حيث نبتتِ الأعشـابُ على قِبَابِ المدرسـة المباركة، وفي أواخرِ عام (١٩١٨م) أصبحت المدرسـة تُسـتخدَم كمطبخٍ مـن قِبَـلِ الجنـودِ، وفـي الأعوام اللاحقـةِ فقد تحولـتِ المدرسـةُ -لفترةٍ مـن الزمـن- إلى مـأوى للمرضى النفسـيِّين، وبعد أن تمَّ إجـراءُ عملياتِ الإصـلاحِ والترميمِ مـن قِبَل المديريَّةِ العامَّةِ للأوقاف، فـي الفترة الممتدَّةِ بيـن عامـي (١٩٦٧-١٩٦٩م) صارت المدرسـةُ تُسـتخدَمُ، ولفترةٍ طويلةٍ، كمركزٍ تعليميّ بإسطنبول، تابعٍ لرئاسةِ الشؤونِ الدينيّةِ.

(١٤٧) سَنا دُوغان، المصدر السابق، ص ٣٧١.

لا يليق بالإنسان اللجوء إلى (الواسطة)

بناء على المصادر التاريخية فقد كانت مهنةُ التدريسِ في مدرسة "خَاصَكِي" خلال عصرِ القانونيّ، تُعادلُ مهنةَ التدريس في المدارس الكبرى الموجودةِ في تلك المرحلة، أو كان التدريسُ في مدرسةِ "خَاصَكِي" يُشَكِلُ جسرًا للوصول إليها[١٤٨].

وحَسَبَ ما ورد في الوثائق التاريخية، فإن "كِينَالِي زَاده (*Kınalızâde*) علي شلبي"، الذي يُعَدّ مِن كبارِ علماءِ عصرِهِ، قد قام بالتدريسِ لمدّةِ ثلاثِ سنواتٍ في مدرسة "خَاصَكِي"،[١٤٩] وبعد أن نال "علي شلبي" الترقِيَةَ بعد عمله في مدرسة "خَاصَكِي"، نجدُه قد انتقلَ إلى العملِ في مدرسة "صحنِ ثمان" التابعةِ لجامعِ "الفاتح"، ثم ترقّى للعمل بالتدريس

(١٤٨) كان يذكر في اللوائح التي تنظم عمل الأوقاف بشكل واضح الحالة العلمية والشخصية للمدرسين، ففي اللائحة التي تنظم عمل "وقف السلطانة خَاصَكِي" توجد تعبيرات مثل: "تنشأ المدارس من أجل رفع شأن العلم والتعليم، ومن أجل تبجيل واحترام العلماء الكبار بين أفراد الشعب"، بالإضافة إلى ما سبق، فيذكر أن المدرسين كان يتم اختيارهم من العلماء ومن بين أولئك المشهود لهم بالفضيلة والأدب بين الناس، ومن بين المعلوم عنهم بِشغفِ العلم والذين من بين أمثالهم، وأيضًا من بين ذوي السمعة والمكانة، ومن بين أوائل الناس في عصرهم، ومن أولئك الأشخاص المتفوقين وسط أساتذة عصرهم، ومن بين المتميزين وسط أقرانهم، وفي لائحة الوقف يُعَبّر بوضوح عن الشروط الواجب توافرها في المعلم:

"يجب أن يكون المدرس قادرًا على تعليم الآخرين، وأن يكون لديه القدرة على التعامل مع المسائل العِلْمية الدقيقة والحساسة، وأن يكون قادرًا على حل المسائل الدينية والفقهية وفق قواعد وأصول البحث، وذا ذكاء متوقد وقدرة على النقد، ويتم اختياره من بين أقرانه، إن هذه الشروط التي كان يتم مراعاتها عند اختيار المدرسين تدل على مدى الدقة والاهتمام اللذين كان صاحب الوقف يُوليهما في سبيل هذا الموضوع، وفي تاريخ الأوقاف تتضح أيضًا الأهمية المعطاة إلى هذا الأمر عندما نجد أن أعلى أجْرٍ كان يتم منحه في الوقف، كان يخصص للمُدَرِّس، وكان هذا الأجرُ يصل إلى خمسين درهم في اليوم، لقد كان هذا الأجر يعطى في ذلك الوقت للأشخاص الذين يتربعون على أعلى درجات الإدارة في الدولة العثمانية، ويمكن أن يفهم على نحوٍ جيد مقدار هذا المبلغ إذا أذْكرنا أن أجْرَ كبير المهندسين المعماريين "سِنَان" كان خمسةً وخمسين درهمًا في اليوم.

(١٤٩) إن " محمد علي عوني" في كتابه الذي يحمل اسم "أعلام الأخلاق الأتراك" والذي نشر عام (١٩٣٩م)، يذكر أنه لم يكتب حتى اليوم عمل يصل إلى درجة كتاب "الأخلاق السامية" الذي ألّفه "كينالي زاده".

في مدرسـةِ "السليمانِيَّةِ". وهكذا، نُدرك أن مدرسةَ "خَاصَكِي" كانت تُمَثِّلُ محطّةً مُهمّةً على طريق التعليم الكلاسيكي، في ذلك الوقت.

* * *

ونعرضُ عليكم حكايةً لطيفةً ومسلِّيةً وقعت بين كلٍّ من "كينالي زاده علي شلبي" وشيخِ الإسلامِ الشهيرِ "أبي السعود أفندي":

فنظرًا لسـوء العلاقة بين "جيوي زاده (*Çivizâde*)" وبين أسـتاذ "كينالي زاده" بالمفتي "أبي السـعود أفندي"، وكـونِ التعييناتِ تَتِمُّ بتصديقِ الأخيرِ، فإن "كينالي زاده" لـم يتمكّنْ من العمل مُدرِّسًا لفترةٍ طويلةٍ، ومن أجل ذلك فقد أصابه حزنٌ شـديدٌ، وفي النهاية تَوَجَّهَ "علي شـلبي" إلى شيخ الإسلام "أبي السـعود أفندي" آخِذًا معه بعضَ الأعمال التي كَتَبَها، وعندما رآه "أبو السعود أفندي" بادَرَه بالسؤالِ عن سببِ الزيارةِ، فرَدَّ "علي شلبي" قائلًا:

> "إن مـن يتقلَّـدون الوظائـفَ ويعملـون بالتدريـس، يُحقِّقون أهدافَهم بكثرة تردُّدهم على أبوابِ كبارِ رجالِ الدولةِ، أمّا نحن فقد أَرَدْنا أن نُحقِّقَ رغبتَنا في العمل بالتدريس من خلالِ إثباتِ الكفاءةِ العلميّـةِ المطلوبـةِ، فقمتُ بترجمـةِ أجزاء من هـذه المخطوطات -وأشـار بيده إلى المخطوطات التي معه- إلـى اللغةِ التركيّةِ، فإن كان ثَمَّةَ أبوابٌ أخرى يَجِب أنْ نَطرقَها فَلْتُخْبِرُونا بها إذًا!".

قامَ الشـيخ "أبو السـعود أفندي" بإلقاءِ نظرةٍ على الأعمال التي كانت بِحَوْزَةِ "علي شـلبي"، ثم أَمَرَ بتَعْيِينِهِ في الحال في وظيفةِ مدرِّسٍ بمدرسـة "حسام الدين" في مدينة "أَدِرْنه"، لكن "أبا السعود أفندي" لم يَفُتْهُ أن يُعَلِّم مَنْ كان جالسًـا إلى جواره في ذلك الوقت درسًـا لا يُنْسَـى، فتوجّه إليهم على الفورِ قائلًا:

"إن الإنسان العاقل والمنصف يَنَالُ ما يستحقه عن طريق إبرازِ ما لديه من مَواهِبَ وقُدرات، أما أن يتـودَّد إلى هذا وذاك، ويُقدِّم الالتماسات من أجل أن يقضي حاجته، فهذا ليس من المروءة في شيء! "(١٥٠)

إن هذه الحادثة تُبيِّن لنا بشكل جَلِيّ طبيعةَ شخصيَّةِ "كينالي زاده علي شلبي"، وقدراتِهِ العقليَّةِ على النقاشِ والجدالِ، وفي الوقت نفسِهِ تشيرُ إلى شجاعتِهِ العلميَّةِ وحنكتِه في النقاش.

* * *

وإذا رجعنا إلى لائحةِ وقفِ السـلطانة "خَاصَكِي"، فإننا نجدُ أن غُرفَ المدرسـة الدينيَّةِ كانت مُعدَّةً لِأَنْ يُقِيمَ بها سِـتةَ عَشَـرَ طالبًا مجتهدًا حَسَنَ الخُلُقِ لا يَتَخلَّف عن دُرُوسِ العِلْم إلا لِعُذْرٍ أو داعٍ شرعيّ؛ لِيَكُونُوا بذلك قُـدْوَةً لغيرهـم من الطـلاب،(١٥١) كان الطلابُ بعد انتهـاء الدرس يقومون مـع المدرسِ بقراءةِ سـورةِ الإخلاصِ ثلاثَ مـرّاتٍ والفاتحةِ مرّةً واحدةً، ثم يقومون بالصلاةِ والسلامِ على الرسول ﷺ، وبعدها يترحَّمون ويطلبون المغفرة لروح صاحبةِ الوقفِ "السلطانة خُرَّم". (١٥٢)

(١٥٠) طَاشكِيرَانْ، المصدر السـابق، ص ١٠٦.

(١٥١) لقد كان الطلبة الذين يتلقون العلوم العقلية والنقلية في المدارس العثمانية يتبعون نظاما تعليميا يكفل لهم الإقامة الكاملة. وفي هذا النظام التعليمي حلت وبمنتهى السهولة مسألة "اشتراك الطلبة في الإدارة" وهي المسـألة التي لا تزال حتى الآن مثار نقاش وجدل في الجامعات. لقد كان الطلبة يختارون من بينهم من يمثلهم، حيث كان هؤلاء الطلبة الذين يتم اختيارهم يحملون اسـم "المُعِيدْ"، وكان هؤلاء المعيدون -على اعتبار أنهم رؤسـاء الطلبة- يشـرفون على الطلاب، وفي نفس الوقت كانوا يمثلون حلقة الوصل أو الواسطة من أجل حل المشـاكل بين الطلاب وإدارة المدرسة، وكان المعيد من هؤلاء المعيدين يتلقى أجرا يوميا يبلغ ٥ دراهم. أما بقية الطلاب فقد كان الواحد منهم يتلقى في اليوم درهمين.

(١٥٢) مُويَاخَاتْ كُوتُوكْ أُوغْلُو، "مدارس إسطنبول التي بقيت حتى القرن العشرين"، أنقرة - ٢٠٠٠م، ص ٢٩٠-٢٩١.

دار "خَاصَكِي" لإطعام المساكين إحدى روائع "سنان" المميّزة

كان القيام بالأعمالِ الخيريّةِ مجالًا مميّزًا وفعّالًا أولَتْهُ النساءُ أهميةً كبيرة في الدولة العليّةِ العثمانيّةِ، فنجدُ أن السيّداتِ من ذواتِ الثروةِ والقوّةِ والنفوذِ في الدولة العثمانيّةِ كنَّ يحوّلنَ نفوذهنَّ هذا إلى واقعٍ ملموسٍ، بإنشاءِ المؤسَّساتِ الخيريَّةِ الكبيرةِ (الأوقاف)، والمبادرةِ إلى تقديمِ المساعداتِ والإعاناتِ في إطارِ رغباتِهِنَّ وتطلُّعاتِهِنَّ.

لقد أَنْفَقَتْ تلك السيّداتُ بسخاءٍ حينَ تَبَرَّعْنَ بجزءٍ كبيرٍ من ثَرَوَاتِهِنَّ ووَهَبْنَه لصالح المؤسسات الاجتماعيّةِ المختلفةِ، التي تعمل في ميادين شتَّى، مثل: الصحّةِ والتعليمِ وغيرهما، وقد اكتسبنَ شهرةً كبيرةً وسُمعةً طيّبةً؛ بسبب إسهاماتِهِنَّ في أعمال الخيرِ، والرعايةِ، ومساعدةِ المحتاجين.

وبحلول منتصف القرن السادس عشر -أي في الفترة التي عاشت فيها "السلطانة خُرَّم"- كانت قد تطوَّرت مجالاتُ بناءِ وتشييدِ الأوقافِ الخيريّةِ.

فـ"السلطانة خُرَّم" أسهمت في الكثير من الأعمالِ الخيريّةِ خلالَ فترةِ حياتها، وقد تركت لنا الكثيرَ من الأوقافِ، إلا أنها لم تَنْسَ أن يكون لها -أيضًا- عمل خاصٌّ يميّزُها عن الآخرين، فقد قامت "السلطانة خُرَّم" بإضافةِ دارٍ لإطعامِ المساكين، ألحقتها بـ"مجمّع خَاصَكِي"؛ لإطعامِ الأشخاصِ المحرومين والمحتاجين الذين لا يجدون الرعايةَ والعنايةَ اللازمةَ.

* * *

إن دارَ إطعامِ المساكين، تقعُ اليوم بين شوارع "جَودَتْ باشا" الممتدَّةِ بمحاذاةِ شارع "خَاصَكِي"، ولهذه الدار ثلاثةُ أبوابٍ؛ "الباب الرئيس" ويقعُ بجوارِ السبيل، كما يُطِلُّ على شارع "خَاصَكِي"، وقد دُوِّنَ على هذا البابِ

الأثري بيتٌ من الشِّعْر مُحِيَ شَطْرُهُ الأَوَّلُ وبَقِيَ الشطرُ الثاني مكتوبًا على نحوٍ يُمكِنُ قراءته بسهولةٍ، وقد سُجِّلَ تاريخُ إنشاءِ الدار بِحِسَابِ الجُمَّلِ، فـي البيت الأخير المُدَوَّنِ على ذلك الباب في عام (٩٤٧هـ/١٥٤٠م)[١٥٣]، وهكـذا تمَّت إضافةُ بناءٍ ثالثٍ إلى الجامـع والمدرسـة الدينيَّةِ التي حواها "مجمَّـع خَاصَكِي"، وهو دار إطعام المساكين[١٥٤].

لقـد كانـت دار "خَاصَكِي" لإطعام المسـاكين إحدى روائـع "سِـنَان" المميـزة، بحيـث يمكـنُ القـولُ: إن هـذا المعمـاري الفَذّ قد اسـتطاع من خـلال هـذا الأثرِ أن يخطُـوَ أُولى خطواتِهِ على سـلَّمِ العبقريَّةِ، وذلك لأن المهارة التي أظهرها "سِـنَان" في هذا العمل تفوقُ في سِماتِها وخصائِصِها المِعماريَّـةِ باقـي بنايات المجمَّـع؛ حيث إن الطريقـةَ والكيفيَّةَ التي قام بها "سِـنَان" ببناءِ القِبَابِ والأقواسِ في هذا العملِ كانت على درجةٍ عاليةٍ من الإبداعِ والدِّقةِ التي تصيبُ من يراها بالذهولِ.

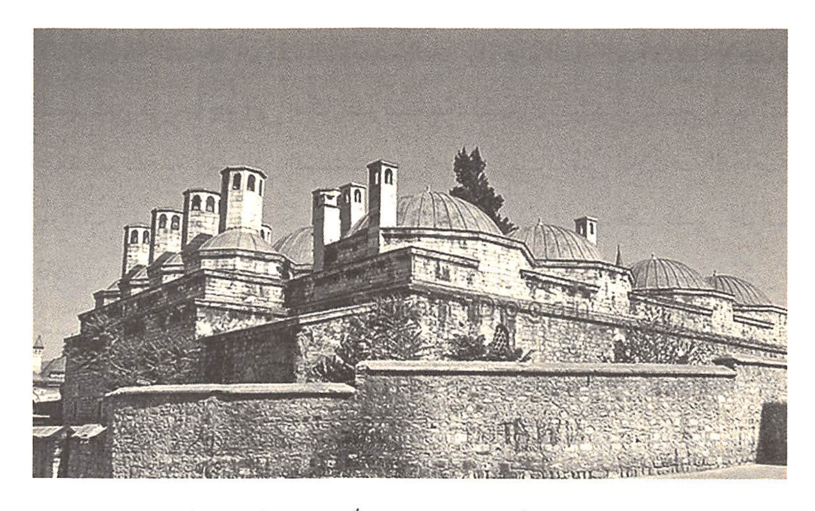
إن هـذا البنـاء الفريدَ الذي صمَّمَهُ وأنجزَهُ "سِـنَان" بيديه، قد اسـتطاع مـن خلالـه أن يعرضَ أمامَ العالم فَنَّه وشـخصيَّتَه إلى جانب عَظَمَةِ العصرِ الذي عاش فيه.

اثنان وثلاثون كيلو جرامًا من اللحم يوميًّا

وفـي الجِهَةِ الشـماليَّة نجدُ دارَ إطعامِ المسـاكين وقـد أُحيطَتْ برواقٍ ذي ثلاث أقواسٍ من جهةِ الشرقِ وخمسٍ من جهةِ الغرب، ونجدُ أن هذه

(١٥٣) إن السيد "طَاشْكِيزَانْ" في عمله الذي نشر عام (١٩٧٢م)يقف بإصرار عند عام (١٥٤٠م/٩٤٧هـ). لكننا نجد في المجلد السادس عشر من كتاب "السلطانة خُرّم" الذي طُبِع من قبل مؤسسة (الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، *DIA*) عام (١٩٩٧م) العبارة التالية: "مكتوب أن دار إطعام المساكين قد أنشئت من قبل "القانوني" عام (١٥٥٠م/٩٥٧هـ)". كذلك نجد الجملة التالية التي تطالعنا في المقالة التي تحمل توقيع "دوغان قوبان" في المجلد الرابع من الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول- ٢٠٠٣م: "بناء على ما ذكر في الكتابة الموجودة على مدخل دار إطعام المحتاجين فقد أُسس هذا البناء من قبل "القانوني" عام (١٥٥٠م)".

(١٥٤) طَاشْكِيزَانْ، المصدر السابق، ص ١١٤.



دار إطعام المساكين "خَاصَكِي السلطانة خُرّم" في "خَاصَكِي/إسطنبول"



الأروقـة مغطَّاةٌ بقِبـابٍ مثبَّتةٍ على أعمـدةٍ ذاتِ رؤوسٍ مربَّعَةٍ، أما المطبخُ الذي يقعُ شـمالَ صحن الدار فيتكوَّن من مسـاحةٍ مغطَّاةٍ بقبَّتين كبيرتينِ، وفي الخلف منها يوجدُ قسمٌ لإعداد الطعام ذو أربـع قِبابٍ صغيرةٍ ومزودٌ بموقد، وإلى جوارِ ما سـبق نجدُ رَدْهَتَينِ مسـتطيلتي الشـكلِ ولكلٍّ منهما قُبَّتانِ، وتنفتحان على الشـارع الموجود في الناحية الغربية من دهاليزَ ذاتِ أقبيةٍ نصفِ دائريَّةٍ. (١٥٥)

* * *

كان من المؤكَّد أن هذه المؤسَّسة الخيريَّة وهذه الدار المخصَّصة لإطعام المساكين في حاجةٍ إلى إمكانات ضخمةٍ؛ لضمانِ استمرارِ القيام بأعمالِها وتقديـمِ الخدمـاتِ التي أُنشِـئت مـن أجلها، وبنـاءً على اللائحـةِ الخاصَّةِ بأوقافِ السـلطانةِ "خَاصَكِي" والموجودةِ في أرشـيفِ متحفِ قصرِ "طوب قابـي"، فإن المبالـغَ الماليّة المخصَّصَة لـ"دار خَاصَكِي لإطعام المسـاكين" كانت تقدر حوالي مائةٍ وعشرينَ ألف آقْجَه،(١٥٦) وفي الصفحة الأولى من تلك اللائحةِ نجد أنه من أجل استمرار الخدمة وضمان عدم انقطاعها، فقد خُصِّصَ لهذه الدار بشـكل مُسْـبَقٍ ولمدَّةِ عامٍ مبالـغُ ماليَّةٌ احتياطيَّة، بحيث وصل الاحتياطيُّ من تلك المبالـغ المالية إلى قرابة ثلاثمائةٍ وتسعةٍ وثمانين ألفًا، وثمانمائةٍ وخمسين آقْجَه، وقد كانت تُستخدمُ في تلك الوثيقة عبارة:

"المبلـغ المتبقي احتياطي لنفقات الدار العامرة لإطعام المساكين"(١٥٧).

* * *

ونلاحظ في لائحةِ وقفِ السـلطانة "خَاصَكِـي" أن هناك اهتمامًا بالغًا بجوانـبَ عديـدةٍ؛ كجودَةِ الطعامِ الـذي يتمُّ طَهْوُه بدار إطعام المسـاكين،

(١٥٥) كُوبَانْ، المصدر السابق، ص ٣٧٢.

(١٥٦) آقْجَه: وهي عملة عثمانية من الفضة من عيار ٨٥ ويبلغ وزنها ١٤٦،٠جرام

(١٥٧) طَاشْكِيرَانْ، المصدر السابق، ص ١١٥-١١٦.

وكيفيَّةِ مراقبة المـوادّ اللازمةِ لتجهيـزِ المأكولات، بالإضافة إلى قواعدَ محـدَّدَةٍ لتوزيـع الطعـام، وكان من الشـروطِ الواجب توافرهـا في المواد الأساسيَّةِ التي تُعَدُّ منها الأطعمة أن تكون من أجود الأنواع، وأن تُستَخدَم البهـارات، مثل: الكمُّـون والفلفلِ والبصلِ والنعناعِ والزعفرانِ؛ لتحسـينِ طعمِ ونكهةِ المأكولاتِ.

ووِفْقًا لما وردَ في تلك اللائحة، فإنه كان يتمُّ إعدادُ وجبتين كلّ يوم، وكان يتـمُّ صـرف خمسـين أوقيَّـةٍ من اللحـم (حوالي أربعةٍ وسـتين كيلو جرامًا) كلَّ يومين، -باستثناءِ أيامِ المناسباتِ الخاصّةِ والأعيادِ- هذا، وإذا أَمعنَّا النظرَ في تلك الإمكانيات التي كانت مخصَّصَةً للحمِ، فإننا سُندرك بشكلٍ جَلِيّ مدى الكرمِ وسَعَةَ اليدِ تجاهَ الفقراءِ والمُعْدَمِينَ.

وكانـت الأطعمةُ الرئيسـيَّةُ في دار إطعامِ المسـاكين هـي المأكولات التـي تُعـدُّ من القمـحِ والأَرُزِّ، أما فـي الأيّام الخاّصةِ فقـد كان على رأسِ المأكـولات التـي يتمُّ إعدادهـا (الأرز باللحم البقري)، وبوسـعنا أن نذكرَ أن هـذه الوجبـة كان يدخل في إعدادهـا الأرزُّ والزُّبْد والحِمّصُ والبصلُ، بالإضافـة إلـى ذلك فقد كانت هناك أصناف أخرى تُقدَّم في الوقف، مثل: "زِرْبـا (*zirba*)[١٥٨]، و" أَكْشِـي آشْ (*Ekşi Aş*)" [١٥٩]، و" أرز زَرْدَا (*zerda*)" [١٦٠]، و"عاشوراء".

وكانـت الوجبـات المطبوخـةُ تحتوي علـى مكوِّناتٍ غنيّـةٍ بالبروتين والدهونِ والكربوهيدرات والفيتامينات، كما كان يتمُّ تحديدُ مقدارِ الموادِ المسـتخدمَةِ من أجل ضمانِ أن يكونَ مذاقُ الطعامِ المُعَدِّ على خير وجهٍ،

(١٥٨) صنف من الحلوى يصنع من العنب الأسود واللوز والتين والمشمش والبرقوق والعسل والزعفران.

(١٥٩) صنف من الحلوى يصنع من العنب الأسود والعنب الأحمر والتين والمشمش والبرقوق والنعناع وفاكهة مجففة على هيئة ورق.

(١٦٠) صنف من الحلوى يصنع من الأرز والزعفران والعسل والزبدة.

كمـا أُخِذَ فـي الاعتبار تَكْلِفَةُ الحطب الذي سيسـتعملُ فـي طهيِ الطعام، وإضافتُهُ إلى إجماليِّ الحساب(١٦١).

* * *

كمـا ذُكِـرَ كذلـك فـي لائحـةِ الوقـفِ أوصـافُ الأشـخاصِ الذيـن سيستفيدون من هذه المؤسَّسَةِ الخيريَّةِ.

وتمَّ السماحُ للموظَّفين الذين يعملون في هذه الدار، وكذلك للموظفين الذين يعملون في المشـفى، والمدرسـةِ الدينيَّةِ، والجامعِ إلى جانب الطلبةِ الذين يدرسون في المدرسةِ أن يتناولوا الوجباتِ التي كانت تُجهَّز في الدار، بالإضافـة إلى ذلك، فقد كان يتمُّ تقديمُ الطعام باسـتمرارٍ لأربعةٍ وعشـرينَ فقيرًا ومحتاجًا طوال حياتهم، وفي حال موتِ أحدِ هؤلاء الأشخاصِ، فقد كان يتمُّ تحديدُ الأشخاصِ المحتاجين الجُدُد من خلال البحث الدقيقِ، فقد كانت هناك قواعد صارمةٌ لا تسمح لغير المُستحقِّين بأن يَتِمَّ وضـعُ أسمائهم في لائحةِ مَنْ له حقُّ الاستفادة من خدمات الوقف.

أما الأطعمةُ التي كانت تأتي من المطبخ وتزيدُ عن حاجةِ الوقفِ، فقد كان يتمُّ توزيعُها على الفقراء والمحتاجين، بشـرطِ أن يتمَّ أكلُها في القاعةِ المُخصَّصةِ لتناولِ الطعام داخل هذا الوقف.

التعليمُ الدينيُّ في مدارس الصِّبْيان

كانـت المـدارسُ الدينيَّـةُ، ومـدارسُ الصبيـان(١٦٢) -فيمـا قبل مرحلة التعليـم الأساسـية- يمثِّلانِ أهـم عنصرٍ في النظام التعليمـيِّ والتربويِّ في

(١٦١) طاشكيزان، المصدر السابق، ص ٤٩.

(١٦٢) الصبيان كلمة عربية الأصل وهي جمع لكلمة "صَبِيّ"، وتعني الولد الذكر الصغير، أما مدرسة الصبيان فهي مدرسة أنشئت للطلاب الذكور الصغار، إلا أنها برغم تسميها باسم الأولاد الذكور أي الصبيان فقد كانت تدرس فيها البنات الصغيرات أيضًا، وكانت مدارس الأولاد والبنات منفصلة عن بعضها في الأغلب الأعم في الدولة العثمانية، أما تلك المدارس المختلطة فقد كان الأولاد والبنات يجلس كل منهم في صفوف خاصة به في الفصل الواحد.

الدولة العثمانيَّة، ولـم تكن الدولة هي من تُنشِئُ هذه المؤسَّسات التعليميَّةِ، بل كان يُشـيِّدها العلماءُ والأغنياء وميســورو الحال من أبناء الشعبِ وكبارِ رجالِ الدولة، مثل: السلطان، والصدرِ الأعظم، والوزيرِ، والسلطانةِ[١٦٣].

وكان الأشخاص الذين يقومون ببناء مدرسة للصِّبْيان يُخصِّصون أيضًا مواردَ ماليَّة كافيةً؛ للوفاءِ باحتياجات المدرسـةِ، وتوفيرِ الدعمِ اللازمِ لكي تتمكَّنَ تلك المؤسَّســة التعليميّة من القيام بنشــاطها بشـكلٍ مستمرّ، ولهذا فـكان يتمُّ تخصيصُ وقفٍ ليكون مصدرًا ماليًّـا متجدِّدًا يكفي لتغطيةِ كافَّةِ المصاريـف المتعلِّقـة بالمؤسَّسـةِ، مثل: المبالــغ الماليَّةِ اللازمـةِ للاعتناءِ بالمدرسـة بعـد إنشـائِها، وتوفيرِ الإصلاحات التـي قد تتطلَّبُهـا، هذا إلى جانـب مرتَّبـاتِ الموظَّفيـن العاملينَ فيهـا، والمصاريـفِ اللازمة لإطعام وإيـواءِ الطلبـةِ الذيـن يتلقَّـون العلـمَ في المدرسـة،[١٦٤] وهكـذا، كان يتمُّ الإنفاق على مؤسَّســات التربية والتعليم من غير اللجوءِ إلى أيَّةِ أموال من خِزَانة الدولة[١٦٥].

وفـي وقـف "السـلطانة خُـرَّم"، كان يُشـتَرط أن يكونَ التعليـمُ الدينيُّ في المدرسـة موجَّهًا فقط للأطفال المسـلمين، بالإضافة إلى تعليمِ قواعدِ اللغةِ كدروس تكميليَّةٍ، وكانت إدارة المدرسةِ تشترطُ في المعلِّم ومن معه

---

(١٦٣) بناء على الدراسة التي قام بها "المعلم جودت" عام (١٩١٩م)، فقد كان في إسطنبول مائةٌ وثلاثةٌ وثمانون وقفًا وتسعةٌ وثلاثون مدرسةً تم إنشاؤها من قبل سلطانات وسيدات القصر. وقد أُنشِئَتْ أول مدرسة للصبيان من قبل السلطان "محمد الفاتح"، وذلك ضمن مجمع الفاتح حيث أخذت اسم "دار التعليم". (إسماعيل قَزه، مدارس الصبيان، إسطنبول- ٢٠٠٥م، ص ١٦).

(١٦٤) نجد أن بعض المدارس في الأوقاف كانت تقدم الطعام للطلاب والعاملين بها، إلا إننا نجد بعض المدارس الأخرى تصرف لكل طالب مبلغًا ماليًا كل يوم وذلك في مقابل أن يقوم كلّ واحدٍ من الطلاب بقراءة جزءٍ من القرآن، (فخر الدين بُوزْدَاغ (*Bozdağ*)، مدارس الصبيان، الجزء الثامن من اصدارات ندوة السلطان " أيوب "، إسطنبول. ٢٠٠٤، ص ١٢٧).

(١٦٥) فخر الدين بُوزْدَاغ، مدارس الصبيان، الجزء الثامن من اصدارات ندوة السلطان " أيوب "، إسطنبول، ٢٠٠٤م، ص ١٢٤.

من مساعديه، صفاتٍ يجبُ توافُرُهَا فيهما، ومن بين هذه الصفاتِ الواجب توافرهـا: الأخـلاقُ القويمةُ والصفـاتُ الحميدةُ، وأن يكـون صديقًا مُقرَّبًا مـن الطـلاب، كمـا كان من ضمنِ الصفـاتِ المنتظر توافرُهـا في المعلم، أن يكون في تعامُلِه مع الطلاب كالأب الشـفيق، كما اشـتُرط في المعلم أن يكون مجيدًا إجادةً تامةً لأحكام(١٦٦) القرآن الكريم. (١٦٧)

حديقةُ ألعابِ للأطفال

كانـت مدرسـة "خَاصَكِـي" للصبيـان تتكـوَّنُ من قسـمين، وتقـع بين المدرسـةِ الدينيَّـةِ والبـابِ الرئيـسِ لـدارِ إطعـامِ المسـاكين، وكانت هذه المدرسـةُ في شـكلِها المِعماريّ تُعبّرُ عن البسـاطةِ والجمالِ، الذي يتلاءمُ مـع شخصيَّةِ "سِنَان".

وتتَّخِـذُ المدرسـة شـكلَ وحـدةٍ معماريَّـةٍ مربَّعـةِ الشـكلِ تتكـوَّن مـن قسـمين، القسـم الأول منهما لـه جانبان يُصْعَـدُ إليه بسـلَّم ذي أربـع درجـات، وطرفا هذا القسـم الأول مفتوحـان تُجَمِّلُهُمـا القناطرُ والأروِقةُ ذاتُ الأعمـدةِ الرخاميَّـةِ الأثريَّـةِ، أما القسـم الثانـي من المدرسـة فعبارةٌ عن قاعةٍ مغلقةٍ للتعليم، كلا القسمينِ في المدرسة له سقفٌ مُستَوٍ، بحيث إنَّ كلَّ المسـاحاتِ مغطَّاةٌ بسقفٍ مثبتٍ، أما السـاحةُ ذاتُ الحوضِ التي في مواجهةِ البناء، فعلى الأرجحِ أنها كانت تُستخدَم كحديقةِ ألعابِ للأطفال.

ولـم يتسـنَّى لأحَدٍ حتى الآن معرفةُ تاريخ إنشـاء هذه المدرسـة على سـبيل الجزم والقطـع؛ حيث لم يُدوَّن عليها تاريخُ الإنشاء، لكن الأعمالَ

(١٦٦) كان تعليم الدين الاسلامي هو الهدف الرئيس والوظيفة الأساسية المنوطة بمهنة التدريس في مدارس الصبيان، وإذا كانت الغاية الرئيسة من تأسيس هذه المدارس -في الغالب- هو رعاية اليتامى والفقراء فقد كانت هذه المدارس كذلك تظهر صدق الروح والمشاعر التي توليها الطبقة الدنيا من المجتمع للتعليم الديني. أما أولئك الذين كانت ظروفهم الاقتصادية جيدة فقد كانوا يرسلون أبنائهم ليتلقوا شكل من أشكال "التعليم الخاص".

(١٦٧) طَاشْكِيزَانْ، المصدر السابق، ص ١٢٤.

المزخرفـةَ برسـمِ زهـرة "الللينوفَـر(*linüfer*)" التي نراها موجـودةً على بناءِ المدرسـةِ تشـيرُ إلى أنَّ كلاهما قد تمَّ الانتهاءُ منه في وقت واحدٍ، أي في عام (١٥٣٩م). (١٦٨)

إن مدرسـة "خَاصَكِـي" للصِّبْيـان تُمثِّل لنا نمطًا معماريًّـا مختلفًا، من خلال شكلِها الفريد والمميَّز عن باقي المباني ذات القِبابِ.

سبيلُ الماءِ

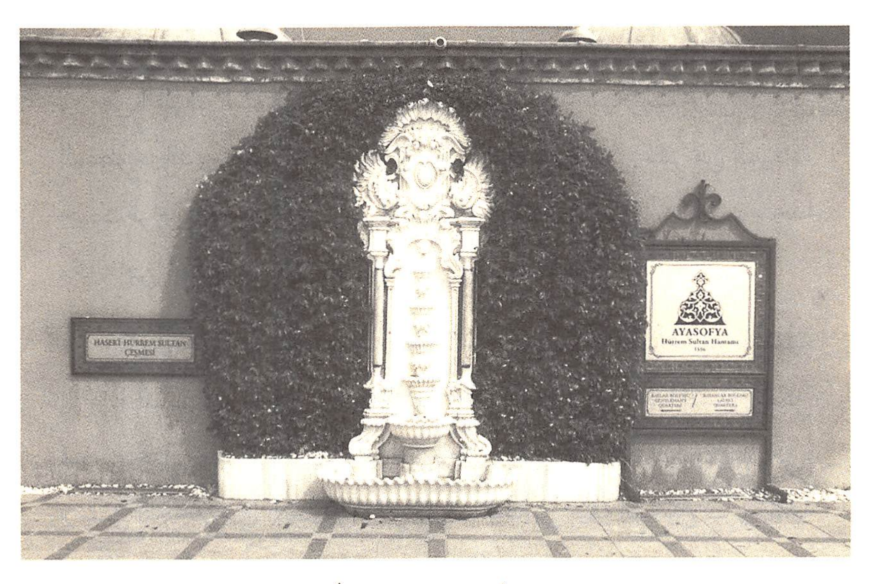
في الطرف الشمالي من شارع "خَاصَكِي" نجد سبيلًا للماءِ من الحجر المقطوع، الذي يعود تاريخ إنشـائه إلى القرنِ السـادس عشر من الميلاد، حيـث نراه يقـع تجـاه الأبواب الثلاثة التي تمثل مدخـل المجمَّـع، متخِذًا مكانَه بين أبواب مدرسة الصبيان ودار إطعام المساكين.

وفـوقَ هـذا السـبيل توجـدُ قطعـةٌ مـن الرخـام كُتـب عليها ما يشـيرُ إلى أنه قد تمَّ ترميمُه في عام (١٧٩٩م/١١٨٠هـ)، ويأخذُ هذا السبيلُ شكلَ قـوسٍ حـادٍّ حجريٍّ منحوتٍ داخـلَ إطارٍ مربّـعٍ على النمطِ الكلاسـيكيِّ، وعلـى الحجـرِ ذي النقـوشِ والزخارفِ الخاصِّ بهذا السـبيلِ نـرى كتابةً بخطٍّ مقوَّسٍ مستديرٍ، وقد حُملت هذه الكتابة بواسطةِ عمودين رخاميَّين، ومـع الأسـفِ، فقـد توقَّفَ نزولُ المياهِ من السـبيلِ بسـبب كثـرةِ وتكرارِ رصـفِ الطريـقِ إلـى أن أصبحَ الطريقُ أعلى من مصدرِ نـزولِ المياهِ، مما اضطـرَّ إلـى إيقافِ هذا السـبيلِ عـن الخدمةِ حينما انخفـضَ جزءٌ منه عن مستوى الطريقِ وذلك في عام (١٩٩٧م). (١٦٩)

* * *

(١٦٨) سَمَا دُوغَانْ، المصدر السابق، ص ٣٧٢.

(١٦٩) سَمَا دُوغَانْ، المصدر السابق، ص ٣٧١.



سبيل "خَاصَكِي السلطانة خُرّم"

وهذا هو البيتُ الثاني من المقطوعةِ الموجودةِ أعلى الكتابة:

"ماءُ السبيلِ يفيضُ كماءِ زمزم
ومن يدِ الخَضِرِ شربتْ كلُّ الكائنات شرابًا طهورًا"(١٧٠).

* * *

مشفى "خَاصَكِي" الأثر الوحيد من ميراث القرن السادس عشر

إن مشـفى "خَاصَكِـي" الذي تم بناؤه في عـام (١٥٥٠م/٩٥٧هـ) يُعتبرُ البنـاءَ الأخيرَ الذي تمّ إنشـاؤُه ضمنَ أبنيةِ "مجمّـع خَاصَكِي"، وهو يمثِّل مستشفى "خَاصَكِي" الموجود اليوم.

وفـي الأثر الذي تركَـهُ لنا "أَيوَان صَـرَاي (*Ayvansarayi*)" والمسـمّى "حديقة الجوامـع" نجده يشـير بحسـاب الجُمَّل إلى تاريخ إنشـاء الوقف الرئيـس الذي يعود إلى "السـلطانة خُرَّم"، حيث يذكر لنا أن تاريـخ إنشـاء هـذا الوقـف هو عام (١٥٥١م)، وهو ما يشـير بشـكلٍ واضـحٍ إلى تاريخِ إنشاءِ المشفى.

وفي الثالث عشـر من حزيران/يونيو من العام نفسِـهِ، تمَّ وضـعُ حجرِ الأسـاسِ لبناءِ جامع "السـليمانية" الذي يعتبر من أعظمِ وأروعِ الجوامـعِ، وفي كتاب "تذكرة البنيان" يذكر لنا المعماريّ "سِنَان" هذه الجملة المتعلّقة بذلك الأثرِ الفريدِ:

"تـم إرسـاءُ أسـاس هـذا الجامـع المنيـف في وقتٍ شـريف وساعةٍ سعيدةٍ!"

* * *

(١٧٠) إبرهيم حلمي طَانِيشِيك (*Tanışık*)، " سُبُل مياه إسطنبول "، إسطنبول - ١٩٤٣م، المجلد الأول، ص ١٩٦.

يقـعُ مشـفى "خَاصَكِي" في الجهةِ الجنوبيّةِ المقابلةِ للمدرسـةِ الدينيّةِ ومدرسة الصبيان، وبمحاذاةِ دارِ إطعامِ المساكين الواقعةِ في جهةِ الشرقِ.

إن هذا المشفى الذي ظلَّ يُقدِّمُ خدماته في المبنى نفسه لمدَّةِ ثلاثمائةٍ وأربعةٍ وثلاثينَ عامًا، يُعتبرُ المشفى الوحيدَ الذي يعودُ إلى القرن السادسَ عَشَـرَ، ولا يزالُ يعملُ حتى الآن في إسـطنبول، لكنَّ الجزءَ الأكبرَ من هذا المشـفى -الـذي ربَّما يكونُ قد أُنشِـئَ قبـلَ أو بعدَ هذه البنايـة- قد انهدمَ ولم يتبقَّ لنا منه أيَّ أثرٍ، أما الأقسامُ المتبقِّيةُ حتى الآن من مشفى "خَاصَكِي" فقد استُخدِمت ولا تزالُ تُستخدمُ لأغراضٍ مختلفةٍ أخرى. (١٧١)

لقد صمَّم المعماريُّ "سِنَان" هذا المشفى الذي قُدِّرَ له أن يصمُدَ حتى عصرِنـا الحاليِّ، على طِـرَازٍ معماريٍّ مختلفٍ عن تلـك الطُّرُزِ التي كانت تُصَمَّم على أساسِـها المشـافي الفارسيّة والسـلجوقيّة والعثمانيّة القديمة، ونجح في أن يُشيِّد مشفى يضم ثمانين سريرًا على مساحةٍ صغيرةٍ.

فِنَاء المشفى ذو الحوض

يتميَّزُ المشـفى بغُرَفِهِ ذات القِبَابِ التي تقـع في محيطِ خمسةِ جوانب مـن فِنـاء المشـفى أمَّـا الأماكـن الواقعـةُ في الشـرق والغـرب والجنوب من الفِنَاء الثُّمَاني الشكل، فنجدها مشيدة من الحجر المقطـع والمنحوت، وتأخذ شـكل صَفَّينِ مسـتديرين بالتناسـق التام فيما بيـن بعضهما البعض وتعلوهما قُبَّتين مُزدوجتين .

(١٧١) لم يتبق من مشفى "الفاتح" -كما يخبرنا "منافيوس" الذي عاش في القرن السادس عشر- سوى حائط صغير متهدم من إجمالي خمسةٍ وعشرين قبة، وقد أُنشئ بعد ذلك بسنوات العديد من المنازل محلّ هذا المشفى الذي كان الأول في إسطنبول، أما المشفى الذي أنشأه السلطان "بيازيد الثاني" فلم يعد معلومًا مكان إنشائه، ولكن المصادر التاريخية تتفق على أن هذا المشفى كان يوجد داخل نطاق مجمع "بيازيد".

أمـا في الجنـوب الشـرقيّ والجنوب الغربـيّ من المشـفى، فنجدُ أن هناك وحداتٍ كبيرةٍ مقوَّسةٍ ومقنطرةٍ ومنفتحةٍ على الفناء، وفوقَ كلِّ جهةٍ مـن هاتيـن الجِهَتيـن -الجنـوبِ الشـرقيّ والجنـوبِ الغربـيّ- قُبَّـةٌ كبيرةٌ وضخمـةٌ، كمـا نجـدُ هنـاك غرفتينِ مسـتقلّتين تقعـانِ بين المشـفى ودار إطعام المساكين الملحقةِ بالقسمِ الخلفيّ، ويُعتَقدُ أنَّ هاتين الغرفتين كانتا تُستخدَمان من أجل تجهيزِ وإعدادِ الأدويةِ[١٧٢].

إذا جئنا إلى الحوضِ الذي يقعُ في منتصفِ الفناءِ الأساسيّ للمشفى، فإننا نجدُ أنه قد صُمِّمَ بحيثُ يأخذُ شكلُهُ الخارجيُّ منظرَ شجرةٍ تحيطُ بها مجموعـةٌ مـن الزهـورِ، أما اليوم فإننا نجدُ أن أرضيَّـةَ الحوضِ قد صارت مغطَّاةً بالرخام المُتنوّعِ والمختلفِ الأشكال.

وليس من المعلومِ على وجهِ اليقين، ما إذا كان الشكلُ الأصليُّ للمبنى قد تَعرَّض -خلال الثلاثمائة وعشـرين عامًا التي سـبقت عام (١٨٧٠م)- إلـى تغييراتٍ طـرأت عليه أم لا؛ حيث إنه ليس مُتاحًا لدينا اليوم الرسـومُ الهندسيَّةُ أو المعلوماتُ المتعلِّقة بالمشروعِ، سواءٌ أكانت تلك المعلوماتُ متعلِّقةً بتشييدِ البناءِ أم بعمليّاتِ الإصلاحِ والترميمِ؛ لذلك فلسنا على علمٍ يقينـيّ بحجـمِ التغييرات أو الأضرارِ التي لحقت ذلـكَ الأثرَ العظيم الذي خلَّده لنا المعماريُّ "سِنَان".

الكلمةُ الفظَّةُ توجِعُ المريض

لقد أُعلِنَ بتاريخ (١٥٥١م/٩٥٨هـ) عن الصفاتِ التي يجبُ أن تتوافرَ فـي الأطبـاءِ الذين سـيتولّون وظائفَهم في أقسـامِ المشـفى التابـعِ لوقفِ "السلطانة خُرَّم"، وها هو ملخَّصُ تلك الصفات:

(١٧٢) سَمَا دُوغَانْ، المصدر السابق، ص ٣٧١.

الأطباءُ الذين سيعملونَ في المشفى يجبُ أن يكونوا على علمٍ ودرايةٍ بقوانينِ الطبِّ والحكمةِ، وأن يكونَ لديهم إحاطة بتفاصيل كلِّ هذه المسائل، كما يجب أن يكون الطبيب متخصِّصًا في مجاله، وليس طبيبًا عامًّا، وأن يكون لديه سابقُ خبرةٍ في تخصُّصِه، وأن يكونَ قد أمضى فترةً طويلةً يمارسُ فيها الجانبَ التطبيقيَّ في مجال تخصُّصه، ويتم اختيار هؤلاء الأطباء من بين الأشخاص الذين قَضَوا فترةً زمنيةً أطولَ في الممارسةِ والتطبيق.

لقد كان يُشترطُ في كلِّ واحدٍ من هؤلاء الأطبَّاء الذين سيعملون في المشفى أن يكونَ من الذين يقومون بعملِهم على خيرِ وجهٍ، ومن الذين يُشهَد لهم بحسنِ السيرِ والسلوكِ، وسلامةِ القلب، وكرمِ الأخلاق، وحُسْنِ السجيَّةِ، والرحمةِ، ولينِ القولِ، وحلاوة اللسان، ولطافة المعشرِ، وبشاشة الوجهِ، ورقّة الطبعِ، ويرجو الخيرَ لجميعِ الناس؛ القريبِ منهم والبعيدِ، كان لزامًا على هؤلاء الأطباء أن يتعاملوا مع المرضى بمنتهى الرحمة والشفقة، كما يتعاملُ الصديقُ مع صديقِهِ المقرَّب فيرعاه، ولا يعامله بصورة فظَّةٍ أو غليظةٍ على الإطلاق[١٧٣].

لقد كان لزامًا على الطبيب في ذلك المشفى ألّا ينطِقَ بأيَّةِ كلمةٍ سيّئةٍ أو منفِّرةٍ ولو نادرًا، وذلك لأن الكلمةَ الفظَّةَ تكونُ أحيانًا بالنسبةِ لبعضِ المرضى أكثر إيلامًا من أشد الأوجاع، وقد وصل الأمرُ إلى درجةٍ حتى إنه ربّما كنا نجدُ الطبيب من هؤلاء يتحرّى في كلامه مع المريض ألطف العبارات، ويستخدم عند سؤال المريض أكثر الطرق لينًا وشفقةً، وهذا لأن الكلمات الرقيقةَ التي تُوجَّه للمريض إذا ما كانت ستقدَّر بالمال فستكون

(١٧٣) طاشكيزاده، المصدر السابق، ص ١٣٣.

بالنسبة لهذا المريض أغلى قيمةً من جنّةِ الكوثر وأحلى طعمًا من الزلالِ والسلسبيلِ، فالمريضُ في النهاية محتاجٌ بشدةٍ إلى الكلمة الطيّبة. (١٧٤)

إن الطبيبَ الناجح يَفْرِدُ أجنِحةَ الرأفةِ والشفقةِ على المرضى ويَبْسُطُ لهم مظلَّةَ العنايةِ والرعايةِ.

كان كلُّ واحدٍ من الأطباءِ يأتي المشفى صباحًا ويباشِرُ عملَه، فيطَّلِعُ على أحوالِ الأشخاص المرضَى ذوي البلايا والعلل، ويعاينُ بنفسِه أمراضَهم وآلامَهم، فيقيسُ نبضَهم ويلاحظُ مستوى الإدرارِ لديهم، ويُدقّقُ في الأعراضِ المعهودةِ للمرض، كان الطبيبُ يسألُ عن كلِّ الأمورِ المتعلّقة بالمريضِ سواءً الصغيرة أو الكبيرة ولا يهملُ حتى أدقّ الأشياء الخاصّة به، ثم بعد ذلك يداوي كلَّ واحدٍ من المرضى معطيًا له أفضل العلاجات وإذا ما كانت حالةُ المريضِ تتطلَّبُ أن يتكرَّرَ قدومُه إلى المشفى فإن الطبيبَ كان يسارعُ في الحالِ ودونَ أيِّ تقاعسٍ للقيام بما عليه من واجبٍ، ولقد كان الأطباءُ ملتزمينَ وبشكلٍ كاملٍ برعايةِ هذه الشروطِ وعدمِ إخلال أو إهمال أيٍّ منها.

إن هذه الصفاتِ الروحيَّة والعمليّة والتي كان مطلوبًا توافُرُها في الأطباءِ العاملون بمشفى الوقفِ نجدُها اليومَ محلّ طلَبٍ ومناطَ أولويَّةٍ قصوى بالنسبةِ لباقي الصفاتِ المطلوبِ توافُرُها في الوقتِ الحاليّ عند الأطباء، وفي اللائحةِ التي تُنظِّمُ عملَ الوقفِ يُذكرُ أنه من الضروريّ أن يكون الأطباء العاملين بالمشفى على علم ودرايةٍ بالمسائلِ الطبّيّةِ والعلمية، كذلك فقد كانت تُراقَبُ وتُلاحَظُ أيضًا أدقُّ تصرفاتهم تجاهَ المرضى وبشكلٍ كانت تُراعى فيه هذه الناحيةُ إلى أقصى درجة.

(١٧٤) طاشكيزاده، المصدر السابق، ص ١٣٣.

وإذا نظرنـا إلـى المواصفاتِ التي كان من المطلوبِ توافُرُها في أطباءِ مشفى الوقفِ فإنَّنا نجدُ أنها تعكِسُ فكرًا متطوِّرًا للغاية ينطوي على أفكارَ أكثر تقدُّميَّة من قَسَـم الحكيم "هيبوقراطيـس"(١٧٥) الذي يُعَدُّ بمثابةِ "قانونٍ أخلاقيٍّ" في عالـم الطبِّ المعاصِر.

فمثـلًا لا نجـدُ في "قَسَـم هيبوقراطيـس" أيَّ ذكرٍ للتأثيـرِ القويِّ الذي تُحدِثُـه الكلمةُ الطيِّبةُ واللغةُ اللطيفةُ على المرضى، كما لا نجد ذكرًا على الإطلاق لضرورةِ أن يُظْهِرَ الطبيبُ للمرضى الرأفةَ والاهتمامَ الشـخصيَّ، إننـا لا نجـد من بين كلمات "قَسَـم هيبوقراطيس" ذكـرًا واضحًا وصريحًا للصفاتِ الواجبِ توافرُها لدى الطبيب.

العلاج يُمنح أيضًا خارج نطاق المستشفى

مـن بين الأطباء الذين كانوا يعملون في مشـفى "خَاصَكِي" الذي كان يوظِّـفُ ما يقاربُ الثلاثين شـخصًا نجـدُ أنَّ كبيرَ الأطبـاءِ كان يبلـغُ أجرُهُ اليوميّ ثلاثين درهمًا، أما الطبيبُ الثاني فقد كان أجرُه خمسةَ عشرَ درهمًا، أمـا الطبيبـانِ المختصّانِ بالعيون -واللـذان يكونانِ على درجـةٍ عاليةٍ من التمكُّنِ في تخصُّصِهما ويتميّزانِ بمهارةِ اليدِ والدقّةِ في وصفِ العلاجِ إلى جانـبِ البراعةِ في تشـخيصِ المرضِ وتقييم الحالـةِ المرضيّةِ دونَ الوقوعِ في أخطاء- فقد كان الواحدُ منهما يتقاضى أجرًا يوميًّا يبلـغُ خمسةَ دراهم، فـي حيـن أنَّ الباقيـنَ من نفـسِ تخصُّصِهما كانـوا يتقاضـون ثلاثة دراهم يوميًّا، كذلك فقد كان بالمشفى اثنانِ من الجرَّاحينَ الماهرينَ في مجالِهم، والقادرين على مداواةِ كلِّ أنواعِ الجروحِ، والتعاملِ معها بشـكلٍ إسعافيٍّ،

(١٧٥) "هيبوقراطيـس" (٤٦٠ق.م-٣٧٠ق.م). ولد هذا الطبيب اليوناني الذي يعرف بـ"أبو الطب" في (استانكوى)، وبناء على هذا الطبيـب فقد كانت أولى مبادئ الطب هي القاعدة التي تقول (أولا: لا توقـع الضرر) أو بمعنى آخر الوقاية خير من العلاج، وعندما يبدأ الأطباء الشبان حياتهم العملية فإنهم يقسـمون "قَسَم هيبوقراطيـس" المعروف.

حيث كان الواحد منهم يتقاضى خمسةَ دراهم أمَّا الباقون من نفسِ تخصُّصِهم فقد كانوا يتقاضون ثلاثةَ دراهم، وكان هناك أيضًا صيدليَّان يتمتَّعان بالمهارةِ في إعدادِ وتحضيرِ الأدويةِ والأشربةِ، حيث كان كلٌّ منهما يتقاضى ثلاثةَ دراهم، وإلى جانبِ الأطبَّاء فقد تمَّ تعيينُ أربعةٍ من الممرّضين لكي يقوموا على خِدْمةِ المرضى في المشفى، وكان كلُّ واحدٍ من هؤلاء الممرِّضينَ مسؤولٌ عن رعايةِ أمورِ المرضى، والقيامِ بما يتطلَّبُه ذلك من الإسراعِ في قضاءِ حوائِجِهم ورعايةِ أمورِهم وتلبيةِ طلباتِهم بأسرعِ وقتٍ، بحيثُ لم يكُنْ يقصِّر أيٌّ واحدٍ من هؤلاء الممرِّضينَ في المكوث إلى جانب المرضى، أو تلبية ما يحتاجونه بأي وقت، وفي النهار لا نجدُهم يتأخَّرونَ عن القيامِ بواجباتهم المتعلِّقة بالمرضى كما لا نراهم يُبدون أيّ تراخٍ أو تقاعُسٍ في أداء هذه الواجبات، وفي الليل فقد كان كلُّ اثنينِ من هؤلاء الممرِّضين الأربعة يتابعون الخدمةَ بشكلٍ متناوبٍ، وكانت أجرتُهم اليوميّةُ تُقدّرُ بثلاثة دراهم.(١٧٦)

* * *

لقد أمرَتْ "السلطانة خُرَّم" بأن يُصرفَ كلَّ يوم مبلغ مائة وخمسين درهم يُخَصَّصُ من أجلِ العلاجِ والشرابِ والطعامِ والمستحضراتِ العلاجيّةِ وما شابَهها، حيث أنّ كلَّ هذه الأشياء تُوَزَّعُ حسبَ احتياجات المرضى المتواجدين في المشفى.

وكان النظامُ القائمُ في المشفى ألّا تُعطى الأدويةُ إلا للقاطِنين في المشفى والمقيمين فيها للعلاجِ، لكن هذا النظام كان يُستثنى منهُ كلَّ يومِ اثنين وخميس من كلِّ أسبوع، فقد كان يستطيع الأطباء -في يومي الإثنين والخميس- أن يعطوا هذه الأدوية والمستحضرات العلاجية إلى

(١٧٦) طاشكيزاده، المصدر السابق، ص ١٣٤.

الأشـخاصِ الوافدين من خارجِ المشـفى، وكان يُشـترطُ عند توزيـعِ هذه الأدويـة أن تـوزَّعَ علـى الفقراء بغـرضِ التـداوي وليس على مـن يرغبُ في الحصولِ عليها لبيعِها، وبناءً عليه فإن الطبيبَ يُقرِّرُ الأمر وفقًا لما يمليه عليه ضميره. (١٧٧)

كان مشفى الوقف مركزًا علاجيًّا

كان الجزءُ الخامسُ من اللائحةِ التي تُنَظِّم عملَ الوقف والذي يحملُ تاريخَ (٩٥٨هـ/١٥٥١م) هو الجزءُ المتعلِّقُ بالمشـفى، فهذا الجزءُ يختصُّ بما يحدِّدُ مهمَّةَ المشفى:

"إن المشـفى يعالجُ كلَّ أنواعِ الأمراضِ، والوقفُ قد خُصِّصَ لعلاج جميع حالات المرض والعلل دون استثناء".

ويفهـم من هذه العباراتِ أنَّ المشـفى لم تكنْ مؤسَّسـةً مقتصرةً على عـلاجِ المجانين فقط، ولكنها كانت مؤسَّسـةً عامَّةً وشـاملةً عِلاجَ جميعِ المرضـى، ومفتوحةً على اتِّسـاعها لكلِّ الحـالاتِ المرضيّةِ، وإذا لـم يكن مشـفى الوقـف علـى هذا النحوِ -من الشـمولِ في العلاج- فـلا داعي إذًا لذكر عبارة "كل أنواع الأمراض"، فهذه الجملةُ الصغيرةُ والمختصرةُ تُمَثِّلُ فـي الوقتِ نفسِـهِ جوابًا على كثيرٍ من العباراتِ الخاطِئَـةِ غيرِ الدقيقة التي أُثيرَتْ حولَ المشفى."(١٧٨)

فعلى الرغمِ من أنَّ هذا المشـفى كان نبعًا للشـفقةِ والرحمةِ، واعتبارًا من تاريخ تأسيسِه لـم تكن بِه أيّ تفرقةٍ في المعاملةِ حيث كان على الدوام فاتحًا ذراعيه ومستقبلًا لكلِّ صنوفِ المرضى، كذلك نجدُ أنَّ هذا المشفى كانَ يعمـلُ بـكلِّ طاقتِـه على مداواةِ آلامِهم، إلا أنّه مـع الأسـفِ الشـديدِ

(١٧٧) طَاشكيزانْ، المصدر السابق، ص ١٣٤.

(١٧٨) طَاشكيزانْ، المصدر السابق، ص ٤٥.

أصبحَ فيما بعدُ مجرّدَ مكانٍ لِمَن لا يجِدُ مأوًى أو سكنًا، فصار مكانًا للعجزةِ وملجأً للنساءِ السجيناتِ أو النساء اللاتي لا يجِدْنَ بيتًا وملجأً، وأصبحت هذه المؤسّسةُ تُؤوِي كلّ هؤلاءِ الأصنافِ من البشرِ وتقدِّمُ لهمْ ما يحتاجونَه من علاجٍ.

* * *

لقد تعرض "مجمع خَاصَكِي" الذي يُمَثِّلُ وقفَ "السلطانة خُرَّم" لعمليّةِ إصلاحٍ وتجديدٍ في عام (١٧٤٨م)، وفي عام (١٨٤٣م) كانت هناك مراسلاتٌ تُوصِي بضرورةِ إجراءِ عمليّةِ ترميم جديدةٍ وإصلاحاتٍ، وحتى عام (١٨٦٩م) كانت المستشفى تابعةً لإدارةِ الأوقافِ، ثم تحوّل بعد هذا العام ليكون مخصّصًا تحت تصرُّف مديريّة الشرطةِ، وظل يُستخدم "سِجْنا نسائيًا" إلى أن حُوّل إلى مستشفى خاصّ بالنساء لاحقًا(١٧٩).

ظلَّ مشفى الوقف بعد ذلك أحدَ عشرَ عامًا تابعًا لإدارة مديريّةِ الشرطةِ، وكان يَتِمُّ مداواةُ المريضاتِ هناك من قِبَلِ أطباءِ الشرطةِ، وأحيانًا كان يتمُّ فتحُ قسمِ العياداتِ من أجلِ المريضاتِ اللاتي يفِدْنَ من الخارجِ، والخلاصةُ أن مشفى الوقفِ أصبحَ بعيدًا كلَّ البعدِ عن مهمّتِهِ الأصليّةِ التي تمّ تحديدُها في اللائحةِ التي تُنَظِّمُ عملَ الوقفِ.

وفي آذار/مارس من عام (١٨٨٠م) تمَّ نقلُ إدارةِ مشفى الوقفِ وعُهِدَ بها إلى البلديَّةِ، كما تمَّ نقلُ النساءِ المريضات والمحكوم عليهِنَّ إلى مشفى النساءِ الجديدِ الذي أصبحَ مكانُهُ في منطقةِ "السلطانِ أحمد".

وفي هذا التاريخ وبسببِ ضيقِ المكانِ والحالةِ المتردِّيَةِ التي وصلَ إليها مشفى الوقف، فقد تمَّ الإعدادُ لتأسيسِ مشفًى جديدٍ، ولذلك فقد

(١٧٩) في ذلك الوقت كانت هذه المستشفى تعرف بين الناس باسم (زندان خَاصَكي).

أُمِّمَتْ عِدَّةُ بناياتٍ مجاورةٍ للمشفى وخُصِّصَتْ لتكونَ جزءًا منه، وفي عام (١٨٨٥م) قامت البلديَّةُ بشراءِ قصرِ "مورالي (*Moralı*) علي شفيق بك" وتمَّ ضمُّه هو الآخرُ إلى المشفى، وبهذا الشكل فقد ارتفعتِ الطاقةُ الاستيعابيَّةُ لمشفى الوقفِ لتصلَ إلى مائة سريرٍ، وفيما بعد فقد انضمَّ أيضًا إلى مساحةِ المشفى قصرُ "صالح باشا". (١٨٠)

خمسةٌ وثلاثون عامًا في إدارة الشؤونِ الدينيَّةِ

تمَّ في عام (١٨٨٤م) افتتاحُ المشفى الجديدِ، وبعد أن تمَّ الانتهاءُ من التعديلاتِ التي بدأت في عام (١٨٨٣م) جرى البدءُ في نقلِ المرضى إلى المستشفى الجديدةِ، وأما المشفى القديم فقد أصبحَ خاويًا تمامًا من وجود أيِّ شخصٍ.

وفي عام (١٩٤٦م) رُمِّم مشفى الوقف، وأُعِيدَ إلى الخدمةِ من جديدٍ في صورةِ عيادةٍ طبِّيَّةٍ، وفي عام (١٩٦٣م) تمَّ البَدْءُ في عمليَّةِ إصلاحٍ وترميمٍ للمشفى امتدت أحدَ عشرَ عامًا إلى أن تمَّ الانتهاءُ منها بالكامل عام (١٩٤٧م)، وقد شملتْ هذه الاصلاحاتُ كلَّ أنحاءِ المجمَّعِ، وبناءً على الاتفاقيَّةِ التي وُقِّعَتْ بين المديريَّةِ العامَّةِ للأوقاف و" كلوب مديترينيان (*Club Mediterraineen*)" فقد تمَّ إجراءُ عمليَّةِ ترميمٍ وإصلاحاتٍ جديدةٍ على كلِّ أجزاءِ المجمَّعِ باستثناءِ الجامعِ وذلك بهدفِ استخدامِها لأغراضٍ سياحيَّةٍ، ولكن وبسببِ ردودِ الفعلِ الواسعةِ التي صدرت على الأخصِّ من سُكَّانِ المنطقةِ فقد عدَلَتِ الأوقافُ عن قرارِها وقامت بتخصيصِ المجمَّعِ ليكونَ تحتَ إدارةِ رئاسةِ الشؤون الدينيَّةِ من أجلِ استخدامِهِ في صورةِ "مركزٍ تعليميٍّ للخدمةِ العامَّةِ"، واعتبارًا من يوم العشرين من كانون

(١٨٠) نُورَانْ يِلْدِيرِمْ، "مستشفى ومستوصف خَاصَكِي"، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول -٢٠٠٣م، الجزء الرابع، ص ٢.

الثاني/يناير من عام (١٩٧٦م) فقد تمَّ البَدْءُ في تنظيمِ دوراتٍ تعليميّةٍ مِهنيّـةٍ للوُعَّاظِ والمُفتين في البنايات التابعةِ للمجمّعِ والذي أصبحَ يلعبُ دورًا كبيرًا في هذا المجالِ تحتَ اسم "مركز خَاصَكِي التعليمي الخاصّ بإسطنبول التابع لرئاسةِ الشؤون الدينيّةِ". (١٨١)

وفي العام (٢٠١٠م) أصبحَ "مجمَّع خَاصَكِي" خاويًا حيث تمَ نقلُ المركز التعليميّ منه إلى بنايةٍ جديدةٍ في منطقة "بنديك (*Pendik*)" في إسطنبول، وأصبحَ "مجمّع خَاصَكِي" يقِفُ منتظرًا أن تحدِّدَ المديريَّةُ العامَّةُ للأوقافِ الجهةَ الجديدةَ التي سيكونُ الوقفُ تابعًا لها.

حمامُ "خَاصَكِي" الكائنُ في منطقةِ السلطانِ أحمد

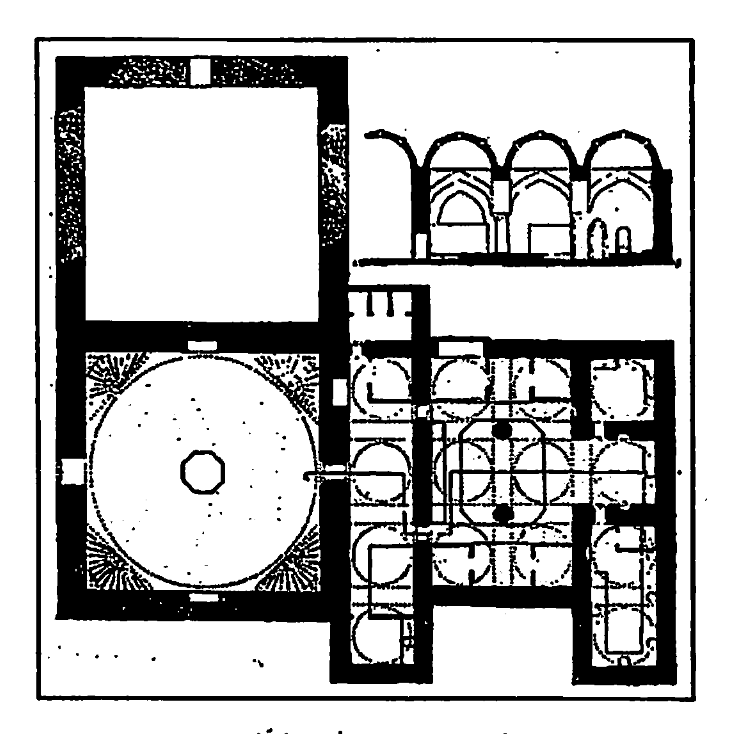
من الآثار التي أمرت "السلطانة خُرَّم" بتشييدِها في إسطنبول حمامٌ رائعٌ يقعُ في ميدانِ "السلطان أحمد" حيث يُعْرَفُ هذا الحمام باسم حمامِ "أياصوفيا" أو حمام "خَاصَكِي"، ويُفهَمُ من الكتابةِ الموجودةِ على هذا الأثرِ التاريخيِّ الذي نراهُ في الناحيَةِ الجنوبيّةِ من "أياصوفيا" والذي صُمِّمَ من قِبَلِ المعماريِّ "سِنَان" أنَّ عامَ إنشائِهِ يعودُ إلى سنةِ (١٥٥٦م/٩٦٤هـ)(١٨٢).

إنَّ هذا الحمامَ المُزْدَوَجَ الذي يُعتَبَرُ من أكبرِ الحمَّاماتِ العثمانيَّةِ في إسطنبول تمَ تشييدُه في المكان الواقعِ بين جامعَي "أياصوفيا" و"السلطان أحمد" بسببِ ضيق المساحة المجاورةِ لجامعِ "أياصوفيا" وأيضًا بسببِ عدم إمكانيَّةِ إنشاء حمَّامٍ آخرَ بالقربِ منه.

لقد صُمِّمَ المبنى على هيئةِ حمّامٍ مزدوجٍ، ويمتدُّ بشكلٍ مستقيم من الشمالِ إلى الجنوبِ، وأحدُ قِسْمَيْ الحمام -المماثلين لبعضِهما البعضِ

(١٨١) سَنا دُوغان، المصدر السابق، ص ٣٧٢.

(١٨٢) م. بَاهَا طَانْمَانْ (*Tanman*)، "حمام خَاصَكِي"، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، ٢٠٠٣م. الجزء الرابع، ص ٤.



مخطط "حمام خَاصَكِي السلطانة خُرّم" خَطّهُ *Heinrich Glück*



باستثناءِ بعضِ التفاصيل- مُخصَّصٌ للرجال وهو الموجودُ في ناحيةِ جامِع "أياصوفيا"، أما الآخر فهو مخصّصٌ للنساء وهو الموجود في ناحيةِ جامِع "السلطان أحمد"، وفي الجزءِ الشماليّ من القسمِ الخاصِّ بالرجال الذي يأخُذُ مدخلُه شكلَ جامعٍ نجدُ هناك رواقًا مؤلفًا من خمسِ وحداتٍ، وهو ما لا نراه موجودًا على الإطلاقِ في الحماماتِ الأخرى(١٨٣).

وتحتَ "البسملةِ" التي نجدُها مكتوبةً على بابِ مدخَلِ القسمِ الخاصِّ بالرجالِ نجدُ أبياتًا من الشِّعْرِ يعودُ تاريخُها إلى عام (٩٦٤هـ) تُنسبُ إلى شاعرٍ لقبُهُ خدائي (*Hüdâi*)".

"لو كنتَ ترجو رؤيةَ جنةِ الفردوسِ والرضوانِ،
فتعالَ إلى حمامِ السلطان لتتنزَّهَ وتجدَ الصفاءَ.
فمن داخلِ النهر الجاري يخرجُ السلسبيلُ ونهرُ الكوثرِ،
وألحانُ هذا الماءِ للشاربِ هيَ ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾
عندما دخل "خدائي" إليه شاهدَ حديقةَ جنةِ عدنٍ في الحال
لقد حكى التاريخُ عنه أنه حمامُ الجنةِ السلطانيّ الأبديّ(١٨٤)

نوافيرُ على شكلِ الحِيتان

يذكرُ لنا الرحالةُ "أوليا جلبي" أن حمامَ "خَاصَكِي" الذي كانَ يُعتبرُ حمامًا لأعيانِ وأشرافِ القومِ، والذي كان يُعَدُّ أيضًا من أكبرِ وأجملِ حماماتِ السوقِ بإسطنبولَ، كان قد أُنشِئَ من أجلِ تأمينِ وتوفيرِ النفقاتِ التي تحتاجُها أوقافُ "السلطانة خُرَّم".

(١٨٣) طانْمان، المصدر السابق، ص ٤.
(١٨٤) أحمد آقْكُونْدُوز (*Akgündüz*) - سعيد أوزتورك (*Öztürk*)، "جامع آيا صوفيا من الكنيسة إلى المتحف"، إسطنبول، ٢٠٠٦م، ص ١٥٦

وقد كانت توجدُ-سابقًا- في وسطِ القسمِ الخاصّ بالرجالِ ميضأة في ساحتِها ثلاثُ نوافيرَ كلٌّ منها على شكلِ الحيتان، يفيضُ منها الماءُ في حوضِ رخامٍ مُجزًّإ إلى شرائحَ، وقد كانت هذه النافورةُ الفريدةُ -التي من المحتملِ أنها جُلِبَتْ غنيمةً من الغربِ- مصونةً ومحفوظةً إلى أن تنتهي عمليّةُ ترميمِ الحمامِ التي أجرِيَت عام (١٩٨٦م) لِتُعادَ إلى مكانِهَا وسطَ الحوضِ من جديد(١٨٥).

أما أهمُّ ما يميّزُ القسمَ الخاصّ بالنساءِ من الحمامِ عن القسمِ الخاصّ بالرجال هو كونُ مدخلِهِ متَّجِهًا نحو الجهةِ الغربيَّةِ، كما أنَّ هذا القِسْم قد صُمِّمَ بحيث يكون بدون رواقٍ، إن الفسيفساءَ الحجريَّةَ الملوّنةَ الموجودةَ في مصاطبِ التدليكِ، والأعمدةَ الرخاميّةَ الخلَّابَةَ والأحواضَ التي تعكِسُ ملامِحَ الأسلوبِ الكلاسيكيِّ تُبَيِّنُ وتُوضِّحُ لنا خصائِصَ حمام "خَاصَكِي" الفريدةَ والتي استطاعت أن تحافظَ على رونقِها وتبقى إلى يومِنا هذا. (١٨٦)

حمامُ تحوَّلَ إلى خزانٍ للبنزين

لقد ظلَّ الحمامُ قابعًا في قلبِ منطقةٍ سكنيّةٍ مزدحمةٍ حتى حدث حريقُ "إسحق باشا" الذي وقع عام (١٩١٣م)، حيث أصبح الحمام في أسوإِ حالاتِه وأيامِهِ خصوصًا بعدَ الحريقِ، وبحلول عامي (١٩١٦-١٩١٧م) تمَّ البدءُ في إجراءِ مجموعةٍ من التعديلات بعد أن طُرِحَت فِكرةُ تحويلِ الحمامِ إلى متحفٍ، فتمَّ فتحُ ممرٍّ في الحائطِ الذي كان يفصِلُ قسمَ الرجالِ عن قسمِ النساءِ، كما جُدِّدَ الرواقُ الموجودُ في مدخلِ قسمِ الرجالِ، لكن فيما بعدُ تمَّ التخلِّي عن فكرةِ تحويلِ الحمامِ إلى متحفٍ. (١٨٧)

(١٨٥) سَمَاوِي أَيِجَه (*Semavi Eyice*)، "حمام خَاصَكِي"، إسطنبول، ١٩٩١م، الجزء الرابع، ص ٢١١.

(١٨٦) طَانْمَانْ، المصدر السابق، ص ٤.

(١٨٧) أَيِجَه، المصدر السابق، ص ٢١١.

وقـد كانـت هناكَ فكرةٌ لهدمِ حمامِ "خَاصَكِـي" في عصرِ الجمهوريّةِ، إلا أنّـه نَجَـا من تلكَ المحاولةِ، وعلى الرغـمِ من ذلكَ نجدُ أنَّ الحمّامَ قد تعرَّضَ للتخريبِ والدمارِ بسـببِ استخدامِهِ استخداماتٍ غيرِ مناسبةٍ حتى إنَّ أرضيّاتِهِ قد دُمِّرَ قسـمٌ منها، وفـي أوّلِ الأمرِ أصبحَ هذا الأثرُ التاريخيُّ مَخْزَنًا للجازِ والبنزين تابعًا للبلديّةِ، ثم تحوَّلَ بعد ذلك إلى مخزنٍ للورقِ تابـعٍ لإحدى المطابـعِ الحكوميّةِ، ووصلَ الأمرُ إلـى أكثر من هذا حيث نجـدُ أنّ الحمـام قـد بلَـغَ بِهِ الحالُ إلـى درجةِ أنه قد صارَ يُسـتخدَمُ لفترةٍ كمخزنِ فحم(١٨٨).

وفـي عـام (١٩٨٨م) نُظِّمَـتْ فـي الحمـام بعـضُ المعـارضِ الفنِّيَّـةِ المعاصِـرَةِ ضمنَ فعاليات "البينالـى (*Bienal*) الفنِّ الدولي" والتي تُقامُ كلَّ سنتين وذلك بعد إجراءِ أكثر من عمليّةِ ترميمِ سابقةٍ في الفترةِ الممتدّةِ من (١٩٥٧م) وحتى (١٩٥٨م).

* * *

إن المبنـى -مبنـى دار الفنـونِ التاريخـيّ- العظيمَ الواقـعَ في القسـم المقابلِ للجِهَةِ الشـرقيّةِ من "أياصوفيا" والذي كان يُسْتَخْدَمُ كدارٍ للقضاءِ، إن ذلـك المبنـى قـد تحولَ إلـى رمادٍ تمامًـا في الحريق الـذي اندلـع ليلة الرابع من كانون الأول/ديسمبر من عام (١٩٣٣م)، وفي أثناءِ ذلك الحريقِ تمكَّـنَ البنـاءُ المُجاوِرُ وهـو حمَّامُ "خَاصَكِي" من أن ينجُـوَ من خطرٍ كبيرٍ كادَ أن يصيبَـهُ هـو الآخر، فقد تمكَّـنَ رجالُ الإطفاءِ فـي اللحظةِ الأخيرةِ من إنقاذِ هذا الحمامِ قبل أن يصِلَهُ الحريق، حيثُ تسـنَّى لهم واسـتطاعوا إخـلاءَ المـكانِ من الموادِ المشـتعلةِ كالبنزينِ والجازِ والتـي كانت تُخَزَّنُ في ذلك الوقتِ بالحمام(١٨٩).

---

(١٨٨) أيجه، المصدر السابق، ص ٢١١.

(١٨٩) إلخان آقجاني، " جامع أياصوفيا "، أنقرة – ١٩٦٨م، ص ١٠١.

إن حمامَ "خَاصَكِي" يُعتبَرُ من الآثارِ الهامَّةِ التي خلَّفها لنا تاريخ العمارة العثمانيّ، حيث يُعتبر هذا الحمّامُ في نوعِهِ من أعظمِ الآثارِ التي شيَّدها المعماريُّ "سِنَان" ويُعَدُّ بجدارةٍ رمزًا حقيقيًّا لفنِّ العمارةِ العثمانيَّةِ.

دار "خَاصَكِي" لإطعامِ المحتاجينَ في القدسِ الشريف

لقد تمكّنَتْ "السلطانة خُرَّم" التي تعتبر من أقوى نساءِ الدولةِ العثمانيّةِ العليّةِ في القرنِ السادسَ عشرَ من بناءِ مُجَمَّعٍ خيريٍّ في مدينةِ القدسِ الشريف إلى جانبِ مكَّةَ المكرَّمة والمدينةِ المنوّرة.

ويتألَّفُ هذا المُجمَّعُ من جامعٍ وخانٍ للقوافلِ ودارٍ لإطعامِ المحتاجينَ ملحقٍ بها خمسٌ وخمسون غرفةً.

وبالإضافةِ إلى القسمِ الرئيسِ من دارِ إطعامِ المحتاجين والمحاطِ بالجدرانِ فقد كان هناك أيضًا سلسلةٌ من البناياتِ الموجودةِ ضمنَ المُجَمَّعِ الخيريِّ والتي شَملتِ المطبخَ والفرنَ وبيتَ المونَةِ ومخزنَ المعدَّاتِ ومخزنَ الفحْمِ وقاعةَ الأكلِ ودوراتِ المياهِ إلى جانبِ الخانِ والاسْطَبْلِ(١٩٠).

* * *

تقعُ دارُ إطعامِ المحتاجين التي بدأَتْ تُقَدِّمُ خدماتِها في القدسِ على شارعٍ يُسمَّى "عقبة الست"، لكنّ اسمَ السيدةِ الذي يُطلَقُ على هذا الشارعِ

(١٩٠) مسجد الوقف ليس من المساجد التي تقام بها صلاة الجمعة، ولكنه أسس من أجل أن يتمكن العاملون بدار إطعام المحتاجين والضيوف الذين يحلون بشكل مؤقت بخان القوافل وكذلك المقيمين في المناطق والأحياء القريبة من أن يقوموا بأداء فروضهم الدينية، أما ما يخصّ خان القوافل فإن هناك معلومات قليلة للغاية تتعلق به، ومن المرجّح أن هذا الخان كان يعمل في إطار من كرم الضيافة التقليدي حيث يقدّم الطعام ومكان الإقامة مجّانًا لمدة أربعة أيام للتجار والحجاج وغيرهم من المسافرين.

لا علاقةَ له بـ"السـلطانة خُرَّم" حيثُ إنَّهُ يعودُ إلى السـيِّدةِ "طنشـق" إحدى سـيِّدات العصـرِ المملوكـيِّ التي شـيَّدَتْ البنايةَ الأولى في تلـك المنطقةِ فـي نهاياتِ القرنِ الرابـعَ عشـر، وعندما فتحَ العثمانيُّونَ القدسَ الشـريف وذلك القصرَ المملوكيَّ الموجودَ بها وجدوا بداخلِ البنايةِ عدَّةَ صالوناتٍ واسـعةٍ إلى جانبِ غُـرَفٍ كثيرةٍ وكذلك بئرَ ماءٍ، بعد ذلـكَ قامَ العثمانيُّونَ بتوسـيعِ تلـك البنايَةِ باتجاهِ الشـرقِ والجنـوبِ، وكي يتمكَّـنَ الوقفُ من تقديـمِ الخدمـةِ المنشـودةِ فقد أُضيفَ إليه سـبيل كبيرٌ نوعًـا ما إلى جانب غُرَفِ الطبْخِ، ومعنى هذا أنّ "السلطانة خُرَّم" لم تأمُرْ هنا بِبناءِ بنايةٍ جديدةٍ تمامًا، وإنما هو تعديل للبناء القديم.

وبعدَ أن بدأَ الوقفُ في تقديمِ خدماتِهِ خُصِّص إيرادُ الكثيرِ من القرى في كلٍّ من "القدسِ" و"غزةَ" إلى جانبِ إيرادِ الحمَّام المزدَوَجِ ليُنفق على احتياجاتِ دار إطعامِ المحتاجين بعد أن تمَّ شراؤُها.

الطعامُ كان يوزَّعُ على المسيحيّين أيضًا

كان عـدد الأشـخاصِ المكتوبة أسـماؤُهم في قائمةِ الأفـرادِ بالوقفِ عـام (١٥٥٧م) -وهـو العـام الذي كُتِبَتْ فيه اللائحةُ التـي تُنَظِّمُ عملَ هذا الوقف- تسعةً وأربعين شخصًا، وقد كانَ لكلِّ واحدٍ من هؤلاءِ الأشخاصِ لقـبٌ وعمـلٌ وراتبٌ محـدَّدٌ ونصيبٌ من الطعـامِ الذي يُطهـى في مطبخِ الوقـفِ، وكان العاملون بهذا الوقفِ مسـؤولينَ جميعًا عـن الأمورِ الماليّةِ المتعلّقـةِ بمتعلّقـات الوقفِ وكذلك الحفاظِ على سـلامةِ مبانيه وتشـغيلِهِ بشكلٍ سليم.

وفي أوائلِ الخمسـينيّاتِ من القرنِ السـادسَ عشَـرَ كان حَسَـاءُ الأرُزِّ والبرغـلِ اللـذان يُطْهَـوَانِ فـي قـدورٍ ضخمةٍ يوزّعـانِ صباحًا ومسـاءً في

دار إطعـامِ المحتاجيـن -أكثـرِ أجنحةِ الوقفِ نشـاطًا- على مـا يقرُبُ من خمسـمائةِ شـخصٍ، وكان الأكلُ اليوميُّ الذي يُوَزَّعُ يتضمَّنُ تقديمَ نوعينِ من الحَسَاءِ مـع الخبزِ يُطبخانِ مَرّةً في الصباحِ وأُخرى في المساءِ.

وكان الـوزنُ المعيـاريُّ المُحدَّدُ لرغيفِ الخبـز -المصنوعِ من القمحِ والملحِ والماءِ- بعد أن يخرجَ من الفرنِ تسـعينَ درهما(١٩١) وفي المسـاءِ كانـت تُقَـدَّمُ وجبةُ حَسـاءِ البرغـلِ الذي يُطهـى بإضافةِ الزبـدةِ والحمُّصِ والبصلِ والملحِ والكمُّون والكوسا- وقد يتوفّرُ نوعٌ آخرُ من الخضروات حسبَ الموسِمِ- والزبادي والليمون أو الفلفل الأسود، أما في المناسباتِ الخاصَّةِ فقد كانتِ الموائدُ العامرةُ تُقامُ للجميـع. (١٩٢)

وبناءً على ما ذُكِرَ في لائحةِ الوقفِ والتي تَعودُ إلى عام (١٥٥٧م) فقد كان يُشـتَرَطُ في يومِ عاشـوراءَ أن يتِمَّ إعدادُ شـورَبَةٍ تملأُ أربعة قُدُورٍ مـع استعمالِ كلِّ الموادِ اللازمةِ والضروريَّةِ من أجلِ إعدادِ الطعامِ،(١٩٣) وحيث إن الأكلَ كان يخرجُ من مطبخِ دارِ إطعامِ المحتاجينَ مرتينِ في اليوم فقد كانَ عددُ مَنْ تُصْرَفُ لهم وجباتُ الطعامِ يُقاربُ الخمسَمائةِ شخصٍ، وهذا العدَدُ يشـملُ المقيمينَ في خانِ القوافِلِ الذي يضمُّ خمسًا وخمسين غرفةً إلى جانبِ العاملينَ في الوقفِ هذا بالإضافةِ إلى أربعمائةِ فقيرٍ ومحتاجٍ.

لقـد كانَ هنـاكَ الكثيـرُ ممَّـنْ يتـردَّدُونَ علـى دار "خَاصَكِـي" لإطعامِ المحتاجيـن، وأيًـا كانَ نوعُ الناسِ الذين يَفِدُونَ علـى الدارِ ويَدُقُّونَ البابَ

(١٩١) حيث إن كل درهم كان يزن حوالي ثلاثة جرامات، فإن كل رغيف كان يخبز من كمية عجين تزن ما يوازي مائتين وسبعين جرامًا.

(١٩٢) كان ذلك في الليالي والأيام الخاصة مثل ليالي الجمعة "الليالي التي تصل يوم الخميس بالجمعة" وشهر رمضان وأمسيات الليالي المقدسة وأعياد الفطر والأضحى، في تلك المناسبات كان يقدم الخبز كما هو الحال في باقي الأيام لكن بدلًا من الشوربة كان يقدّم نوع من الحلوى يسمى "زردة" إلى جانب خبز على هيئة حبّات، ومهما كانت مكانة الضيف فقد كانت توضع هذه الأكلات التي ينتظرها كل الوافدين على كل الموائد.

(١٩٣) أمي سنجر (Amy Singer)، الأعمال الخيرية في العصر العثماني، إسطنبول، ٢٠٠٤م، ص ٦٩-٧١.

فقـد كانَ هنـاك بالطبـعِ فائضًا من الأطعمـةِ المجهَّزةِ والمُعَـدَّةِ في انتظارِ مَـنْ سـيأتي، لقـد كانَ يتـمُّ عملُ كلِّ مـا يلـزمُ، بحيـثُ إن المحتاجينَ لـم يكونـوا يخرجون أبدًا جَوعَى من دارِ "السـلطانة خُرَّم" المخصَّصَةِ لإطعامِ المحتاجيـن، إذ كان يُخشـى مـن أن يتسـاءَلَ المحتاجـونَ: "ألا تسـتطيـعُ السلطانةُ أن تُساعِدَ الجميـعَ؟".

في الأعوامِ اللّاحقةِ استمرَّتْ أيضًا تلك الدارُ في الأعمالِ الخيريَّةِ دون توقُّـفٍ، فمثلًا يذكرُ أحَدُ الرحالةِ الفرنسـيِّينَ ويُدعى "موريسـون (*Antoine Morison*)" ما شاهده عام (١٧٠٥م) قائلًا:

> "لقـد كان يُقـدَّمُ كلَّ يـومٍ ولكلِّ فقيـرٍ يأتي إلى هنـاك حواليَ نصـفُ كيلـو من الخبـزِ بالإضافةِ إلـى زيتِ الزيتـون وصحنٍ من الشـوربةِ المطهوَّةِ مع بعـض الخضرواتِ والتي كانـت تُجَهَّزُ في قدورٍ عملاقةٍ لم نرَ لها مثيلًا من قبلُ ". (١٩٤)

ويذكُـرُ نفـسُ الرحالـةِ الفرنسـيِّ أنَّ الطعـامَ كانَ يُوَزَّعُ فـي دارِ إطعام المحتاجين بشكلٍ متساوٍ سواءٌ أكان ذلك للمسلمين أو المسيحيِّين ومعنى هذا الكلام أنَّ المسيحيِّين أيضًا لم يُسْتَثْنَوا من لائحةِ الوقف(١٩٥).

* * *

وعلـى الرغم من مـرورِ أربعمائة وأربعةٍ وخمسـين عامًا على تشـييدِ هـذا البناء الذي يُعرَفُ بين الناسِ باسـم دارِ السـلطانة "خَاصَكِي" لإطعام المحتاجيـن أو "التَّكِيَّـةِ"، إلا أننا لا نزالُ حتى اليوم نرى هذا الصرحَ واقفًا علـى قدميـهِ في قلـبِ مدينةِ "القـدس" القديمـةِ التي تُحيطُ بها الأسـوارُ، وابتداءً من الأعوامِ التي تَلَتْ عام (١٩٢٠م) وحتى يومِنا هذا فقد تحوَّلت

(١٩٤) سنجر، المصدر السابق، ص ٣.

(١٩٥) سنجر، المصدر السابق، ص ٨٩.

دار "خَاصَكِي" لإطعامِ المحتاجين إلى "دار الأيتام الإسلامية لتعليم المِهَنِ والمهارات"[١٩٦] وعلى الرغم من حدوثِ هذا التحوُّلِ إلا أنَّ توزيعَ الطعامِ قد استمرَّ حتى إن اليونسكو (*UNESCO*) أيضًا في الأعوام التي تَلَتْ عام (١٩٥٠م) قد قامت بتوزيعِ الطعامِ في نفسِ المكانِ، وما زال حتى اليوم يتمُّ وبشكلٍ يوميّ توزيعُ الطعامِ على المحتاجين في دارِ الأيتام[١٩٧].

---

(١٩٦) كانت "دار الأيتام الإسلامية لتعليم المهن والمهارات" حيث كانوا يتعلمون فيها الحرف الصناعية...

(١٩٧) يوسف أفندي ناتشي (*Natshe*)، "الأثر العظيم، ذكرياتي مع دار السلطانة خاصكي لإطعام المحتاجين (*My Memories of Khassaki Sultan or The The Flourishing Edifice*)"، القدس، ٢٠٠٠م، ص ٧.

كلُّ مخلوقٍ لا ريبَ أنَّهُ يفنى،

وكلُّ متسامحٍ في الآخرة لا يندمُ .

سيذهبُ الجميعُ ولا أحد على وجهِ الأرضِ يبقى،

لأنَّ الأجَلَ لا محالةَ آتٍ.

فلا باقيَ إلا الله عزَّ وجلَّ.

"السلطانة مِهرِمَاهْ"



"السلطانة مهرماه"

انتهـت أيـام الشـتاءِ البـاردةِ وهـدأتِ الرياحُ الشـتويّةُ العاصفـةُ، وقد تسـاقطتْ أوراقُ الأشـجارِ اليابسـةُ الصفراءُ علـى الأرضِ حتـى تَبَعْثَرَتْ واختَفَتْ، وبدأتِ الحياةُ تسـتأنِفُ مسـارَها من جديدٍ، بعـدَ أن هلَّ الربيـعُ وبدأ يكسو وجهَ الأرضِ وأغصانَ الأشجارِ ثوبًا جذابًا أخضر.

نشـأت "مِهْرِمَاهْ" الجميلـةُ وترعْرَعَتْ في غُرَفِ الحريـمِ الفخمةِ كابنةٍ وحيدةٍ للسلطان و"خُرَّم"، إنها تقفُ الآنَ في إحدى النوافِذِ ذاتِ الأقواس الحجريّـة الحـادَّةِ بالقصرِ المزيَّنِ بالخَـزَفِ الفيروزيّ وقد أخـذَتْ تُراقِبُ بحرصٍ آفاقَ الموجاتِ البعيدةِ التي لا تَصِلُ إلى الساحل.

كانـت الأميرةُ محبوبةً جدًّا من والدِها وكان يلبّي لها كلَّ طلباتِها، فها قدْ بلغتِ الأميرةُ "مهرماه" سـنَّ السـابعة عشرَ، وقد امتازت بحسّ مرهفٍ، ونالت حظًّا وافِرًا من التعليمِ ...

لقـد كان القلـبُ الرقيقُ لهـذه الفتاةِ اللطيفةِ مضطربًـا وخفّاقًا ومنتظرًا للأخبـارِ السـعيدةِ مـن "ديار بكر"، لقد امتـلأ قلبها بالمشـاعر التي تفيض أحيانًـا علـى شـفتيها لتُنشِـدَ قصائـدَ من الشِّـعْرِ أشـبهَ ما تكـون بالألحانِ الموسيقيَّةِ التي تأسِر الأسماع .

* * *

لقد قرَّرَ والدُها "السلطانُ القانونيُّ" مع أمِّها "خُرَّم" أن يختاروا "رستم باشا" والي "ديار بكر" عريسًا لابنتهم الحبيبة "مِهْرِمَاهْ".... فهل يا ترى سيحظى "رستم باشا" بما يطمحُ إليه، وهل يا ترى ستُشْرِقُ شمسُ السعادةِ على قلبِ "مِهْرِمَاهْ" ؟

* * *

لا نستطيع أن نحدِّد على وجه الدقَّة التاريخَ الذي وُلدت فيه "السلطانة مِهْرِمَاهْ" الابنةُ الوحيدة للقانونيّ و"خُرَّم"، إلا أنه يمكن الوصولُ إلى تاريخِ ميلادِها من خلالِ معرفتِنا بتاريخِ الزفافِ الذي يُفهَم منه أنَّ تاريخَ مولِدِها يوافق عام (١٥٢٢م)(١٩٨).

صادف اليوم الذي ولدت فيه "مِهْرِمَاهْ" السنة الثانية من حكم "سليمان القانونيّ" واعتبارًا من هذا اليوم أطلقَ عليها والدها اسمًا مثيرًا وهو "مِهْرِمَاهْ" كعلامةٍ على حبِّه الشديدِ لها. وتعني كلمة "ماه" في اللغة الفارسية القمرَ و"مِهْر" الشمس. ومن المحتمل أن السلطانة "مِهْرِمَاهْ" قد لُقِّبَتْ بهذا الاسمِ لجمالِها.

لقد حظيت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" بحبٍّ وحنانٍ وافرٍ نظرًا لأنها كانت ابنةَ السلطان الوحيدة التي بقيت على قيدِ الحياة من بين أخواتها فتلقَّتْ تعليمًا جيِّدًا في القصرِ وأُحيطَتْ بالرعايةِ أثناءَ نشأتِها.

ويُفْهَمُ من الأسلوبِ المُمَيَّزِ الذي نَجِدُه في الخطاباتِ التي تعودُ إلى "السلطانة مِهْرِمَاهْ" أنَّها كانت تجيدُ المناظرةَ والنقاشَ والكتابة، وأنها كانت غايةً في الذكاءِ والعلمِ، كما أنَّها كانتْ تُشبِهُ أمَّها في كثيرٍ من حركاتها وسكناتها وتصرُّفاتها وأسلوبها. (١٩٩)

(١٩٨) أولوجاي، نساء وبنات السلاطين، أنقرة، ١٩٨٠م، ص ٣٨.

(١٩٩) أولوجاي، نساء وبنات السلاطين، أنقرة، ١٩٨٠م، ص ٣٩.

لقد كان السلطان سليمان يضْعُفُ أمامَها لدرجةِ أنه كان يلبِّي لها كلَّ طلباتِها في الحالِ، أما "السلطانة خُرَّم" والتي كانت تعلمُ جيِّدًا مدى تأثيرِ "مِهْرِمَاهْ" على السلطان فنجدها تتوسّل إلى السلطان وترجّاه بمكانةِ مهرماه عنده في سبيلِ تحقيقِ مطالِبِها ومن ذلك ما وجدناه في إحدى خطاباتها إلى السلطان حيث تقول:

"سلطاني أرجوكَ بمكانةِ كريمتِكَ "مِهْرِمَاهْ" عندك أن...".

ويمكنُ اعتبارُ هذا العمل من جانبِ السلطانة "خَاصَكِي" دليلٌ على مقدارِ المحبَّةِ والشفقةِ التي كان القانونيُّ يمنحُها لابنته "مهرماه"[٢٠٠].

لقد حافظت "مِهْرِمَاهْ" من جانِبِها وحتى الموتِ على هذه العلاقةِ والمحبَّةِ التي كانَ يُكِنُّها والدُها تجاهَها، كما استطاعت حتى النهايةِ أن تحافِظَ على تأثيرِها الكبيرِ ونفوذِها عند السلطان.

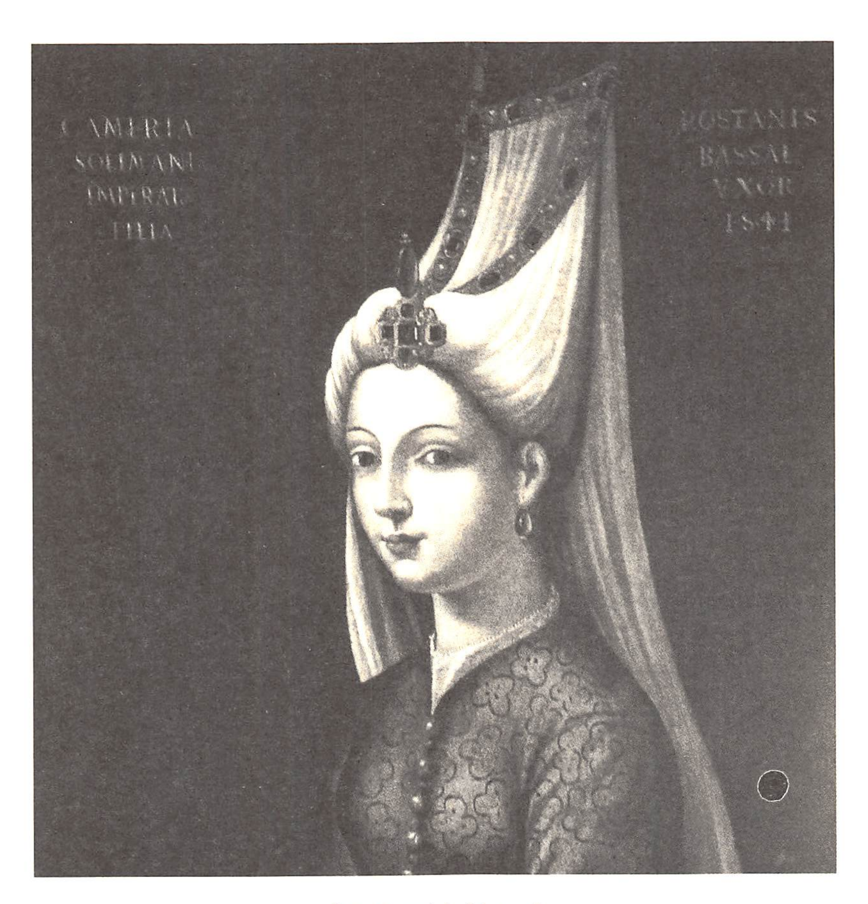
* * *

ولا تزالُ توجدُ حتى اليوم لوحةٌ للسلطانة "مِهْرِمَاهْ" ثلاثيّةُ الاتجاهاتِ معروضةٌ في متحفِ "بازوفيا (*Mazovia*)" في مدينةِ "بلوك (*Plock*)"[٢٠١] البولنديّة، وقد صُنِعَت تلك الصورةُ على لوحٍ من خشبِ شجرةِ الزيزفون ذي الرائِحَةِ العطِرة حيث يظهرُ أنها لوحةٌ زيتيّةٌ قد رُسِمَت بأسلوبِ "تمبرا (*tempera*)" في الرسم، أما أبعاد اللوحة فهي ٩٧ X ٦٨,٧ سم، وبالنسبة للرسام فهو غير معروف،[٢٠٢] وتبدو "مِهْرِمَاهْ" في الصورة وهي ترتدي

(٢٠٠) أولوجاني، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول – ٢٠٠١م، ص ٦٦.

(٢٠١) مدينة تاريخية تقع على ساحل "فيسكول" في الشمال الشرقي من بولندا.

(٢٠٢) هذا اللوحة كانت ملكًا حتى الحرب العالمية الأولى لعائلة "زيميا ميريسكالى سلزنيا" ثم أصبحت في عهدة عائلة "رادزويل" بمدينة "زجره" بالقرب من "وارسو"، وقد سعت هذه العائلة إلى أن تستعيد هذه اللوحة من يد الألمان الذين استولوا عليها في الحرب العالمية الثانية إلى أن انتهى بها الأمر إلى أن تكون لدى جمعية "بلوك" العلمية ثم إلى متحف "بلوك مازوفيا" بعد ذلك.



لوحة "السلطانة مِهْرِمَاهْ"

رداءً أحمر مزيّنًا بزهرةٍ ذاتِ أربعِ أوراقٍ تيجانيّةِ الشكل،[٢٠٣] خلفيّةُ اللوحةِ سوداءُ اللونِ ومكتوبٌ على القسمِ العلويّ منها على اليسار بحروفٍ لاتينيّةٍ" CAMARIA SOLIMA/İMP TUR/FILIA/ROSTANIS BASSAE/UXSOR/1541 ".
فقد كانت السلطانةُ تُعرَفُ في أوروبّا باسمِ "كاماريا (*Camaria*)"[٢٠٤].

قَملة تشكل المستقبل[٢٠٥]

عندما وصلت السلطانةُ إلى سنِّ السابعة عشر بدأ البحثُ عن زوجٍ مناسِبٍ لها، ينبغي أن يكونَ هذا الزوجُ شخصًا يجمعُ بين معرفتهِ بآدابِ القصرِ إلى جانب وفرةِ العلم وعظمةِ القوّةِ، فكان "رستم باشا"[٢٠٦] -حاكمُ "ديار بكر" الذي يعرفُ جيّدًا بآدابِ القصرِ، والذي درسَ في "أندرون"- من أكثرِ الشخصيّاتِ المناسِبَةِ لهذا الأمر.

كان "رستم باشا" بعد أن تلقى تعليمه في "أندرون" قد عُين ليعمل في الاسطبلِ الخاصِّ بالسلطانِ ثم التحقَ بعدَها بالجيشِ في حملةِ "موهاج"

(٢٠٣) نظرا لوضع الحريم في ذلك العصر فإنه لم يكن من الممكن أن تقف "السلطانة خُرّم" كموديل أمام الرسام لكي يرسم لها لوحة.

(٢٠٤) سَلْمِينْ كَنْجَالْ (*Selmin Kangal*)، الحرب والسلام، العلاقات البولندية العثمانية في الفترة من القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر، مجلة الأوقاف، عدد خاص، أنقرة - ٢٠٠٦م، ص ١١٠).

(٢٠٥) لما انتشر خبر مصاهرة "رستم باشا" بالسلطان لم يتحمل منافسوه ذلك، وادعوا أن رستم باشا مصاب بالجذام، فبعث السلطان سليمان طبيبه الخاص لفحص الباشا، فوجد الطبيب أثناء الفحص قملةً في قميص الباشا، وكان من المعترف به في علم الطبّ آنذاك أن القملة لا يمكنها أن تستقر على جسد من أصيب بالجذام، وعلى ذلك سمح للباشا أن يتزوّج ابنة السلطان.

(٢٠٦) ولد "رستم باشا" أوائل القرن الخامس عشر (١٥٠٥-١٥٠٦م) وذلك في إحدى القرى الواقعة إلى الغرب من "سراييفو" و"بوتومير" بالقرب من "سراييفو"، ويروى عن عائلته أنها كانت تحمل لقب "تشيجاليتش"، أما عن أصله فيرجح أنه كان ألبانيًا أو صربيًا أو بوسنيًا أو كرواتيًا، وقد ترك "رستم" سيّدَه الغني الذي كان قد اشتراه وانتقل إلى قصر سيّدٍ جديدٍ آخر بمنطقة "جلطه" في إسطنبول مقابل دينٍ كان مستحقًا على سيده القديم، وقد نجح "رستم" الذي كان يقوم بخدمة سيده الجديد وفي خلال فترة وجيزة في أن يلفت الأنظار إليه بفضل مهارته وموهبته، وهو ما كان السبب في إرساله إلى قصر " طوب قابي " ليكون من عبيد السلطان. (أَرْهَانْ أَفْيُونْجُو (*Erhan Afyoncu*)، "رستم باشا"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - ١٩٩٨م، الجزء الخامس والثلاثون، ص ٢٨٨).

عـام (١٥٢٦م) حيـث عمل في وظيفـة "سـلحدار (*silahdar*)"(٢٠٧)، وعند انتهـاءِ الحملـةِ وقبَيْلَ عودةِ السـلطانِ "القانونيّ" إلى عاصمـةِ الدولةِ بيومٍ واحدٍ أُرسِـلَ ليعملَ سائسًـا لخيولِ القصرِ(٢٠٨) وذلك في الثاني عشـر من تشـرين الثاني/نوفمبر عام (١٥٢٦م)، وفي عام (١٥٣٦م) عُيِّنَ ليكونَ أميرَ الأمـراءِ في "دولقادر" ثـم بعد ذلك عُيِّنَ في ولايةِ "كارامان" ثم من بعدها انتقلَ إلى "ديار بكر" ليُصبِحَ أميرَ الأمراء هناك. (٢٠٩)

لقد كان العريسُ المرشَّـح "رستم باشـا" رجلًا عسكريًّا يتمتَّعُ بحُنكةٍ وخِبرةٍ عاليةٍ رغم أنه ليسَ وسـيم الشـكلِ والمَظهَرِ، وكما تروي لنا بعضُ المصادرِ العثمانيّةِ فقد كانت هناك شـائعاتٌ انتشـرتْ على لسـان منافسي "رسـتم باشا" عن أنه مصابٌ بمرضِ الجذام،(٢١٠) لهذا فقد أرسلَ السلطان "القانونـيُّ" واحدًا من أَطِبّائِه وهـو "محمد أغا" إلى "ديار بكر" لكي يتثبَّتَ بنفسِهِ من حقيقةِ هذه الشائعاتِ. (٢١١)

صدرًا أعظمَ في سنِّ التاسعةِ والثلاثين

تمَّ عقدُ زواجِ "السـلطانة مِهْرِمَاهْ" على "رسـتم باشـا" وذلك في حفلِ زفافٍ عظيمٍ اسـتمرَّت مراسِـمُهُ خمسةَ عشـرَ يومًا وذلك من يوم الحادي

(٢٠٧) سِلَحْدَار: اصطلاح عثماني يطلق على الموظف المسؤول عن حماية أسلحة وذخائر السلطان والوزير والمحافظة عليها.

(٢٠٨) حيث كان هو الشخص المسؤول عن الخيول والعناية بها في القصر.

(٢٠٩) أَلْتِونْجُو، المصدر السابق، ص ٢٨٨.

(٢١٠) مرض جلدي صعب الشفاء وسريع العدوى يظهر في صورة بُقَعٍ جلديّةٍ تنتشر في عدّة مناطق من جسم الإنسـان.

(٢١١) جَاوِيتْ بَايْسُونْ (*Cavit Baysun*)، " السـلطانة مهر وماه "، وزارة التربية والتعليم، الموسـوعة الاسلامية، إسطنبول – ١٩٦٠م الجزء الثامن، ص ٣٠٧.

عشر إلى السادس والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر من عام (١٥٣٩م)، حيث أُجْرِيَ هذا الاحتفالُ بالتزامنِ مع إجراءِ حفلِ الختانِ للأميرِ "بيازيد" و"الأميرُ جِهَانْجِرْ"، وفي نفس الوقتِ ومع إجراءاتِ ومراسمِ الزواجِ تمَّ ترفيع "رستم باشا" لينالَ رتبةَ وزير.

* * *

كان النظامُ المُتَّبَعُ قبل زواجِ الأميرةِ "مهرماه" أنَّ الأميرةَ حينما تتزوَّجُ تنتقلُ مع زوجِها خارجَ إسطنبول وتتبَعه إلى مكانِ إقامتِهِ، لكنَّ زواجَ السلطانةَ مهرماه قَلَبَ المعادلةَ وألغى العرفَ القديمَ وأَنْشأَ عرفًا جديدًا وتقليدًا بديعًا داخلَ الأسرةِ الحاكمةِ، حيث إن السلطانة خرم وزوجَها القانونيَّ لم يستطيعا تحمُّلَ ألمِ فراقِ ابنتِهِما المدلَّلَة الوحيدةِ، فأقامتِ السلطانةُ مهرماه في إسطنبول وأقامَ معها زوجُها، وأصبحتِ العاداتُ بعدَ ذلك الزواجِ التاريخيِّ أنَّ السلطاناتِ يبقَينَ في إسطنبول ولا يتبعنَ أزواجَهُنَّ خارِجَها[٢١٢].

* * *

لقد انفتحَ طريقُ المجدِ أمامَ "رستم باشا" الذي أصبحَ من خلالِ زواجِهِ بـ"السلطانة مِهْرمَاهْ" قريبًا من الأسرةِ الحاكمةِ، وفي عام (١٥٤١م) وعلى إثرِ عزلِ "لطفي باشا" وتعيينِ "خادم سليمان باشا" مكانَهُ كصدرٍ أعظم فقد تمَّتْ ترقيَةُ "رستم باشا" هو الآخرُ ليُصبِحَ وزيرًا ثانيًا، وفي الفترة من (١٥٤١م) وحتى (١٥٤٣م) والتي ظلَّ فيها "رستم باشا" يعملُ كوزيرٍ ثانٍ للسلطان فقد كان في الوقتِ نفسِهِ مرافقًا للسلطان "سليمان" في حملاتِهِ العسكريَّةِ على المجرِ، كانت خِبْرَةُ وقدرَةُ "رستم باشا" تزدادُ

(٢١٢) نجْدَتْ صَقَا أوغْلُو (Necdet Sakaoğlu)، " السلطانة مِهْرمَاهْ "، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول - ١٩٩٤م، الجزء الخامس، ص ٤٥٣.

كلَّ يومٍ في مجالِ إدارةِ شؤون الدولة وكان لزوجته "السلطانة مِهْرِمَاهْ" دورٌ كبيرٌ في هذا الأمر.

وبحلول أواخرِ عام (١٥٤٤م) وقعتْ حادثةٌ أصبحَ "رستم باشا" على إِثْرِها مهيَّئًا لكي ينالَ أرفعَ درجةٍ في الديوانِ السلطاني، ففي اليوم الثاني من كانون الأول/ديسمبر من عام (١٥٤٤م) وعلى إِثْرِ الشِّجارِ الذي وقع بين الصدرِ الأعظمِ "خادم سليمان باشا"والوزيرِ" دَلِي خُسرو (*Deli Hüsrev*)" فقد أصدرَ السلطانُ أمرًا بعزلِهما من وظائفِهما وتعيينِ "رستم باشا" الذي كان في التاسعةِ والثلاثينَ من عمرِهِ صدرًا أعظمًا[٢١٣].

وكما تذكرُ لنا المصادرُ فقد كان للسلطانة "مِهْرِمَاهْ" و"رستم باشا" بنتٌ اسمُها "عائشة هماشاه (*Hümaşah*)"[٢١٤] وولدانِ مدفونان في ضريح "سنان الدين يوسف باشا" الموجودِ داخل مجمَّعِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" في منطقةِ "أسكودار"[٢١٥].

عزاء لملك بولندا "زيجموند"

لقد كانت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" مملوءةً بالحيويّةِ كأمِّها "خُرَّم" وكانتْ تهتمُّ بأمورِ الدولةِ وشؤونِ السياسةِ الخارجيّةِ، وكانت "مِهْرِمَاهْ" تمتلك من الشجاعة ما يمكِّنها من إرسال خطاباتٍ إلى ملوكِ وحُكَّامِ الدول من حولِها، ومن ذلك خطابها الذي أرسلته إلى ملكِ بولندا "زيجموند أوغسط"

---

(٢١٣) تدعي بعض المصادر أن "رستم باشا" قد دبّر بنفسه هذه الحادثة من أجل أن يمهّد الطريق أمامه لكي يصبح الصدر الأعظم.

(٢١٤) "السلطانة عائشة " زُوجت إلى "سميز أحمد باشا" الذي تولّى منصب الصدر الأعظم ما بين عامي (١٥٧٩-١٥٨٠م).

(٢١٥) بعد أن تزوجت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" من "رستم باشا" أنجبت منه أكثر من ابن، حيث انجبت منه ابنتها السلطانة "عائشة" التي عاشت حتى العشرينات أو الثلاثينات من العمر، كما أنجبت منه ولدين، وقد دفن هؤلاء الأبناء في ضريح موجود بجامع "أسكودار". " (السجل العثماني، الجزء الأول، ص ٨٣).

بمناسبةِ جلوسِهِ على عرشِ بولندا بعد وفاةِ والدِهِ الملك "زيجموند"[٢١٦] الأوَّل عام (١٥٤٨م)، فنجدها ترسل إلى الحكام خطابات تعزيةٍ وتهنئةٍ كأمِّها "خُرَّم"،[٢١٧] وعلى إثر رَدِّ الملكِ بخطابِ شكرٍ على الخطاب الذي أرسلَتْهُ "السلطانة مِهرِمَاه" فقد أرسلت له خطابًا ثانيًا وبعثت له بالهدايا مع رسولٍ خاصٍّ[٢١٨].

* * *

وفي أول الخطاباتِ التي كتبَتْها "السلطانة مِهرِمَاه" إلى ملكِ بولندا نجدها تقول:

"نما إلى علمِنا خبرُ وفاةِ والدِكم، فنحن كلنا عبيدٌ لله تعالى ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أسألُ اللهَ لكم الصبرَ وأن يبارِكَ ملكَكُمْ، آمين... عندما علمْنَا أنكم قد جلستُم على عرشِ بولندا سعِدْنا

(٢١٦) اعتلى "زيجموند (*Zygmund*)" الأخ الصغير لكل من "جان أليبرت (*Jan Albert*)" و"الكسندر (*Alexander*)" عرش بولندا عام (١٥٠٦م) حيث ظل يحكم لمدة اثنين وأربعين عام وحتى وفاته عام (١٥٤٨م)، ومن أجل عدم الخلط بين الملك "زيجموند" وبين ابنه الملك "زيجموند أوغطس" فقد اصطلح على تسميته في التاريخ البولندي باسم "زيجموند العجوز (*Zygmunt Stary*)" وقد تمكنت بولندا في عهد الملك "زيجموند" من أن تحتفظ بعلاقة صداقة مستمرة مع الباب العالي -لدرجة إن هذه العلاقة تمثل حالة فريدة في تاريخ الدبلوماسية العثمانية- وذلك في مقابل ابتعادها عن المسار السياسي الذي كانت تتبعه كل من المجر ومولدوفيا.

(٢١٧) كلمات العزاء التي كتبتها "السلطانة مِهرِمَاه" إلى ملك بولندا نجدها مكتوبة باللون الأسود وبخط الرقعة المركب، كما نجد ختم السلطانة أسفل الرسالة، وهذه الوثيقة المميزة نجدها مسجلة تحت اسم: *AGAD. AKW, Dz. Tur. (k.68. t.III. no. 221'de (KDT, s.104*.

(٢١٨) إن بداية العلاقة بين بولندا والدولة العثمانية تمتد إلى القرن الخامس عشر، وقد نشأت هذه العلاقة من خلال مساعي إقامة صلح وصداقة بين كل من السلطان العثماني "محمد شلبي" وملك بولندا "جاجيللو (*Jagello*)"، حيث أثمرت هذه المساعي عن فترة سلام امتدّت لفترة طويلة، وفي عام (١٤٨٩م) تم إرسال "ميكولاج فيرلج (*Mikolaj Firlej*)" إلى إسطنبول كأول سفير لبولندا، حيث تم توقيع أول معاهدة رسمية بين بولندا والدولة العثمانية، وفي السنين التي تلت ذلك أبرمت العديد من المعاهدات والاتفاقيات وتم إرسال السفير البولندي إلى الدولة العثمانية بشكل لم يكن له مثيل مع أي دولة أخرى، (نازانْ أُولْجز (*Nazan Olçer*)، معرض حرب وسلام، الحرب والسلام، العلاقات البولندية العثمانية في الفترة من القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر، مجلة الأوقاف، عدد خاص، أنقرة، ٢٠٠٦، ص ١٧).

كثيرًا ونالنا السرور، ومن أجلِ هذا فقد أرسلتُ إلى جنابكم السامي أحدَ أصدقاءِ حضرةِ الباشا (تقصدُ زوجَها "رستم باشا") مع خطابٍ يقوّي ويدعم صداقَتَنا وهو "حسن آغا"، إنني أرجو من جنابكم أن تُسرِعوا في إعادة إرسال مبعوثنا إليكم وذلك بعدَ أن يصلَ إلى قصرِكم ويُظْهِرَ لكم الاحترامَ والتبجيلَ، ونرجو بصفةٍ خاصَّة أن تُساعِدوه على إتمامِ مهمّتِه، إن رجاءَنا من الله تعالى أن يُديمَ دولتَكم، وليكن حكمُكُم مبارك بإذن الله تعالى... "

فقيرة الفقراء، خادمتكم "السلطانة مِهْرِمَاهْ"...(٢١٩).

* * *

أما الخطابُ الثاني الذي أرسلَتْه "السلطانة مِهْرِمَاهْ" فيُمكِنُ تلخيصُه كالتالي:

"ندعو الله أن يطيل من عمر جلالة الملك وعمر دولته حتى يصبح اليوم الواحد فيها كألف يوم، واعلم يا جلالةَ الملك أنه عندما بلغَنَا خطابُكم الذي يفيضُ مودَّةً وحبًّا شعرْنَا بسعادةٍ وسرورٍ فائِقين يصعبُ التعبيرُ عنهما بالكلمات أو بالأقلام.

إن خطابكم القيّم يبيّن بوضوحٍ ترحيبكم بالعلاقة التي أبديناها إليكم، فلقد أظهرتم بشكلٍ كريمٍ صداقَتَكم لنا وقربكم منا، أما أسطرُ الصداقةِ والحبِّ التي أبديتموها للسلطان -الذي يُعدّ القادرَ الوحيدَ على أن يكونَ الملجأَ الأمين لأي شخصٍ- فإننا سعِدنا بها إلى حدٍّ كبيرٍ لا يمكنُ وصفُه بالكلامِ أو الكتابةِ.

أتمنى من الله أن يهبَ لكُمُ العمرَ المديدَ والسعادةَ الدائمةَ وقضاءَ أسعدِ الأوقاتِ...

لقد قال حضرةُ السلطان: "لقد كنت ووالدَه كالأخوين، وصارت تربِطُني مع ولدِهِ صداقةٌ، وقد حان الوقتُ لنكنْ من

(٢١٩) أوجِتُوم، المصدر السابق، ص ٧١٢-٧١٣.

الآن فصاعدًا كالأبِ وابنِه" جلالةَ الملكِ إنني أريدُ أن أبلّغكم بكلِّ إخلاصٍ أنه في حالِ ذِكْرِ أيّ مسألةٍ متعلّقةٍ بكم عند السلطانِ فإنّني وزوجي "رستم باشا" سنكون إلى جانبكم.

الفقيرة المسكينة "السلطانة مِهْرِمَاهْ"). (٢٢٠)

* * *

إن كتابةَ كلٍّ من "مِهْرِمَاهْ" أو أمِّها "خُرَّم" برسالةِ تعزيَةٍ وتهنئَةٍ إلى ملكِ دولةٍ غربيّةٍ يُظهِرُ بشكلٍ واضحٍ مدى اهتمام نساءِ القصرِ العثمانيِّ ومدى مشاركتِهِنَّ في أمورِ السياسةِ الخارجيَّةِ في عهد "القانونيّ" والتي وصلت إلى درجةِ ولعِهِنَّ بتلك الأمور، مع أن "السلطانة مِهْرِمَاهْ" عند كتابتِها لتلك الخطاباتِ عام (١٥٤٨م) كانت في سنِّ السادسةِ والعشرين.

* * *

إن العلاقاتِ العثمانيّةَ البولنديّةَ لا تنحصرُ في مسألةِ علاقةِ حربٍ أو سلامٍ، فاعتبارًا من بداياتِ القرنِ الخامس عشر واستمرارًا بعد ذلك إلى القرنِ السابعَ عشر والثامنَ عشر كانت العلاقاتُ الثقافيّةُ والتجاريّةُ قد بلغت ذِرْوَتَها بين الدولتين، حيث اسهَمَتْ تلك العلاقات في رقيِّ الجوانب الفنّيّةِ الرفيعةِ لدى كِلا المجتمعين، لا سيّما أنّ النخبةَ في بولندا قد تأثّرت بوضوحٍ بنمطِ الحياةِ والملابسِ والذوق التركيّ إلى جانبِ الولعِ بالسجاجيدِ والأقمشةِ التركيّةِ والغُرَفِ المفروشةِ على النمطِ الشرقيِّ والإكسسواراتِ التي تزيّنُ ملابسَ الرجالِ والنساءِ والبُسُطِ والأقمشة النفيسةِ التي أُرْسِلَت كهدايا إلى الكنائسِ، ويتَّضح هذا التأثير والتأثُّر في وثائقِ الجمركِ والميراثِ في ذلك العصرِ، وهذا كله يدلُّ على وجودِ حركةٍ تجاريّةٍ قويَّةٍ وكثيفةٍ بين البلدين.

(٢٢٠) أوجْتوم، المصدر السابق، ص ٧١٤.

كانت نتيجةُ هذا الطلبِ الشديدِ على مظاهرِ الحضارةِ العثمانيّةِ أن شُيّدت تدريجيًا ورشٌ محليّةٌ في بولندا، وبدأت تلك الورشُ تتواصلُ مع المشاغلِ والمعاملِ الموجودةِ في مراكزِ صناعةِ النسيجِ المهمّةِ مثل "إسطنبول" و"بورصة"، وراحت تنتجُ منتجاتٍ شبيهةً بما تُنتِجُهُ تلك المراكز في الدولةِ العثمانيّةِ. (٢٢١)

تكفي يدٌ واحدةٌ ولا داعيَ أن تمدَّ الأخرى

بناءً على قيامِ الأميرِ مصطفى وليّ العهدِ بالتمرُّدِ على والدِهِ السلطان فقد تمَّ إعدامُهُ خنقًا في (اكتبه) بالقربِ من (قونيه ايريليسي) وذلك أثناءَ الحملةِ التي قادَها "سليمان القانوني" على إيران في السادس من تشرين الأول/أكتوبر عام (١٥٥٣م)(٢٢٢)، ولقد كانت هذه الحادثةُ المشؤومةُ سببًا لوقوعِ اضطرابٍ وهياجٍ كبيرٍ في أوساطِ الشعبِ والجيشِ على حدٍّ سواء، وعلى أثر هذه الحادثةِ فقد تمّ عزلُ الصدرِ الأعظمِ "رستم باشا" في نفسِ اليومِ من وظيفتِهِ حيث إن التاريخَ قد صارَ يحكُمُ سلبًا فيما يتعلّقُ بتلك الواقعةِ والتي أصبحَ يُذكرُ فيها اسمهُ مقترنًا بعبارةِ (مكر رستم)، ومن أجلِ أن تحميَ السلطانةُ "مهرماه" زوجَها من الإعدامِ بعد هذهِ الواقعةِ فقد لجأَتْ إلى أمِّها "السلطانة خُرَّم" والتي قامت بدورِها بكتابةِ خطابٍ إلى زوجِها "السلطان سليمان" الذي كان يتواجَدُ في هذا التوقيتِ في (حلب)، حيث استعطفتْهُ في ذلك الخطابِ وطلبت منه العفوَ عن زوجِ ابنتِها.

وبعد أن تمّ عزلُ "رستم باشا" من وظيفةِ الصدرِ الأعظمِ التي شغَلَها لمدة تسع سنواتٍ تقريبًا فقد عاد إلى القصرِ الصيفيّ الذي تملِكُهُ زوجتُه

(٢٢١) أولَجز، المصدر السابق، ص ١٧

(٢٢٢) تم إيضاح هذه الحادثة بشكل مفصل في القسم الخاص ب"السلطانة خرم".

"السلطانة مِهْرِمَاهْ" والواقعِ في منطقةِ "أسكودار"، وعلى الرغمِ من عزلِهِ من منصبِهِ فإنَّ "رستم باشا" لم يفقِدْ شيئًا من سلطتِهِ نظرًا لكونِهِ صهرَ السلطان "القانوني". (٢٢٣)

* * *

وفي عام (١٥٥٤م) ألمَّ بـ"السلطانة مِهْرِمَاهْ" مرضٌ خطيرٌ وهي في الثالثةِ والثلاثين من عمرها، وعلى الرغمِ من كلِّ الجهودِ التي بذلَهَا الأطباءُ إلا أنها لم تتحسَّنْ، وعندما علِمَ حَمُوها قبطانُ البحر "سنان باشا" بالأمرِ فقد طلبَ المساعدةَ من عبدِهِ وطبيبِهِ "بيدرو"، لكنَّه لم يذكُرْ له أن المريضةَ هي السلطانةُ الابنةُ، وعندما صارحَهُم الطبيب "بيدرو" أنه لا يُمكِنُ أن يعالِجَ المرضَ بدون رؤيةِ المريضِ وقياسِ نبضِهِ وتحليلِ البولِ رُفِعَ الأمرُ إلى "رستم باشا"(٢٢٤).

لقد كان "رستم باشا" غيورًا للغايةِ مما جعله يطلب من الطبيب "بيدرو" أن يعالِجَ زوجتَهُ "مِهْرِمَاهْ" بدون أن يراها وذلك من خلالِ الحديثِ معه هوَ دونَ أن يقابِلَها، لكن مع إلحاحِ الطبيبِ فقد رضيَ "رستم باشا" بأن يُحيلَ المسألةَ إلى "السلطانة مِهْرِمَاهْ" لكي تقرِّرَ هيَ ما تراه مناسبًا، وفي النهايةِ نجحَ "بيدرو" في أن يدخلَ إلى غرفةِ السلطانةِ المريضةِ، إلَّا أنَّ

---

(٢٢٣) يذكر "بوسبيك (*Busbecq*)" السفير الألماني الذي وفد إلى إسطنبول عام (١٥٥٥م) في مذكراته الشهيرة:
"على الرغم من المدة التي بقيها "رستم" باشا معزولًا من منصب الصدر الأعظم فقد كنا نقوم بزيارته ونقدم له الهدايا حيث كان لدينا قناعة بأن هناك احتمال أن يعود "رستم" باشا في المستقبل إلى موقعه القديم". (أَفْيُونْجُو، المصدر السابق، الجزء الخامس والثلاثون، ص ٢٨٣).

(٢٢٤) يحكي الطبيب الأسباني "بيدرو" تلك الواقعة على النحو التالي:
"لقد أخبرني سيدي "سنان باشا" بأن حياته هو وأخيه "رستم باشا" مرتبطة بشفاء هذه المريضة، وأن موتها سيعني هلاكهما، من أجل هذا فإني سأقوم بما يمكن عمله وسأصنع اللازم من أجل شفاء السلطانة وسيقوم بعتقي إذا نجحت في هذا الأمر، وقد أجبته بأنني لا أريد أن أعتق لأنني إذا صرت حرًا فإنني سأصبح بلا سند أو كفيل، لكنني من أجل الامتثال لأوامره فقد أخبرته بأنني سأبذل قصارى جهدي، وبناء على ما ذكرته فقد أرسلني "سنان باشا" إلى قصر أخيه" (ترجمة: فؤاد جَارِمْ (*Carım*)، إسطنبول في عصر القانوني، إسطنبول - ١٩٦٤م، ص ٣٥).

الطبيبَ اندهشَ عندما اقتربَ من فراشِ السلطانةِ، فقد كانت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" مغطاةً ومستَتِرةً وملتحفةً تمامًا بملاءةٍ ذاتِ خيوطٍ وضفائرَ ما عدا إحدى يديها التي كانت بارزةً.

* * *

وها هو الطبيبُ "بيدرو" يحكي لنا في مذكّراتِهِ ما وقع في تلك الحادثة:

"بعد أن غسلت يديّ بفوطة كبيرة قمتُ بقياسِ نبضِها، وعلى الرغمِ من شعوري برغبةِ زوجِها في أن أكتفي بهذا القدرِ إلا أنّني لم أبالِ، وقلتُ باللغةِ التركيةِ: "اعطِني يدَكِ الأخرى يا سلطانتي"، فأدخلتِ السلطانةُ يدَها تحتَ الغطاءِ ثمَّ مدَّتِ الأخرى إليّ، وعندها وجدتُ "رستم باشا" يُعْرِبُ عن ضيقِهِ وعدمِ ارتياحِهِ -بمجرَّدِ أن قمتُ بقياسِ النبضِ- قائلًا: "حسنًا، لنذهب الآنَ يكفي يدٌ واحدةٌ فقط"، حينها قلْتُ للسلطانة متظاهِرًا ببرودةِ الأعصابِ التي يقتضيها الموقفُ الذي كنتُ فيه – وباللغة التركية مرَّةً أخرى: "سلطانتي هل من الممكنِ أن تُخرجي لسانَكِ؟"، فما كان من السلطانة إلا أن أخرجَتْ رأسَها وذراعيها من تحتِ الغِطاء، ثم أخرجت لسانَها وهي تنظر بحدّةٍ إلى زوجِها، فلم يستطعْ "رستم باشا" أن يَنْبِسَ ببنتِ شفةٍ أمام تصرُّف زوجته السلطانة، أما أنا فقد قلت من جانبي "سيكونُ هناكَ تحسُّنٌ وتغيُّرٌ للأفضلِ خلالَ خمسة عشرَ يومًا إن شاءَ اللهُ" وقبلت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" بتناولِ وأخذِ أيِّ نوعٍ من أنواعِ العلاجِ باستثناءِ الأدويةِ المسهِّلَةِ وفصدِ الدم وذلك لأنها قد عانت كثيرًا من هذه العلاجات التي وصَفَهَا لها الأطباءُ مرّاتٍ عديدة، فقلتُ لها: "إنَّهُ من الضروريّ أن تأخذِي شرابًا حلوَ المذاقِ سأعطيكِ إياه الآن"، وعندما قالت حسنًا انسحبْتُ منتقلًا إلى جناح "رستم باشا""[٢٢٥].

(٢٢٥) جارِم، المصدر السابق، ص ٣٦-٣٧.

وخـلالَ فتـرةٍ وجيزةٍ من التـداوي بالعلاجـاتِ التي وصَفَهـا الطبيبُ "بيدرو" كانت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" قد استردَّت صحَّتَها.

"بيازيد" لا يأبَهُ بالنصيحة

بعد عزلِ "قره أحمد باشـا" ثم مقتلِهِ في التاسع والعشرين من أيلول/ سـبتمبر عـام (١٥٥٥م) تولَّـى "رسـتم باشـا" للمـرَّةِ الثانيةِ مقـامَ الصدارةِ العظمى.

كانت أهمُّ الأحداثِ التي وقعَتْ خلالَ الفترةِ الثانيةِ من تولِّي "رسـتم باشـا" لمقام الصدرِ الأعظمِ هو الصراعُ الذي نَشَـبَ بين الأميرين "بيازيد" و"سـليم" على العـرش، حيث إنَّ الفرصةَ قد أصبحَتْ متاحةً بشـكلٍ أكبر أمام "الأمير بيازيد" بعد موتِ الأميرِ مصطفى، لكن بوفاةِ والدتِهِ "السلطانة خُـرَّم" قـد فقدَ "الأمير بيازيد" أهمَّ سـندٍ بالنسـبةِ إليه، ولـم يعدْ هناك الآنَ من ناصرٍ أو معينٍ لهُ في القصرِ سـوى "رسـتم باشـا" زوجُ أختِهِ "السلطانة مِهْرِمَـاهْ"، وذلك لأن "السـلطان سـليمان" بعد وفاةِ زوجتِـهِ "خُرَّم" أصبح مرتبطًا بشكلٍ كاملٍ بابنتهِ "مِهْرِمَاهْ".

لكنّ تصرّفاتِ وقراراتِ "بيازيد" الطائشـةِ والغيرِ مسؤولة كانت تضـعُ أختَـه "مِهْرِمَـاهْ" في موقفٍ صعبٍ من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أخرى تُعَرْقِلُ هذهِ التصرُّفاتُ جهودَ الحفاظِ على حبلِ المودَّةِ مـع أخيها "سليم"، ففي الواقـعِ كان "سـليم" ينتهزُ بدورهِ كلَّ فرصةٍ من أجلِ إشـعارِ أختِهِ الكبيرةِ "مِهْرِمَاهْ" بأنَّها تأخذُ موقفًا مؤيّدًا لأخيها "بيازيد".

* * *

وعندما علِمَ السـلطان "القانوني" بالخلافات التي كانت بين الأميرين عاقبَهُما بشـكلٍ متسـاوٍ وبدونِ أن ينحازَ إلى أيِّ منهما حيثُ قامَ بإرسـالِ

"الأمير سليم" ليكونَ واليًا على "قونيه" أمّا "الأمير بيازيد" فقد أرسله ليكونَ واليًا على "أماسيا".

لم يعترضِ "الأمير سليم" على ما قامَ به والِدُه، لكنّ "بيازيد" ظلَّ في مدينةِ "كوتاهية" وكان يتصرَّفُ بشكلٍ يعبّرُ عن عدمِ رغبتِهِ في الذَّهابِ إلى "أماسيا" بحجَّةِ أنَّ هذا الأمرَ يهدُفُ إلى إبعادِهِ عن إسطنبولَ وجَعْلِ "سليم" هو القريبُ من العرش، كان "بيازيد" في تلك الأثناءِ يُرسِلُ بالخطاباتِ إلى أختِهِ الكبيرةِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" ويريدُ منها أن تبذُلَ جهدَها في صالِحِهِ عند والدِها.

أما "السلطان القانوني" الذي كان يدرُسُ الشكاوى الواردةَ من "سليم" فقد طلبَ من ابنتِهِ "مِهْرِمَاهْ" أن تكتبَ لأخيها رسائلَ تنصحُهُ فيها، وأن تقدِّمَ له الخطاباتِ القادمةَ إليها من "بيازيد"، كما طلبَ منها الردَّ على شكاوي "سليم"، أما "السلطانة مِهْرِمَاهْ" والتي كانت من جانبها في غاية الضيق بسبب كونها في موقف وضعها بين أبيها وأخيها فقد أرسلت بخطابٍ سرّيّ إلى "بيازيد" لم تترك فيه شيئًا لم تذكره فيه،[٢٢٦] حيث أوصتْه في هذا الخطابِ بالذهابِ على الفورِ إلى ولايةِ "أماسيا" التي كلِّف بتولّي إدارتها، ونجدُ أنَّ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" بعد أن بدأتْ خطابَها إلى أخيها "بيازيد" بكلماتٍ فاترةٍ فقدْ أخذتْ تستخدِمُ معهُ لهجةً قاسيةً ناصحةً إيّاهُ بألا يتصَرَّفَ على نحوٍ يؤذي بهِ نفسَهُ، وفي النهايةِ قام السلطان "القانوني" بإرسالِ كلٍّ من "صُوكُولْلُو بَاشَا" إلى "الأمير سليم" و"برتف باشا" إلى "الأمير بيازيد" كناصحين إلى كلٍّ منهما، لم يُبْدِ "سليم" اعتراضًا على ما ذكره الناصحُ كما أعربَ عن تقبّلِه لما جاءَ به، أمَّا "بيازيد" فلم يلقِ بالًا لقدوم "برتف باشا"، قائلًا:

(٢٢٦) محمود آق، " السيدة مؤسسة الوقف: "السلطانة مِهْرِمَاهْ"، مجلة الأوقاف، أنقرة – ٢٠٠٦م. (عدد خاص: عام ثقافة الوقف) ص ٨٣.

"على الرغمِ من أن إسطنبول مملوءةٌ عن آخرها بالعلماءِ الكبارِ والشيوخِ المبجَّلين، إلا أنه من المدهش ألّا يُرسِلَ إليَّ واحدًا من هؤلاء ليُسدِي إليَّ النصيحةَ وينيرَ ليَ الطريقَ، فعلى الأقلِّ أمثالُ أولئكَ العلماءِ يمكنُ أنْ أستهدي بهديِهم وأن أسترشِدَ بأفكارِهِم".

وعلى هذا النحوِ فقدْ أخذَ يسخرُ من الرجل المخضرمِ الذي أرسلهُ إليه أبوه .

وعلى الرغم من عدمِ إلقاءِ "بيازيد" البالَ إلى نصيحةِ الناصحين -بمن فيهم أخته الكبرى- فقد ذهب إلى "أماسيا"، ومن هناك أخذَ "بيازيد" في التخطيطِ للوصولِ إلى العرشِ من خلالِ إعدادِ العدَّةِ من أجلِ التحرُّكِ لملاقاةِ أخيه "سليم" عسكريًا متَّخذًا في ذلك من جدِّه السلطان "سليم ياووز" مثلًا أعلى أمامه، لكن جدَّه السلطان "سليم ياووز" كانت تسحرُه الشجاعةُ والكفاءة العسكريّةُ التي كان يتحلّى بها، وبعد وقتٍ قصيرٍ تحرَّكَ "الأمير بيازيد" إلى "قونيه" على رأسِ القوَّات التي جمعها في الثلاثين من أيار/مايو عام (١٥٥٩م) وبدأ في قتالِ القوَّاتِ التي كانت تحتَ إمرةِ أخيه "سليم"، لكن جيشَهُ-أي بايزيد- هُزم بعد مناوشاتٍ بسيطةٍ، فانسحبَ، واضطَرَّ حينَها "بيازيد" إلى العودةِ إلى"أماسيا"، إلا أنه لم يستطِعِ أن يستقرَّ به الحالُ هناك أيضًا.

نهاية "بيازيد" الحزينة

عندما وصلَ "الأمير بيازيد" -الذي لم يستَطِع التفاهُمَ مع والدِهِ وأخيهِ "الأمير سليم"- إلى مشارف "أرضروم" أخذَ يبذُلُ قصارى جهدِهِ في العملِ على إقامةِ اتّصالٍ مع والدِهِ السلطان، وفي سبيلِ ذلك نجدُهُ

قد سعى وحاول الوصولَ إلى كلِّ الأطرافِ المحيطين بوالدِهِ والذينَ بإمكانهم أن يؤمِّنوا له المساعدةَ والعونَ في هذا الصدد.

وفي الخطابِ الذي كتَبَه "بيازيد" إلى "السلطانة مِهْرِمَاهْ" نجدُهُ يبدأُ كلامَهُ قائلًا: "أختي العزيزة، أختي السلطانة" ويذكرُ بعد ذلك أنه قد جاءَ إلى هنا لكي يتمكَّنَ من النجاةِ بحياتِهِ، كما نجدُهُ يسعى في التذلُّلِ إلى والدِهِ لكي ينالَ منه العفوَ قائلًا:

"إذا ما نالني عفوُكَ وأمانُك، فواللهِ لن أرحلَ إلى أيِّ مكانٍ".

كذلك نراهُ يرسِلُ السلامَ إلى كلٍّ من "رستم باشا" وابنةِ أختِهِ "عائشة هماشاه"، ويُنْهي "بيازيد" خطابَهُ قائلا:

"صغاري يقبّلون أيدي عمتهم، نشتاق إلى رؤياكم قبل أن يوافينا الأجل"[٢٢٧].

.توفيَ الصدرُ الأعظمُ "رستم باشا" في الثاني عشر من حزيران/يونيو من عام (١٥٦١م) بسبب مرضِ الاستسقاءِ عن عمرٍ يتراوحُ بين الخامسةِ والخمسينَ والستين، حيث ظلَّتْ بعدَ ذلك "السلطانة مِهْرِمَاهْ" أرملةً بعدَ زواجٍ استمرَّ سبعَ عشرةَ عامًا.

وقد فضلت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" أن تنسحِبَ إلى القصرِ القديم بعد وفاةِ زوجِها متخلّيةً عن فِكرةِ الزواجِ مرّةً ثانيةً، هذا وقد خصّصت لها الدولةُ دخْلًا كبيرًا يُقارِبُ الستِّمائة قطعة من الفضة.

* * *

وبعد حوالي العام من حدوثِ ذلك وفي نهايةِ مساوماتٍ طويلةٍ أجراها "الأمير سليم" مع شاهِ إيرانَ تمَّ الاتفاقُ بينهما على إعادةِ "الأمير بيازيد"،

(٢٢٧) آق، المصدر السابق، ص ٨٣.

وفي الخامس والعشرين من أيلول/سبتمبر عام (١٥٦١م) تمَّ إعدامُ "الأمير بيازيد" خنقًا بوَتَرِ القوسِ في (قزوين).(٢٢٨)

مساعدتها في تجهيز حملة "مالطه"

بـدأت "السـلطانة مِهْرِمَـاهْ" بعـد وفـاةِ "الأميـر بيازيـد" فـي تحسـينِ العلاقـاتِ مـع "الأمير سـليم" الذي كانَ هو المرشَّـح الوحيـدُ للجلوسِ علـى العـرشِ، في هذه الأثناء كانـتْ هناكَ رغبةٌ لدى "سـليمان القانونيّ" والديـوانِ السـلطانيّ في فتحِ جزيـرةِ "مالطه"، حيثُ كانـت تلك الجزيرةُ تهـدِّدُ أمنَ التجارةِ العثمانيّةِ في البحرِ الأبيضِ وكذلك تهدِّدُ أمنَ سـواحِلِ شـمالِ أفريقيا، وأيضًا فقد كانت تأتي التقاريرُ من "تورجوت ريس باشـا" سنة (١٥٦٥م) والتي تُشيرُ إلى أهمّيّةِ هذا الموقـعِ، بالإضافةِ إلى ذلك فقد كانت "السـلطانة مِهْرِمَاهْ" الابنةُ الحبيبةُ للسـلطانِ "سليمان القانوني" تذكرُ أنَّ فتـحَ "مالطـه" هو مسـألةٌ مهمّةٌ جدًّا بالنسـبةِ لها، ومـن أجل ذلك نرى أنَّ "السـلطانة مِهْرِمَـاهْ" قد سـاندت بمالِها وثروتِها في إعـدادِ هذهِ الحملةِ العسـكريّةِ المجهَّـزةِ في سـبيلِ الفتحِ، فنجد أنّ "مِهْرِمَـاهْ" كانت تجهِّزُ من مالِها الخاصّ السفنَ البحريَّةَ بما تحتاجُهُ من مستلزماتٍ.

كلُّ شيءٍ خاضعٌ لقدرةٍ إلهيّةٍ

بعد أن مرَّ عامٌ واحدٌ على حملةِ "مالطه" وبينما كانَ "بياله باشا" منشغلًا بفتحِ جزيرة "صاكيز" كان "سـليمان القانونـي" الذي يبلـغ من العمر اثنين وسبعين عامًا يستعدُّ لحملةٍ جديدةٍ على النمسا (زيجتفار)، في هذه الأثناءِ

(٢٢٨) إن هذه الحادثة المؤلمة تظهر لنا أن التأثير المزعم أنه كان واقعًا على السلطان "القانوني" من قبل زوجته "السلطانة خُرّم" وابنته "السلطانة مِهْرِمَاهْ" وزوجها "رستم باشا" الذين كان يوصفوا بأنهم عصابة القصر لم يكن كبيرًا بالدرجة التي صورت. كما تعتبر هذه الحادثة دليلًا واضحًا على أن الأمير "بيازيد" قد تعرض لنفس المصير الذي انتهى إليه أخوه الأكبر مصطفى وأن القانوني لم يكن تحت تأثير هؤلاء الثلاثة، حيث إن من يسوقون مثل هذه الإدعاءات يذكرون أن هذه العصبة كانت تريد تولية "بيازيد". (أُكتُونْ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣٢٢).

كان السلطانُ يعاني من مرضِ "النقرس" الذي ورثَهُ من أجدادِهِ، وعلى الرغمِ من إخبارِ الأطبَّاءِ لهُ من أنه لن يتمكَّنَ من تحمُّلِ مشاقِّ الحربِ إلا أنه قرَّرَ أنْ يخرُجَ للغزْوِ وكان يقول:

"إنَّ كلَّ شيءٍ يتوقَّفُ على القدرةِ الإلهيَّةِ". (٢٢٩)

وبناءً على المصادرِ التاريخيَّةِ، فقد كان السلطانُ دائمًا ما يدعو ويتضرَّع إلى الحقِّ تعالى أن يقبِضَ روحَهُ وهو يُؤَدِّي مهمَّتَهُ المقدَّسةَ في إعلاء كلمة الله ﷻ، وبهذا الشكل فقد كان السلطانُ العادلُ يعلمُ أنهُ يقتربُ من النهاية. (٢٣٠)

وقد استجابَ اللهُ ﷻ لدعاءِ عبدِهِ المخلِصِ، حيث إنَّ السلطانَ قد وافَتْهُ المنيَّةُ في ليلة السادسِ من أيلول/سبتمبر عام (١٥٦٦م) عندَ مشارفِ قلعةِ "زيجتفار".

* * *

عندما علم "الأمير سليم" بنبأِ وفاةِ والدِهِ أتى من "كوتاهية" إلى إسطنبول، وفي قصرِ "طوب قابي" التقى مع أختِهِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" حيث تباحثَ معها في الموقِفِ، وكما يذكر في كتاب "تاريخ سلانيكي" فقد تشاورَ "سليم" مع السيدة السلطانةِ "مهرماه" باعتبارِها الأكبر والأعلى مكانةً في كلِّ الأمور.(٢٣١)

---

(٢٢٩) بناء على هذه الرواية فإن "السلطانة بمِهْرِمَاهْ" قد شجعت مع "صوكوللو محمد باشا" والدها "السلطان سليمان" على الخروج للغزو والجهاد، أما بالنسبة السلطان "القانوني" فإن الاستماع لهذه الكلمات التي تبين درجة تعلقه بالحياة يظهر لنا مدى عظمة هذا الرجل. (دَانِشْمَنْد. المصدر السابق. الجزء الثاني، ص ٣٤٢).

(٢٣٠) أَكْشونْ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣٣١.

(٢٣١) كانت "السلطانة بمِهْرِمَاهْ" هي أول من بايعت أخيها "الأمير سليم" عند دخوله إلى قصر "طوب قابي"، وقد ملكت قلب أخيها السلطان "سليم" عندما قالت وهي غارقة في دموعها: " إن نار الحسرة والتفكر تصاحب الباكي المتحب الذي قد احترق وانتهى... " ويقال إنها قد أقرضت في الحال أخيها خمسين ألف قطعة ذهبية من أجل الإنفاق على أمور مثل الصدقة والإحسان وذلك حتى لا تعرض خزينة الدولة لأيّ وضع سيّء. (دَانِشْمَنْد، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٣٦٢).

وقد أعطتْ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" خمسينَ ألفَ قطعةٍ ذهبيّةٍ من ثروتِها إلى أخيها السلطان "سليم الثاني" الذي لم يكنْ راضيًا عن العجزِ الذي كان موجودًا بخزينةِ الدولةِ العثمانيّةِ(٢٣٢) وبفضل التضحية التي قامت بها السلطانة فقد شعر السلطان الجديد بارتياحٍ شديدٍ في هذا الوقت الضيق والحسّاس، وغطّى بهذا المبلغ نفقاتٍ ضروريّةٍ وهامّة بالنسبة للدولة. (٢٣٣)

وفاةُ السلطانةِ الخيرة!

لقد كانت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" بعد وفاةِ "سليمان القانوني" عام (١٥٦٦م) وفي عهدِ أخوها "سليم الثاني" وحفيدِهِ "مراد الثالث" من أكثرِ السيدات نفوذًا سواء بين نساءِ القصرِ أو عموم الحريمِ.

إن هذه السيّدة المحبّةَ للخيرِ والتي أمضتْ الفترةَ الأخيرةَ من حياتِها في القصرِ القديمِ الذي يُطِلُّ على ميدانِ "بيازيد" الذي ارتبطَتْ به ارتباطًا وثيقًا قد رحلت عن عالَمِنا إلى دارِ البقاءِ إثرَ مرضٍ مفاجئٍ وهيَ في سنٍّ صغيرةٍ نسبيًّا عن عمرٍ يناهزُ السادسةَ والخمسين، حيث جاءت وفاتُها بعدَ عِدّةِ أيّامٍ من وفاةِ قائدِ البحريّةِ الكبير "بياله باشا (*Piyale Paşa*)" في الحادي والعشرين من كانون الثاني/يناير عام (١٥٧٤م)(٢٣٤).

وقد كتب عنها المؤرخ "مُنَجِّمْ بَاشِي (*Müneccimbaşı*)" الذي يُعْتَبرُ من مؤرخينا المعروفين قائلًا:

---

(٢٣٢) أورزنان، المصدر السابق، الجزء الثلاثون، ص ٤٠.

(٢٣٣) في الغالب كانت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" صاحبة ثروة كبيرة للغاية امتلكتها عندما ضمت الميراث الكبير الذي انتقل إليها من زوجها "رستم باشا" إلى الممتلكات التي كانت ممنوحة لها من والدها السلطان، وقد فضلت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" أن توجه هذه الثروة التي بلغ عائدها في اليوم ألفي قطعة ذهبية إلى أعمال الخير والإعمار. (صقا أوغلو، المصدر السابق، ص ٤٥٣).

(٢٣٤) بناء على ما يذكر الرحالة الألماني "ستيفن جيرلخ" فإن هذا التاريخ كان يوافق الخامس والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر سنة (١٥٧٤م).

"كان والدُها يُكِنُّ لها حبًا جمًّا لكونِها راجحةَ الرأيِ وصاحبَةَ أعمالٍ خيريَّةٍ".

وقد دُفِنَتِ السلطانة بجامعِ "السليمانية" في ضريحِ والدها الفخمِ الذي يقعُ جهةَ القِبْلَةِ(٢٣٥).

لعبتِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" دورًا كبيرًا في التاريخِ العثمانيّ كالسلطان "القانوني" و"السلطانة خُرَّم" وزوجِها "رستم باشا" ويرجعُ هذا إلى أنها قد أمضتْ حياتَها في عصرٍ عاشت فيهِ شخصيَّاتٌ مؤثِّرةٌ.

كذلك فقدْ لعِبَتِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" دورًا مهمًّا من خلالِ علاقاتِها مع إخوتِها، حيث إنها اضطرَّت إلى الانحيازِ إلى أحدِ إخوتِها وذلك بسبب الظروفِ السياسيَّةِ التي مرَّتْ بها البلادُ في هذه الفترة، وعلى هذا النحوِ فقد أصبحَتْ "مِهْرِمَاهْ" من الأسماءِ المهمّة التي تركَتْ بصمةً في التاريخِ العثمانيّ، مع ذلك نجدُ أنَّ أكثرَ المعالمِ الموجودةِ اليومَ والتي تُعَبِّرُ لنا عن شخصيَّةِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" هي الأوقافُ التي أنشأَتْها والخدماتُ التي قدَّمَتْها تلك الأوقافُ والتي تعكِسُ مشاعرَها الطيِّبَةَ وحبَّها للمساعدةِ والخير وكرمَها الوافرِ.

لقد أنشأَتِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" ما لا يُعَدُّ من الأوقافِ في سبيلِ أن تكونَ تلك الأوقافُ معينةً لها على الظفَرِ برضا اللهِ ونيلِ شفاعةِ النبيِّ ﷺ وقد استطاعت أنْ تفوزَ بمكانةٍ متميّزةٍ على صفحاتِ التاريخِ بفضلِ ما خصَّصَتْهُ أيضًا من إمكاناتٍ ضخمةٍ في سبيلِ أن تكونَ هذه الأوقافُ قادرةً على الاستمرارِ في العطاء.

وسوف تظل "سلطانة مِهْرِمَاهْ" تحافِظُ على مكانَتِها المرموقةِ في قلوبِ المسلمين كلَّما استمرَّت هذه الخدماتُ الخيريَّةُ التي قدَّمَتْها.

---

(٢٣٥) أكتشون، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣٧٤.

أعمال "السلطانة مهرماه" الخيرية

"السلطانة مِهْرِمَاهْ" تُنافِسُ الآخرين على نيل الثواب والأجرِ

لقد بذلتِ السلطانة مِهْرِمَاهْ -الابنةُ الحبيبةُ والوحيدةُ للقانونيّ- جهدًا وافِرًا طيلةَ حياتها في بناءِ المؤسّساتِ الدينيّةِ والاجتماعيّة، وكأنّها كانت في هذا الأمرِ تنافسُ أهلَ البرّ والخير، وكانت تهدُفُ من خلالِ هذا السعي والجهدِ إلى نَيلِ رضوانِ الله تعالى وإدراكِ شفاعةِ نبيّه ﷺ، وكذلك رغبةً منها في القيامِ بخِدمةِ وطنِها الذي تُكِنُّ له حبًّا لا يوصف، فقد ساهمت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" في عملِ الخيرِ بإنشائِها مجمَّعَين خيريّينِ، الأوّل على ساحل منطقة "أسكودار" والثاني في منطقةِ "أَدِرْنَه قَابِي".

مجمّع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" في "أسكودار"

وفي لائحةِ الوقفِ المكتوبةِ باللغةِ التركيّةِ التي تخصُّ المجمَّع الخيريَّ الذي أنشأته "السلطانة مِهْرِمَاهْ" في "أسكودار" والتي سُجِّلَتْ بعد مرورِ ثلاثِ سنوات من انتهاءِ بنائِهِ، نجدُ في الصفحةِ الثالثةِ من تلكَ اللائحةِ هذه الأشعار:

"لا تاجَ ولا عرشَ ولا ملكَ ولا مالَ،

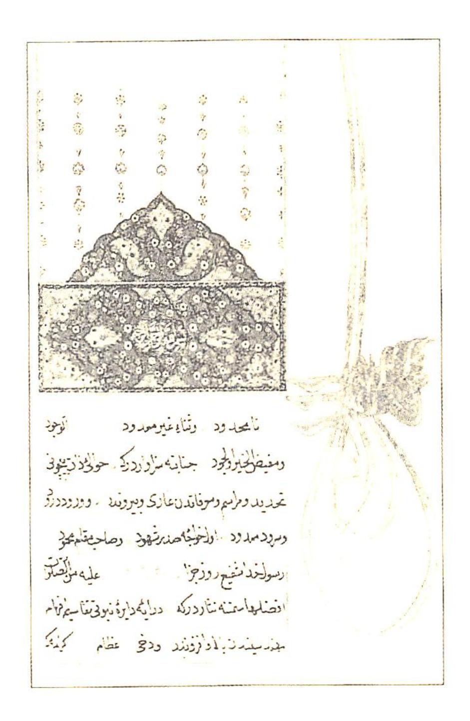
لا جاهَ ولا وجاهةَ ولا فضلَ ولا كمال ينجي الإنسان من الموت.

إن الله خلقَ العالمَ وكتبَ عليهِ الفناءَ

كل مخلوق لا ريب أنه يفنى

وكل متسامح لا يندم في الآخرة





الصفحة الأولى في لائحة وقف "السلطانة مِهرمَاه"

(أرشيف وزارة الأوقاف، رقم-٢٨/K)



سيذهب الجميع ولن يبقى أحد على وجه الأرض لأن الأجل سيأتي لا محالة فلا باقي إلا الله ﷻ"[٢٣٦]

* * *

وقد أُنشِئتِ البناياتُ الموجودةُ في المجمّعِ -المقام على سفحِ هضبةِ السلطانِ- على نحوٍ متفرّقٍ فنجدُها موزَّعَةً من الشمالِ إلى الجنوبِ، وأما جامعَ الميناءِ -الواقعِ عند نقطةٍ مشرفةٍ ومطلّةٍ على الميدان- فإننا نجدُه في الكتاباتِ القديمةِ يُذكَرُ بصورةٍ أوسعَ تحتَ اسمِ جامعِ "السلطانة مِهرِمَاة"،[٢٣٧] ويتّضِحُ لنا من الكتاباتِ القديمةِ أنَّ المسافةَ التي كانت بين الجامعِ والبحرِ أقلُّ مما هي عليهِ الآن، وفي المصادر القديمةِ نجدُ عبارةَ الضفافِ والتي يُفهَمُ منها أن هذا الجامعَ قد أُنشِئَ على ضفافِ البحرِ، وبناءً على إحدى الرواياتِ التاريخيَّةِ فقد وَطِئَتْ قدما السلطان "القانونيّ" الأرضَ في النقطةِ الواقعةِ أمامَ سلالمِ الجامعِ حين وصلَ شاطئ "أسكودار" بقاربِهِ السلطانيّ لحضورِ مراسمِ افتتاحِ الجامعِ[٢٣٨].

ويذكرُ لنا كذلك "أوليا شلبي" في كتابه المعروفِ ما يلي:

"كان يتمّ الدخولُ إلى حَرَم هذا الجامعِ الواقعِ على ضفافِ البحرِ من خلالِ سلالمَ حجريّةٍ على الجانبين."

* * *

---

(٢٣٦) إسماعيل حقي قونْيَالي (*Konyalı*)، تاريخ "أسكودار (*Üsküdar*)" مع الآثار والكتابات المدونة، إسطنبول - ١٩٧٦م، الجزء الأول، ص ٢٣١.

(٢٣٧) يأتي ذكر جامع "السلطانة مِهرِمَاة" في حفريات " الوم (*Allom*) " حيث يتميز هذا الأثر بأنه ملاصقٌ للبحر.

(٢٣٨) الآثار التي استخرجت من حفريات جامع الوالدة الجديدة " السلطانة جولنوش (*Gülnuş*) " والذى شيد عام (١٧١٠م) تم إلقائها في البحر جهة ساحل منطقة "أسكودار"، لقد أقيم سيل ميدان الميناء والذي يتمتع بجمال بديع من قبل السلطان " أحمد الثالث " عام (١٧٢٨م) في هذه الساحة التي أصبحت ممتلئة حيث إن التخطيط الأخير لهذا الميدان والذى نجده عليه اليوم قد تم -في العصر العثماني- في عهد السلطان " أحمد الثالث "، وفي عام (١٩٧٠م) وفي أثناء إقامة قناة إلى جوار سبيل الميدان الذي يوجد اليوم استخرج من الأرض وعلى عمق مترين رمال بحر وأصداف محار بحرية، ("م. نَزمي خضكَانْ (*Nermi Haskan*)"، أسكودار على مر العصور، إسطنبول - ٢٠٠١م، الجزء الأول، ص ٢٦٥) أما الأقسام ذات المنحدر النازل - والتى كان يوجد معها السقف الذي يظهر في الحفريات القديمة – التي تقع بين السبيل والجامع فقد تم عملها في عهد السلطان (سليم الثالث).



النص العربي المكتوب على الباب الرئيس لجامع السلطانة مهرماه والواقع فى منطقة أسكودار

أسس بنيان هذا المسجد الجامع المشيد الأركان صاحبة الخيرات والحسنات درة تاج السلطنة العظيمة الشأن عصمة الملك والدنيا والدين خانم سلطان(*) خصها الله تعالى بمزيد الإحسان بنت خاقان الخواقين في الخافقين سلطان السلاطين في المشرقين عامر معمورة الأرض بالعدل والإحسان مؤسس بنيان الأمن والأمان لأهل الإيمان السلطان بن السلطان السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان خلّد خلافته خلود الزمان وتمّ بمنة المنان في شهر ذي الحجة الحرام من شهور سنة أربع وخمسين تسعمائة من هجرة النبي



(*) لم يذكر في الكتابة المدونة اسم "السلطانة مِهْرمَاهْ" التي أمرت بتشييد الجامع، وقد ذكر بعض صفاتها فقط حيث إن التقاليد الإسلامية لا تفصح في أغلب الأحيان عن أسماء السيدات سواء في الكتابات المدونة أو في سجلات الأرشيف وذلك كتعبير عن التوقير الكبير والاحترام الموجه نحو المرأة.

إن الكتابـةَ التـي كُتِبَـتْ باللغةِ العربيّـةِ الموجودةِ على البـابِ الرئيسِ الواقِـعِ في ميدانِ "أسكودار" تُشيرُ إلى أنَّ الأثرَ قد أُنشِئ من قِبل "السلطانة مِهْرِمَاهْ" ابنة القانوني في شهر ذي الحجة / يوليو سنة (٩٥٤هـ/١٥٤٨م).

براعةُ المعماريِّ "سِنَان" في هذا الأثرِ

وقد كانت معاصَرَةُ "السـلطانة مِهْرِمَاهْ" فنانًا كبيرًا بمسـتوى المعماريِّ "سنان" فرصةً ثمينةً بالنسبةِ للسيّدةِ السلطانة.

لقد أنشَـأ المعماريّ "سـنان" مجمّـع "السـلطانة مِهْرِمَاهْ" -والذي كان واحدًا من أوائلِ المجموعاتِ المعماريّةِ الهامّةِ التي شيَّدها- بالتزامنِ مـع إنشـاءِ مجمَّــعَ "الأميـرِ محمد"، حيث بـدأ بهذه المهـامّ المعماريّة بعدَ أنْ أصبحَ كبيرَ المهندسـين المعماريِّين، وقد ضمَّ مجمّـع "السـلطانة مِهْرِمَاهْ" عِدَّةَ أقسـامٍ مثل الجامعِ والمدرسـةِ الدينيّةِ ومدرسة للأولادِ ودارٍ لإطعامِ المحتاجيـن،[٢٣٩] إلـى جانـب المطبخِ وخـان، وإلى جوارِ هذه المنشـآتِ فقـد كانـت هناك أيضًا أعمـالٌ أخرى ملحَقَةٌ بالمجمّـع مثـلَ قنواتِ المياهِ والسبيلِ والمخزنِ والخلاءِ، ونجدُ أنه في الفتراتِ اللاحقةِ قد أضيفَ إلى المجمَّعِ قبرينِ إلى جانبِ حمامٍ مزدوجٍ يُرجّحُ أنه كانَ موجودًا قبلَ إنشاءِ هذين القبرين، كذلك نجدُ الكتاباتِ القديمةَ تشيرُ إلى وجودِ قصرٍ خشبيّ وغرفـةٍ صغيـرةٍ لتحديدِ أوقـاتِ الصلاةِ، لكن تعاقبَ الزمـنِ ومرورَ الأيامِ أتلفَ هذه الآثار فاندثرَ المطبخُ الخاصُّ بإطعامِ المحتاجين وكذلكَ الخانُ والقصرُ وغرفة تحديد الصلاة ولم يبق منها شيء[٢٤٠].

* * *

(٢٣٩) حيث كانت لائحة العمل بهذا المكان تقضي بتقديم الطعام لطلاب المدرسة وموظفي الجامع والفقراء والمسافرين ذهابًا وإيابًا والضيوف.

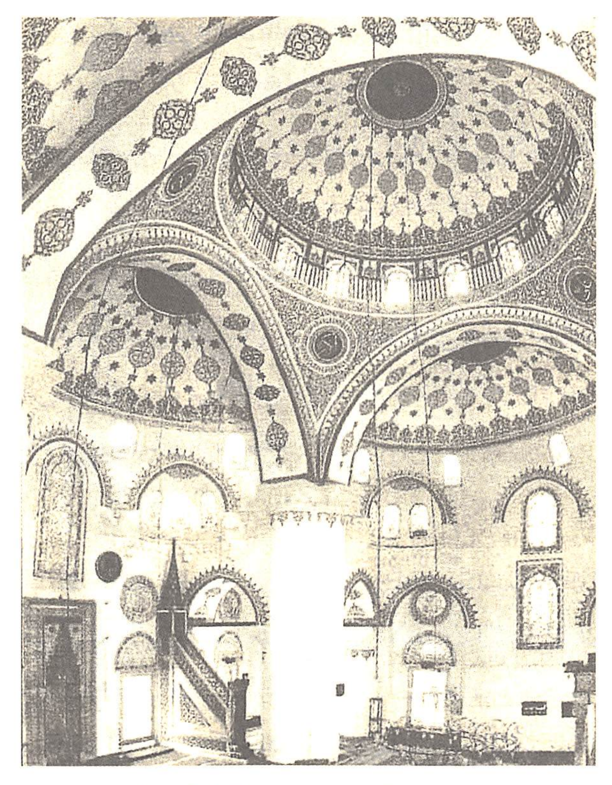
(٢٤٠) إسماعيل أُوزْمَانْ (*Orman*)، "مجمع السلطانة مِهْرِمَاهْ"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول – ٢٠٠٥م، الجزء الثلاثون، ص ٤٠.

قام "سِـنَان" بوضـع حجرِ الأسـاسِ من أجل بناءِ الجامعِ على ساحلِ "أسـكودار" الـذي يُمَثِّلُ أحدَ المعابِـرِ الهامةِ في العاصمـةِ، وبذلك يكونُ المعمـاريُّ "سِـنَان" قـد حافـظَ علـى طابـعِ إسـطنبولَ كمدينـةٍ نموذجيّةِ التصميـمِ، أمـا الدخولُ إلـى فناءِ الجامِعِ فيتمُّ من خـلالِ الأبوابِ الأربعةِ التي يُشْـرِفُ أحدُها على شارعِ "سـلمان آغا" والثاني على "ميدان الميناء" والثالـث على شـارع "ميناء الباشـا" والرابـع على المدرسـةِ الدينيّةِ، وفي وسـطِ فناءِ الجامعِ الذي يحيطُ به سـور من الحجـر المقطَّعِ والمنحوتِ توجـدُ ميضـأةٌ رائعـةٌ ذات عشـرين وجـهٍ مصنوعةٌ مـن الرخـام واقعةٌ في مواجهةِ البابِ الرئيسِ الفخمِ الخاصِّ بالجامـعِ، وتعلو هذه الميضأةَ شبكةٌ من الزخارفِ الهندسيّةِ، وهذه الشبكةُ يلفُّها من الأعلى إطارٌ عريضٌ يصوِّرُ زهرةَ السوسنِ، ويعلو ذلك كلَّهُ إطارٌ أسود مستديرٌ حولَ الميضأة مرصّعٌ بالرصـاصِ، ولا يفوتنـا أن نذكـرَ أنَّ هـذه الميضـأةَ تُعْتَبَرُ واحـدةً من أكثرِ الأماكنِ المخصَّصةِ للوضوءِ راحةً وتجهيزًا في إسطنبول.

* * *

وفي مكان الصُّفَّة بجامـع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" نجد رواقًا ذا خمسِ قِبابٍ تحملُها ستةُ أعمدةٍ من الرخامِ، وأمامَه نجدُ مظلَّةً منكَّسةً إلى الأسفل وواسعةً للغايةِ، وقد صُمّم القسمُ المسقوفُ من هذا الجامِـعِ كي يَقِيَ من سيتعبدون فـي صُفَّةِ الجماعة من الظروفِ الجويةِ القاسـيةِ؛ حيـث إنَّ الجامـعَ كان قد أُنْشِـئَ على مقربةٍ شـديدةٍ من البحر، ولـم تكن هناك إمكانيّةٌ لعملِ فناءٍ ذي رواقٍ كلاسيكيّ بسببِ ضيقِ المساحةِ الساحليّةِ التي بُنِيَ عليها الجامعُ.

* * *



منظر داخلي لجامع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" (أسكودار/إسطنبول)

وقد كتبَ شخصٌ يدعى "عثمان جلبي" بيتًا من الشعر باللغة العربية وبخط النسخ -عام (١٦٠٩م/١٠٢٠هـ)- على السوارِ المصنوعِ من النحاسِ الأصفرِ والموجودِ على العمودِ الرخاميّ الأخير، ذي القبّةِ الواقعِ إلى اليسارِ من مكان الصُفّة:

"لا يشعر فؤادك بالحزنِ بسببِ ضيقِ الرزقِ
إن الرزق فقط عند الله الكريم"

أما على العمودِ المجاورِ لهذا العمودِ الرخاميّ الأخيرِ فقد كُتِبَتْ الجملةُ التاليةُ "في الثاني من محرم عام (١٠٧٠هـ) ذهب السفراء إلى الشاه" ويوافق هذا التاريخ بالتقويم الميلادي عام (١٦٥٩م). [٢٤١]

وهذا التاريخُ الذي يشيرُ إلى إرسالِ سفراءَ في عهد "السلطان محمد الرابع" إلى شاهِ إيرانَ في الثاني من محرّم سنة (١٠٧٠هـ) نجده كذلك مدونًا ومثبتًا في المصادرِ التاريخيةِ[٢٤٢].

* * *

جامع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" من الجوامع ذاتِ المنارتين، كلا المنارتَينِ بهذا الجامعِ لها شُرْفَةٌ واحدةٌ متوجِّهَةٌ إلى الأطرافِ الشماليَّةِ من جسم البناء، كذلك نجد أن الأقسام التى تمثل قلب المئذنة بما فيها ما تحتَ الشُّرْفةِ وما فوقها هيَ أقسامٌ متعدّدة الزوايا تقترِبُ من الشكلِ الدائريّ، أما الجُدُر الخارجيّةُ الخاصَّة بشرفةِ كلِّ مئذنَةٍ فذاتُ حليّ متدلِّيَةٍ من السقفِ، في حين أن الأسوارَ الخاصَّة بهذه المآذن تأخذُ شكلَ الشبكةِ أو الغربالِ

(٢٤١) قُونْيالي، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٣.

(٢٤٢) إن " أوليا شلبي " فيما يخص الأوقاف يتحدّث عن وجود موظّفين مختصّين بالحفر على الأساور المصنوعة من النحاس الأصفر والتى توجد على الآثار الهامّة مثل الجامع والضريح، كما نجد على الأساور البرونزية كتابات تصوّر لنا الأحداث الهامة مثل زواج السلاطين والأمراء ووفاتهم وذلك في جوامع " السليمانية " و" شاهزاده باشي " وغيرها من الجوامع.

الحجريّ، أما الجزء الأعلى الذي يأخذ صورةَ المخروطِ فنجدُهُ حادَّ الشكلِ متناهي الدقَّةِ، ونجِدُ لكلٍّ من المئذنَتَينِ بابٌ ينفتحُ على الصُّفّة.

أما بابُ القِبلةِ المصنوعِ من حجرِ الكوفكِي(٢٤٣) المُقَطَّعِ والمغطّى من أعلاه بطبقةٍ من الرصاصِ فتوجدُ في قمَّتِهِ لوحةٌ منقوشةٌ من الرخامِ الأبيضِ(٢٤٤).

الساعةُ الشمسيَّةُ الموضوعةُ في القسمِ الجنوبيِّ

وعلى الحائطِ الذي في الطرفِ الأيمنِ من بابِ الفناءِ المقوَّسِ والمفتوحِ على شارع "سلمان آغا" توجدُ ساعةٌ شمسيَّةٌ كُسِرَ عقربُها تعودُ إلى عام (١٧٦٩م/١١٨٣هـ)، وهذه الساعةُ -التي تُعْتَبَرُ من أفضلِ الساعاتِ التي استطاعت أن تبقى حتى وقتِنا هذا- تُمَثِّلُ واحدًا من أكثرِ النماذجِ إبداعًا ضمنَ مجموعةِ الساعاتِ الشمسيَّةِ الرأسيَّةِ المركَّبةِ، وفي الزاويةِ السُّفليّةِ على اليمينِ في القسم العلويِّ للوحةِ الرخاميّةِ المثبَّتةِ على الحائط بسبعة مساميرَ معدنيّة توجدُ كتاباتٌ قصيرةٌ مكتوبةٌ بخطِّ الثُلثِ، أما القسم العلويُّ فنجدُ مكتوبًا عليه:

"أثر "ساعات زاده (*Saatzâde*)" محمد عارف المكلف بضبط الوقت"

أما في الزاوية الجنوبية فنجد مكتوبًا عندها:

"رسمه الدرويش "يحيى محيي الدين" المؤقَّت بالجامع الجديد."

---

(٢٤٣) أحد أنواع الحجارة التي تستخدم في البناء، يشتد صلابةً مع الزمن، وتوجد به فراغاتٌ صغيرةٌ، يسهل تشكيله، خفيف وذو لون فاتح.

(٢٤٤) عبد الله كُورَانْ (*Kuran*)، " مجمع السلطانة مِهْرِماه في أسكودار "، مجلة جامعة " بُوغَازْإيجِي (*Boğaziçi*) "، إسطنبول- ١٩٧٥م، الجزء الثالث، ص ٤٤.



الساعة الشمسية في جامع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" (أُسكودار/إسطنبول)

وفي السطر الأخير نجدُ عبارة السنّة السلطانيّة (١١٨٣هـ/١٧٦٩م)[٢٤٥].

* * *

وأمام الباب الذي يُفضي إلى هذه النقطة من فناء الجامع يلفت الانتباه وجـود منصّةٍ حجريّةٍ، كانت في السـابق موجودة بجانب "مرفأ أسـكودار الكبيـر"، ثـم نقلت إلى هذا الموضع لاحقًا، فكان السـلطان بعد أن يصل إلى "أسـكودار" ينزل من قارب السـلطنة، ثم يصعد درجات هذه المنصّة الحجريّة الرائعة كي يرتقي إلى سيارته.

* * *

أمـا بابُ الفِناءِ الذي يُفْضِي إلى شـارعِ "سـلمان آغـا" فنجدُ إلى يمينِهِ ضريحًا صغيرًا، حيث يوجدُ بهذا الضريحِ العديدُ من المقابِرِ التي تعودُ إلى عائلةِ "جاغالا زاده (*Cağalazâde*)"، ومن بينِ الذين دُفِنُوا في تلكَ المقابِرِ قبطانُ البحر "سـنان باشا" -أخو زوجِ "السـلطانة مِهْرِمَاهْ" وهو نفسُهُ الذي شـيَّد جامعًا باسـمه في منطقة "بشيكتاش" بإسـطنبول أسماهُ جامـع "سنان باشـا"- كذلك نجـدُ قبرَ "زهدي أفنـدي" الذي كان من أشـهر الخطاطين البارعين في عهد العثمانيين، كما يوجد هنا أيضًا قبرُ الشـيـخ "عبد الرحيم

(٢٤٥) الساعات الشمسية هي ساعات بسـيطة ذات مؤشر معدني يأخذ شكلًا يرتبط بحركة الشمس، وهذه السـاعات تظهر الوقت عن طريق تغير مكان هذا المؤشر فوق القاعدة الرخامية أو الحجرية أو المعدنية والتى تصنع بطريقة خاصة. وكانت هذه الساعات توضع على حوائط الجامع المواجهة للشمس من أجل تحديد أوقات الصلاة بشكل أكثر دقة. واعتبارا من أول صلاة بعد شروق الشـمس وهي صلاة الظهر فقد كانت في الغالب هذه الساعات الشمسية التي توضع في الجوامع تضبط من أجل العمل. وتوجد إلى جوار الخطوط الموجودة بهذه السـاعة الموجودة في جامع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" كتابة باللغة التركية العثمانية لأسماء الأبراج الفلكية مثل: العقرب والأسـد والميزان والسـنبلة والقوس والجدي. وأمام خط الظهر في هذه الساعة الشـمسـية يمكن أن نقرأ بوضوح العبارة التالية "خط الزوال" أما خط العصر فنقرأ أمامه عبارة "خط العصر الأول" و"خط العصر الثاني". ("نُصْرَتْ جَامْ (*Nusret Çam*)، الساعات الشمسية العثمانية، أنقرة، ١٩٩٠م، ص ٦٤ – ٦٥).



ميضأة جامع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" (أُسكودار/إسطنبول)



أفندي" -والذي كان معروفًا بشيخِ الأباظِيَّةِ أو شيخِ الأصفرِ- والذي يعودُ أصلُهُ إلى مدينةِ "قيصري (*Kayseri*)"[٢٤٦].

بساطةٌ تليقُ ببنتِ السلطانِ

كذلك نجدُ من مزايا جامعِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" أنه لم يخصَّصْ فيه مكانٌ لقبّةٍ نصفيّةٍ عند مدخلِهِ وذلك على عكسِ التصميمِ الذي نجدُ عليه جامعَ "شَهْزَادَه" -الذى أنشئ في العصر نفسه-.

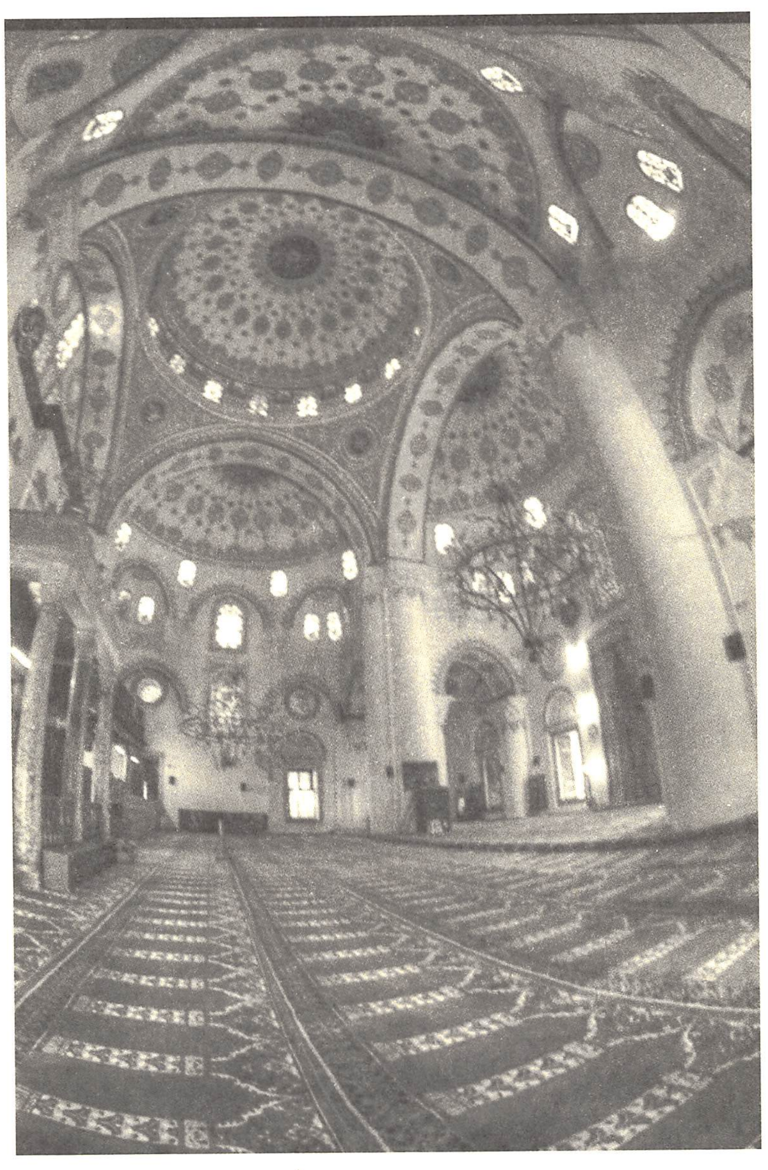
ويُعتبَرُ هذا الجامعُ أوّلَ الأعمالِ التي ميَّزتْ المعماريَّ "سِنَان" من حيثُ تصميمه للمكانِ بناءً على أسلوبهِ الشخصيّ، فقد أبدعَ وابتدع في عمارةِ المساجدِ العثمانيّةِ فِكرةً جديدةً، وهي ألا تنحصرَ مساحةُ المسجدِ على قدرِ مساحةِ وشموليّةِ القُبّةِ، بل كانت فكرتُهُ أن يزيدَ من مساحةِ المسجدِ أكثرَ من إطارِ القبّةِ، فلا يتقيَّد حجمُ المسجدِ بحجمِ قبَّته وإنما يتوسَّعُ فيه عرضًا كما يريدُ ويضعُ القبّةَ في الوسطِ دونَ أن يتكلَّفَ شمولَها للمسجدِ كلِّه، وفعلًا طبَّق "سنان" هذه الفكرةَ على هذا المسجد[٢٤٧].

ونجد القبابَ النصفيّةَ والقبّة المركزيّة التي تعلو الساحةَ الداخليّةَ المربع الشكل محمولةً على أقواس حادّةٍ مستندةٍ إلى حوائطَ ودعاماتٍ صُمِّمَتْ على شكلِ زهرةِ النفلِ، نلاحظُ أنَّ الساحةَ الداخليّةَ للجامعِ

---

(٢٤٦) كان الشيخ "عبد الرحيم أفندي" الذي يقع بيته في منطقة "أسكودار" يأتي أحيانًا إلى حضرة السلطان من أجل أن يفسر له الأحلام، وفي إحدى المرات فسر له هذا الشيخ إحدى الرؤى على النحو التالي: "سيلحق الضرر بجسدكم من قبل جماعة الإنكشارية، وحيث إنه ليس من الممكن أن يتم قتلهم جميعًا فعلى الأقل من الممكن أن يتم تغيير زيّهم الخاص وإزالة كلمتي "اللباد" و"عمامة الإنكشارية" من الوجود، إن هناك إشارةً وتنبيهًا بخصوص هذا الأمر من العالم الغيبي"، بعد ذلك أمر السلطان بإعدام الشيخ قائلًا: "لقد اختلّ عقلُه وأصبح كلامُه مصدرًا للفتنة".
حيث كان هذا في عام (١٦٣٧م). إن الأمر اللافت للنظر هو أن الشيخ "عبد الرحيم أفندي" قد تنبأ قبل مائتي عام من القضاء على طائفة الإنكشارية كيف إن هذه الطائفة ستكون في المستقبل منبعًا للخيانة والفساد اللذان سيهدمان الدولة العثمانية! (هاسكان، المصدر السابق، ص ٢٦٥).

(٢٤٧) " دُوغَانْ كُوبَانْ (*Doğan Kuban*) "، " مجمع مهرماه سلطان "، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول - ١٩٩٤م، الجزء الخامس، ص ٤٥٦.



منظر داخلي لجامع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" (أُسكودار/إسطنبول)

يغلِبُ عليها الضوءُ الخافتُ إلى أقصى درجة لعدمِ وجودِ عددٍ كافٍ من النوافذِ.

* * *

إن الزخرفةَ الأساسيّةَ التي في جامع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" عبارةٌ عن أعمالٍ فنّيّة قد رُسِمت بالقلم، وقد نَجَحت هذه الزخارفُ بأن منحتِ الجامعَ جمالَ وروعةَ رسومِ شرائطِ الزينةِ، ففي وسطِ قبّةِ الجامعِ نجدُ أمامَنا كتابةً تأخذُ شكلَ إطارٍ حيث تبدو تلكَ الكتابةُ ذاتَ لونٍ أصفر -ربما تكون مكسيَّةً بطبقةٍ من الذهب- على خلفيَّةٍ سوداء -بخطِّ الثلثِ الجليِّ المستديرِ- على نَمَطِ القرنِ السادسَ عشر(٢٤٨).

وفي قلبِ المساحةِ التي تقعُ بين الإطارِ المحيطِ بالقبَّةِ والأقواس التي تربُطُ القبةَ الرئيسةَ بالقِبابِ الجانبيّةِ؛ توجدُ بكلِّ ركنٍ من الأركان الأربعةِ لوحاتٌ كبيرةٌ مكتوبٌ عليها أسماءُ "أبو بكر" و"عمر" و"عثمان" و"علي" (رضي الله عنهم أجمعين) كما نجد الزجاجَ الملَوَّنَ والأعمالَ الفنيَّةَ الزجاجيَّةَ موزَّعةً في أماكنَ متعدِّدَةٍ من المبنى بحيث تُؤَمِّنُ إضاءةً خاصّةً للقسمِ الداخليِّ من الجامع.

* * *

إن الخاصِّيَّةَ التي تلاحَظُ في جامعِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" هي البساطة المطلقة، فخارج نطاقِ مبنى الجامعِ يندرُ وجودُ أعمالِ الزينةِ والنقشِ، وأما الحوائط الحجريّة المبنيّة بحجرِ (الكوفكى) -المقطع بدقة عالية وإتقانٍ محكم- فإننا لا نجدُ عليها أيَّ نوعٍ من أنواعِ الزينةِ على الإطلاق، أمّا منبرُ الجامعِ فيُعتبرُ واحدًا من أكثرِ النماذجِ المعبِّرةِ عن فنِّ نحتِ

(٢٤٨) إلخانْ أوزكَجَجي (*Ilhan Özkeçeci*)، نظرة على شكل الزينة في الأضرحة الموجودة بمجمع وجامع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" بمنطقة (أسكودار). الندوة الدولية عن "أسكودار". إسطنبول - ٢٠٠٨ م، الجزء الثاني، ص ١٠٢ - ١٠٣.

منظر داخلي لجامع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" (أُسكودار/إسطنبول)



الحجرِ، حيث استطاعت الأشكالُ الرخاميّةُ الهندسيَّةُ ذاتُ الشباكِ أن تقدِّمَ لنا منظرًا بديعًا في غايةِ الروعةِ والجمالِ.

* * *

كذلكَ يلفِتُ انتباهنا غيابُ أحدِ أشهرِ أشكالِ الزخرفةِ في ذلك العصرِ عن جامع "السلطانة مِهرِمَاه" ألا وهو استعمالُ الخزفِ، فقد بُنِيَ هذا المسجدُ في منتصفِ القرنِ السادسَ عشر وهذه هي ذاتُ الفترةِ التي كان بها فنُّ الخزفِ التركيِّ في قمَّةِ تألُّقِهِ وازدهارِهِ، لذلك فإن غيابَ الأعمالِ الخزفيَّةِ تمامًا عن جامع "السلطانة مِهرِمَاه" يُعتبَرُ دليلًا على الرغبةِ القويَّةِ التي كانت موجودةً عند بناءِ هذا الجامعِ في التركيزِ على البساطةِ المطلقةِ وعدم الخروجِ عن إطارها.

وعلى العكسِ من الميلِ إلى الزخرفةِ والزينةِ -والذي نجِدُه في كثيرٍ من الجوامعِ التي بنِيت في تلك الفترة- فإن ما نلاحظُهُ هو خلوُّ كافَّةِ أرجاءِ جامعِ "السلطانة مِهرِمَاه" من أيِّ شكلٍ من أشكالِ هذه الزخرفةِ، وقد كانت هذه البساطةُ هي ما أعطى الساحةَ الداخليَّةَ لهذا الجامعِ طابعًا خاصًّا، لكنَّنا على الرغمِ من هذا البعدِ عن الزخرفةِ الذي نجدُه في جامعِ "السلطانة مِهرِمَاه" فإنّنا نجدُ أنّ الأعمالَ الفنِّيَّةَ الزجاجيَّةَ الملوّنة الموجودةَ بالأجزاءِ الأماميّة السفليّة لنوافذِ الطابقِ العلويِّ لهذا الجامع تُعْتَبَرُ من الأعمالِ والنماذجِ الفريدةِ التي بقيت لنا من تراثِ القرن السادس عشر.

حيث إن هذه الزخارف التي رُسمت على النمط "الروميلي (*rumili*)"[٢٤٩] والنمط "خطائيلي (*hatâîli*)"[٢٥٠] الشرقي والتي نجدها

(٢٤٩) نمط شائع في الزخرفة يعتمد على أشكال الحيوانات والنباتات.

(٢٥٠) نمط من الزينة يظهر في صورة خطوط متقاطعة على سيقان الزهور المتنوعة.

علـى تلـك الأعمالِ الزجاجيّة سـواء أكانت شـفافةً أو خضـراءَ أو حمراءَ أو صفـراءَ أو زرقـاءَ أو بيضـاءَ فإنهـا تمثِّلُ لنا صورةً لشـخصيّةٍ فنّيّةٍ مميّزةٍ وتعبِّر لنا كذلك في نفسِ الوقت عن العصرِ العثمانيِّ الكلاسيكي[٢٥١].

بابٌ منقطعُ النظيرِ في الزخرفة

إننـا فـي القرنِ السـادسَ عشـر وما سبقَهُ لا نجدُ فـي الفـنِّ العثمانيِّ أعمـالًا فنّيّةً خشـبيّةً على أبواب الجوامـع الرئيسـة لكّننا نجـد ذلك النوعَ مـن الزخرفـة كان شـائعًا جدًّا علـى أجنحـةِ النوافذِ في نفسِ ذلـك القرنِ حيث كان يُصنَعُ هذا النوعُ في صورةِ أعمالِ هندسيّةٍ نجميّةٍ مزخرفةٍ على نمطِ الفنّ "الكُونْدَكَارِي (*kündekâri*)"[٢٥٢] ومع ذلك فإنك ترى في جامع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" نموذجًا منقطـعَ النظيرِ من أعمالِ الزخرفةِ الخشبيَّةِ على البـاب الرئيـس للجامـع، حيث تمثِّـلُ لنا هذه الزخـارفُ النموذجَ الأوحدَ للفنِّ العثمانيِّ من هذا النوعِ وعلى هذا الشكلِ.

إن البـاب الرئيـس في جامـع "السـلطانة مِهْرِمَاهْ" نجـده يحمِلُ ثلاثَ زخارفَ على الشـكلِ التقليديِّ، وتعلو هذه الزخارفَ كتاباتٌ متنوِّعةٌ، أما في الأقسام الوُسطى والسفْلى من هذا البابِ فتوجدُ زخارفُ هندسيّةٌ على طريقةِ الفنّ "الكُونْدَكَارِي"، ويلاحَظُ أنَّ البعضَ من هذهِ الزخارفِ الهندسيّةِ الصغيـرةِ يأخُذُ أشـكالًا نجميّةً، أما الحليّ الهندسـيّةُ الأخـرى التي توجدُ على البابِ -والتي كانت غالبًا ما تُصنَعُ من المعدنِ- فنراها هنا مصنوعةً من عاجِ الفيل، وإلى جانب الأجزاءِ ذات الأصالةِ المعدنيّةِ الموجودةِ على البـابِ فإننـا نجد أن مقبض البـاب الجميل يُظْهِرُ بوضوحِ فـنَّ "الباروك"،

(٢٥١) يِلْدِيزْ دَمِيزِإيزْ (*Yıldız Demiriz*)، جامع "السلطانة مِهرِمَاهْ" في أسكودار، دار نشر " صنعت دنياماظ (*Sanat Dünyamız*) "، إسطنبول، ١٩٨٠م، الجزء الرابع، العدد ٢٠، ص ٢٠.

(٢٥٢) أحد الفنون الجميلة التي تختص بالمشغولات الخشبية حيث يتم تعشيق قطعٍ خشبيّةٍ صغيرةٍ ودقيقةٍ مصنوعةٍ من أخشاب أشجارٍ صلبةٍ ونفيسةٍ ومقاومةٍ للرطوبة والحرارة ممّا يجعلها تعطي في النهاية تصميمًا هندسيًا.

كما نجدُ في الأقسامِ العليا والسفلى من القوائمِ الخشبيّةِ للباب زخرفةً خشبيّةً مختلفةً مطعَّمَةً على النمطِ الروميلي، حيث يعتبرُ هذا الشكلُ من الزينةِ والزخرفةِ من الأنماطِ التي لا نصادِفُها كثيرًا في أعمالِ الزينةِ التي تعودُ إلى القرنِ السادسَ عشر، وهكذا نرى أن هذا البابَ البديعَ الخاصَّ بجامعِ "السلطانة مِهْرِمَاه" يُعتبَرُ أثرًا فنيًّا عظيمًا يتميّزُ عن غيره من الأبواب التي تعودُ إلى ذلك العصرِ بما فيهِ من فنٍّ وإبداعٍ يجعله لافتًا للنظر. (٢٥٣)

* * *

بالإضافةِ إلى ما سبقَ فإنَّ هناكَ ملحوظةً أخرى تثيرُ الاهتمامَ فيما يتعلَّقُ بموضوعِ الزينةِ، فعند المدخَلِ الذي يُفْضِي إلى مكانِ الصُّفَّة نجدُ على باب المنارةِ الواقعِ إلى اليسارِ كتابةً مزخرفةً بخطٍّ كبيرٍ بارزٍ مكتوبٌ بها "لا إله إلا الله"، حيثُ لا تزال تمثل هذه الكتابة إلى اليوم عملًا فنيًّا منقطعَ النظيرِ من ناحيةِ فنِّ التطعيمِ والزخرفةِ، كما نجد أنه قد وُضِعَ بمنتهى البراعة أحجارٌ متنوّعةٌ ومختلفةٌ حمراءُ وملوّنةٌ في الفراغات التي حول الكلماتِ وبين الحروف(٢٥٤).

وباختصارٍ فإنَّ جامعَ "السلطانة مِهْرِمَاه" يُعتبرُ من الآثارِ القيّمة التي تركتْ طابَعَها على منطقة "أسكودار" وذلك بفضلِ بساطتِها وروعتِها وجلالِها الذي يليق ببنت السلطان.

ضريحانِ بلا تاريخٍ أو كتابةٍ عليهما

بالإضافة إلى المبنى الخاصِّ بجامع "السلطانة مِهْرِمَاه" نجدُ أنَّ هناك أيضًا ضريحانِ إلى جانبِ ما تبقّى لنا من آثارٍ، أحدُ هذين الضريحين

(٢٥٣) دَمِيزإيزْ، المصدر السابق، ص ٢١.

(٢٥٤) " دُوغَانْ كُوبَانْ (*Doğan Kuban*) "، " مجمع مهرماه سلطان "، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول - ١٩٩٤م، الجزء الخامس، ص ١٤٥٧؛ قُونْيَالي، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢١٦.

-والذي يقع في مواجهة البحر- يُعرَفُ بأنّه ضريحُ "سنان الدين يوسف باشا"، وبناءً على ما يذكرُهُ المؤرّخُ الفنيّ المرحوم "إسماعيل حقي قونيالي" فإنّ هذا الضريحَ قد دُفِن فيه أربعةُ أشخاصٍ، بنتٌ واحدةٌ وثلاثةُ رجال، ومن بين أولئك الرجالِ الثلاثة ابني السلطانةِ "مهرماه" من زوجها "رستم باشا" لكننا مع الأسفِ لا نصادفُ أيَّ تاريخٍ أو كتابةٍ تؤكّد لنا هذه المعلومات لا على باب الضريحِ ولا على النعوشِ.[٢٥٥]

أما الضريح الثاني والموجود في فِناء الجامع فهو ضريحُ الصدرِ الأعظمِ "إبراهيم أدهم صاكيزلي باشا"، وعلى باب هذا الضريح توجدُ الآيةُ الكريمةُ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وقد كتبت بزخرفةٍ بديعةٍ على طراز (جلي) مع تاريخ (١٣١٠هـ/١٨٩٢م)[٢٥٦].

وفي هذا الضريح نجد قبر "إبراهيم أدهم باشا" وابنه "غالب بك" إلى جانب ثلاثةِ أشخاصٍ من نفسِ العائلةِ.

* * *

وفي الزاوية الشمالية الغربية من جامع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" وإلى اليمين من مكان الصُّفَّة نجدُ نعشًا يعتبرُ هو الآخر واحدًا من أكثرِ الأعمالِ الفنّيّة المبهرةِ فيما يتعلّقُ بالزخرفةِ الخشبيّةِ على القبرِ، وفي الجهةِ الجنوبيّةِ من هذا النعشِ المُحاطِ بالسورِ المقضّبِ توجدُ كتابةٌ بخطٍّ كبيرٍ وواضح على شكلِ خنجرٍ يقفُ في وضعيّةٍ مائلةٍ بين حِلْيَتَينِ مزخرفتَينِ "إن هذا القبرَ يعودُ إلى "عثمان بك" ابن "رستم باشا" من زوجةٍ أخرى غير "السلطانة مِهْرِمَاهْ" والذي توفي عام (١٥٧٦م)"[٢٥٧].

(٢٥٥) أوزكَجَجي، المصدر السابق، ص ١٠٦.

(٢٥٦) أوزكَجَجي، المصدر السابق، ص ١٠٦.

(٢٥٧) أوزكَجَجي، المصدر السابق، ص ١٠٧.

خمسُ قِطَعٍ من النقودِ الفضِّيَّةِ للطالبِ المجتهد

إلى الشمالِ من جامعِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" تقعُ مدرسةٌ ذاتُ ستَّ عشرة غرفة، وفي كتاب "تذكرة الأنبياء" يُذكرُ أنَّ هذه المدرسةَ قد بناها المعماريّ "سِنَان"، وإذا كان من غير الممكن تحديدُ التاريخِ الذي أُنْشِئتْ فيه هذه المدرسةُ بِدِقَّةٍ فإن ذلك يرجِعُ إلى عدمِ وجودِ كتابةٍ على المدرسةِ، إلا أنَّ الشكلَ العامَّ للمبنى وخصائصَ تخطيطِهِ الهندسيّ -التي تشبه كثيرًا مدرسة "خَاصَكِي"- تُظْهِرُ لنا أنّ المدرسةَ والجامعَ اللذين يعودان إلى "السلطانة مِهْرِمَاهْ" قد تمَّ إنشاؤُهُمَا في وقتٍ واحدٍ وعلى التوالي فيما بين عامَيْ (١٥٤٠-١٥٤٨م)، إن هذه المدرسةَ -التي توجدُ على ارتفاعٍ يبلغُ (٤,٤٠) متر بالنسبة لمستوى سطحِ المنطقةِ الموجودِ بها "ميدانُ ميناءِ أسكودار" ولها أبعادٌ تقاربُ (٣٠ X ٣٠) متر- تتميّزُ ببناءٍ هندسيّ متجانسٍ يمتدُّ بشكلٍ دقيقٍ للغايةِ على المحورِ الشرقي الغربي[٢٥٨].

إن البابَ العاليَ والعظيمَ لهذه المدرسةِ -والذي ينفتحُ على فِناءِ الجامعِ- لا نجدُ عليه أيَّ كتابةٍ، أما قناطرُ وأقواسُ هذه المدرسةِ فقد صُنِعَت من الرخامِ الأحمرِ والأبيضِ، وعند العبور من الباب الرئيس لمدرسة "السلطانة مِهْرِمَاهْ" نجد فِناءً على شكلٍ مستطيلٍ تَتَوَسَّطه ميضأةٌ من الرخام، وفي مواجهةِ هذا الباب توجدُ قاعةُ التدريس، وهذه المدرسة التي بنتها "السلطانة مِهْرِمَاهْ" -والتي تُعْرَفُ باسم "المدرسةِ الرصاصيَّةِ" بسبب وجود تسع عشرةَ قبّةٍ بها، مغطاةٍ كلّها بالرصاص- تتميّز كذلك بأنَّ كلَّ الأحجارِ المستخدمةِ في بنائِها من حجرِ (الكُوفَكِي)[٢٥٩].

* * *

(٢٥٨) كُوزان، المصدر السابق، ص ٤٨.

(٢٥٩) خضكَان، المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ١٢٤١.

لقد كان هناك نظامًا بالمدرسـةِ يقضي -باسـتثناءِ الظروف ذاتِ العذرِ الشـرعيّ- بـأن يحصلَ المـدرِّسُ الـذي لا يخـلّ بواجبـاتِ وظيفتِهِ على خمسـين قطعـةِ نقودٍ فضّيّةٍ، كذلك فقـد كان يتمُّ صرفُ مبلـغِ خمسِ قِطَـعٍ فضّيّـةٍ لأكثرِ الطلابِ اجتهادًا بيـن زملائِهِم، كما كان يتمُّ منحُ قطعتين من النقـودِ الفضّيّـةِ إلـى كلِّ طالبِ مـن الطلابِ الأربعة عشـر الذين يواظبون على الدراسة في المدرسة ولا ينقطعون عنها إلا لعذرٍ، وفي أوقاتِ تناوُلِ الطعامِ كان الطلّابُ ينزلون من سـلالمِ بابِ المدرسـةِ حيثُ يتّجهون إلى مكانِ تقديمِ الطعامِ، لتناول الشوربة هناك، وقد اندثرَ هذا المكانُ ولم يبقَ منه شيءٌ في عصرِنا الآن[٢٦٠].

لقد تحوّلت هذه المدرسةُ من مركزٍ للعلمِ والخيرِ إلى مأوًى للمُدمِنين، وذلـك بعد الإهمالِ الشـديدِ الذي تعرَّضَتْ لهُ إثـرَ تطبيقِ القانونِ القاضي بإغـلاقِ الأضرحةِ والتكايا والمدارسِ الدينيّـةِ، حتى إن قِبابَها بدأت تنهارُ مـع مـرورِ الوقت، وحتى إن الدارَ التي كان يتمّ فيهـا تقديمُ الطعامِ مجّانًا -والتـي كانـت تقعُ إلى يسـارِ المدرسـة- تـمَّ هدمُها من قِبَـلِ رئيسِ حيِّ أسـكودار "عزت تشَـغْبَاز" بحجّةِ فتحِ الطريق، وفيمـا بين عامَي (١٩٥٨-١٩٦١م) تحـوّلَ مبنـى المدرسـةِ بعـد أن تـمَّ ترميمُه ليصبِـحَ تابعًا لوزارة الصحّـة بقـرارٍ مـن المديريّةِ العامّةِ للأوقـافِ، حيث صارَ مبنى المدرسـةِ بعدهـا وحدةً صحّيّةً اجتماعيّةً بحي "أسـكودار" لخدمـةِ الأطفالِ الرضَّـعِ وأطفـال المـدارس، أما فِناءُ المدرسـةِ فقـد تمَّ تغطيتُهُ بالزجـاجِ، في حينِ أنَّ قاعـةَ الـدرسِ قد تحوَّلتْ إلى مكانٍ للكشـفِ على المرضى، وفي عام (١٩٧٥م) تحوّلت المدرسة إلى مصحّةٍ لعلاج الأمراضِ النفسيّةِ، ويلاحَظُ

(٢٦٠) ضكّان، المصدر السـابق، الجزء الثالث، ص ١٢٤٢.

على هذه المدرسةِ أنّها تعرّضَتْ لتغييراتٍ كثيرةٍ من الداخلِ لكنَّها حافظت على شكلِها ورونقِها المعماريِّ من الخارجِ.(٢٦١)

وإلى اليوم لا تزال مدرسة "السلطانة مِهْرِمَاهْ" مستمرَّة في القيام بنشاطِها في صورة مركزٍ صحّيّ يحملُ اسمَ السلطانة "مهرماه" التي أنشأته قبلَ أكثر من أربعة قرون.

السبيل العام الذي تم تأجيره

وعند جهةِ القبلةِ بجامع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" حيث يلتقي المنحدرُ الكبير مع شارعِ "سبيل سلمان أغا" نجِدُ مدرسة الصِّبْيَان (أي: الكُتَّاب)، وهذه المدرسةُ -التي تُعتَبَرُ هي الأخرى من أعمال المعماريّ "سِنَان"- قد شُيِّدَتْ بالكامل من الحجرِ المُقَطَّعِ، إنَّ مدرسةَ الصِّبْيَان هذه التي أنشأَها "سِنَان" جعلها منقسِمَةً إلى قسمين متجاورينِ، قسمٌ صيفيّ وقسمٌ شتويّ وتعلوهما قبّةٌ، أما القسم الصيفيّ فيتميَّزُ بشكلٍ مربّعٍ ولا نجد أيّ كتابةٍ على بابهِ المقوّسِ الذي ينفتِحُ على فِناءٍ صغيرٍ وله نافذةٌ تتألَّفُ من جزءٍ واحدٍ وتطلُّ على المنحدَرِ وتأخذُ شكلَ صالونٍ كبيرٍ، وأمّا القسمُ الشتويّ من مدرسةِ الصبيان فتوجدُ في الجزءِ السفليّ منه نافذتان تطلّانِ على كلا الشارعينِ، في حين أن الجزءَ العلويَّ من هذا القسم توجدُ به نافذةٌ واحدةٌ، ويلاحَظ أنَّ تلك النوافذَ الموجودةَ سواء في القسمِ العلويّ أو السفلي قد صنعت من الجِبْسِ،(٢٦٢) كما تتميَّزُ النوافذُ السفليّةُ بأنها محاطةٌ بسورٍ ذي قضبان حديديّة ذات شكلٍ مكوّرٍ، وأيضًا يتميَّزُ القسمُ

(٢٦١) ڤونْيَالي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٩٠.

(٢٦٢) حيث كان هذا القسم مفتوحًا من جهته الأمامية فقط ويوجد في الجهة الداخلية أو الخارجية من البناء، كما كان يتميز بصفة عامة بوجود قوس أو قنطرة معمارية.

الشتويّ من هذه المدرسةِ بشكلِه الخارجيّ الذي يختلفُ تمامًا عن الشكلِ الخارجيِّ الخاصِّ بالقسمِ الصيفيِّ الموجودِ بنفسِ المدرسةِ. (٢٦٣)

وإلى اليوم لا تزالُ مدرسةُ الصبيان تلك تقومُ بنشاطِها وإن كان في صورةِ مكتبةٍ عامّةٍ للأطفال.

* * *

أمّا السبيل العامّ الذي أنشأتْهُ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" في نفسِ العامِ الذي تمَّ فيه بناءُ الجامعِ الذي يحمِلُ اسمَهَا فنجدُهُ في داخلِ الصالونِ الكبيرِ الموجودِ تحتَ القسمِ الشتويِّ من مدرسةِ الصبيان، حيث يقعُ هذا السبيل في مكانِ التقاءِ الشارعين عند جهةِ القِبْلَةِ الموجودةِ بالجامعِ، لقد تعرَّضَ هذا السبيل للتدميرِ على مرِّ الزمانِ إلى أنْ تمَّ ترميمُهُ من قِبَلِ السلطان "محمود الثاني" سنة (١٨٣١م) لكنّ هذا السبيلَ الذي تمَّ إنشاؤهُ بالكاملِ من الحجرِ المقطَّعِ لم يبقَ لنا منه الآنَ أيّ شيءٍ أو أَثرٍ أو علامةٍ أو كتابةٍ توضِّحُ لنا تاريخَ إنشائِهِ أو تاريخ ترميمه، وفي مكانِ الكتابةِ القديمةِ نجدُ أنه قد وُضِعَتْ بعدَ ذلكَ كتابةٌ جديدةٌ بعنوانِ "سبيل السيّدةِ الثالثةِ" وذلك بتاريخ عام (١٧٢٨م)!(٢٦٤) وقد كان للسبيل الذي أنشأتْهُ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" حوضٌ وواجهةٌ مزخرفةٌ من حجرينِ متلاصقينِ، كما تمَّ عملُ ونَحْتُ ثلاثةِ تجاويفَ أحدُها داخلَ قوسِ الصالونِ واثنانِ في الجدارينِ الجانبينِ. (٢٦٥)

(٢٦٣) خضكَانْ، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٩١٨.

(٢٦٤) إن سبيل "السيدة الثالثة" والذى شيد من قبل " شرمي رابعة قادن (*Şermi Râbia Kadın*) "الزوجة الثالثة السلطان أحمد الثالث" يقع في الزاوية التي يتلاقى فيها شارع جامع "الشيخ" بشارع "سلمان أغا بستان" وذلك في منطقة "أسكودار"، وقد تهدم هذا السبيل بشكلٍ كاملٍ في عشرينيات القرن العشرين وذلك بعد أن كانت حالته قد تدهورت بفعل الزمن، وفي عام (١٩٣٥م) تم وضع الكتابة المدونة التي كانت تخص هذا السبيل والتي كانت ملقاة على الأرض على سبيل "السلطانة مِهْرِمَاهْ" الذي تمّ تغييرُ مكانه فيما بعد. (أورمان، المصدر السابق، الجزء الثلاثون، ص ٤٢).

(٢٦٥) خضكَانْ، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٩١٨.

إن الصالـونَ الموجودَ به هذا السـبيل التاريخـيّ قد تمَّ تأجيرُهُ من قِبَلِ مديريّةِ الأوقافِ سـنة (١٩٦٧م)، ومـع الأسـفِ فإنَّ مكانَ هذا السـبيل قد تحوَّلَ اليومَ إلى مكانٍ يُستخدَمُ كمحلٍّ لبيعِ العسلِ!

* * *

وتحتَ الحائطِ الرئيسِ لمجمَعِ "السـلطانة مِهْرِمَاهْ" والذي يُطِلُّ على ساحةِ "مِيناءِ أسكودار" نجدُ هناكَ سبيلًا آخرًا، حيث يبدو أمامَنا قوسُ هذا البنـاءِ الأثـريّ البديـعِ الذي يمثِّلُهُ لنا هذا السـبيل مزخرفًا بالرخامِ الأبيضِ والورديِّ، كذلك يتميَّزُ هذا الأثرُ بما عليهِ من كتابةٍ بديعةٍ مزيّنةٍ برسوماتٍ بـارزةٍ تصوِّرُ ورقَ الشـجر والورودِ وأزهارِ (التوليـب)، وهذه الكتابةُ التي نراها على السـبيل عبارةٌ عن ثلاثةِ أسـطرٍ مكتوبةٍ بأكثرِ نماذجِ خطِّ الثُلُثِ روعةً وجمالًا في ذلك العصر:

ما أجملَ نبعَ ماءِ الحياةِ هذا

فمن كانت قلوبُهم عطشى ليشربوا على الدوام من هذاالماءِ الجاري من هذا السبيل الذي بنَتْهُ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" والتي تُشبهُ الملكة "بلقيس"

لقد أراد الله أنْ يجريَ ماءَ الحياةِ هذا على يديها في هذا التوقيت.

إن تلـك الكتابـةَ الموضوعةَ على هذا السـبيل التاريخـيّ والموجودةَ مباشـرةً أمـامَ الميضـأةِ وإن كانـت تُشـيرُ إلـى أن السـبيل قـد أنشِـئَ عام (١٦٨١م/١٠٩٢هـ)، إلا أنَّ هذا السـبيل قد أُنشِـئ في الحقيقةِ مـع الجامعِ في نفسِ الوقتِ، حيث إنَّ هذه الكتابةَ قد وُضِعَتْ بعد عملية الترميم التي أجريت للسبيل عام (١٦٨١م)[٢٦٦].

(٢٦٦) على الرغم من أن "ميدان الميناء" لم يكن قد تمت توسعته في القرن السـابع عشر فإن الحائط الشمالي لفناء الجامع عند بنائه لم يكن يطلّ مباشرةً على مضيق البـسفور، أي إن رصيف الميناء كان يقع بين الجامع والبحر، ونجد أن رواية الرحالة "أوليا شلبي" عن وجود سلّمٍ في شرق فناء الجامع يستخدم من أجل أن يوصل بالميدان تعتمد على هذا التفسير، بالإضافة إلى ذلك فإن الحافة المزيّنة التي توجد أسفل إفريز السبيل المزخرف برسم لزهرة الزنبق قد شُقّت إلى نصفين بسبب الكتابة المدونة التي تم وضعها، إن هذا الإفريز الذي يعود إلى القرن السادس عشر لا نراه يحقق انسجامًا شكليًا بين اللوحة المكتوبة وبين الحواف المزينة. (كوران، المصدر السابق، ص ٤٩).

القصرُ العظيمُ المُشَيَّد على هضبةِ السلطانِ

قامتِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" بتكليفِ المعماريِّ "سِنَان" ببناءِ قصرٍ عظيمٍ على الهضبةِ المطلَّةِ على مضيقِ "البوسفور" خلفَ المجمَّعِ الخيريِّ، حيث احتلَّ هذا القصرُ بملحقاتِهِ مساحةً واسعةً للغايةِ، ولقد تعرَّضَ هذا القصرُ مع الوقتِ إلى التدميرِ والخرابِ لدرجةِ أنَّهُ قد صارَ في الأزمنةِ الأخيرةِ يُستخدَمُ كساحةٍ للعبِ كرةِ القدمِ، ولم يتبَقَّ لنا من هذا القصرِ في السنواتِ الأخيرةِ سوى المكان الذي كانَ مخصَّصًا كمطبخٍ بالإضافةِ إلى المدخنةِ والحمامِ، حيث بإمكاننا اليوم أن نرى بقايا هذا القصرِ في الجانبِ الأيمنِ من قطعةِ الأرضِ التي كانَ مقامًا عليها، وبعدَ أن أخذَ هذا القصرُ العظيمُ اسمَ بنتِ السلطانِ فقدْ أصبحَ يطلق على تلك الهضبة والمنطقة كلها اسم "هضبة السلطان" ولقد كان "رستم باشا" من بعد عام (١٥٥٣م) عندما تولَّى منصبَ الصدرِ الأعظَمِ للمرَّةِ الثانيَةِ وحتى وفاتِهِ عام (١٥٥٥م) يُقيمُ في هذا القصرِ الصيفيِّ الذي يعودُ إلى "السلطانة مِهْرِمَاهْ" ويَقبعُ فوقَ هضبةِ السلطان.

النزلُ الكبيرُ الذي تمَّ تفجيرُه بالديناميت

في ساحةِ الميناءِ وفي مواجهةِ سلالمِ مدرسةِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" المفضيةِ إلى الساحةِ يوجدُ نزلٌ كبيرٌ للمسافرين قام ببنائِهِ المعماريّ "سِنَان" مع الجامع، حيث نجدُ أنَّ هذا النزلَ كان يُعْرَفُ في المصادرِ التاريخيّةِ باسمِ "الخان الرصاصِيّ"، أما لدى الشعب فقد كانَ هذا النزلُ يسمَّى باسم (خان الفاتح)، وقد تميَّزَ بناءُهُ هذا النزلِ بالشكلِ الرباعيّ كما نَجِدُ أنه قد شيّدَ كذلكَ من الحجرِ المقطَّعِ المتساوي.

وفي كتابِهِ الشـهيرِ "سـياحت نامـه (*Seyahatnâme*)" يذكـرُ لنا الرحَّالةُ "أوليـا شـلبي" أنَّ منطقةَ "أسـكودار" كان بها أحد عشـر نزلًا للمسـافرين أمّا أحدُها فيقـعُ على سـاحلِ البحرِ الـذي يُطِلّ عليه الجامـعُ الواقـعُ على رأسِ الميـناءِ، حيث يشـبِهُ هذا النـزُلُ الكبيرُ القلعةَ المتينةَ، فيتَّسِـعُ لإيواء المسـافرين مـع جيادهـم كما يضمُّ كذلك مائةَ موقـدٍ ومائةَ طاولةٍ، وهذا النـزلُ عبارةٌ عن مسـكنٍ مغطى بالكامل بالرصاصِ وهـو مفتوحٌ للقادمينَ والعابرينَ ليقدِّمَ لهم المأوى دونَ مقابلٍ[٢٦٧].

ويُعتَقَـدُ أن هـذا النـزلَ الكبيرَ قـد أُعيـدَ تخطيطُهُ من جديـدٍ في عهدِ السلطان "سليم الثالث" ليستخدَمَ كمخزنٍ للقمحِ، وفي حين كان يبدو لنا هذا النزلُ -في الصورِ الفوتوغرافيّة التي تعودُ إلى النصفِ الثاني من القرنِ الثامنِ عشر- بنافذةٍ تطلُّ على الهضبةِ وسطحٍ مائلٍ مزدوجٍ، فإننا نجدُهُ قد تحوّلَ في عشرينيّاتِ القرنِ العشرين إلى خرابٍ، أمّا ما تبقّى من مبنى هذا النـزلِ فقـد تمَّ تدميرُه على يدِ "عزّ الدين تشـغبار" الذي كان يعملُ كرئيسٍ لحيّ "أسكودار" عام (١٩٣٠م).

دارُ إعدادِ الطعامِ التي هُدِمَتْ بحجَّةِ شق الطريقِ

مـن بينِ مبانِ مجمـع "السـلطانة مِهْرِمَاهْ" يوجـد أيضًا مبنى تمّ تكليف المعماري "سِـنَان" بإنشـائه وهو المبنى الـذي يضمّ دار السـلطانة مِهْرِمَاهْ لإطعـام الفقراء وغرفة إعداد الطعام (بالتركيـة: "طَبْخَانَه (*Tabhane*)")[٢٦٨] وعلى الرغم من أن هذا الأثر الذي لم يتبقَّ لنا منه شيء إلى الآن لا يمكن كذلـك تحديد مكانه بشـكلٍ دقيقٍ، إلا أنه يُعتقَـدُ أن مكانَه كان في الزاوية

---

(٢٦٧) خضكَانْ، المصـدر السـابق، الجزء الثاني، ص ٩٧٩.

(٢٦٨) كلمة "طَبْ (*Tab*)" تعني بالفارسية الحركة والقدرة، أما كلمة "طبخانه" فهي تشير إلى مشافى العصر القديم. وخلال العصر العثماني كان يوجد في إسطنبول وحدها حوالى عشرين " طبخانه " أنشئت تقريبًا إلى جانب كلّ جامعٍ كبيرٍ بحيث كانت هذه المؤسسة توفّر الملجأ والحماية للمحرومين.

اليمنى من البقعة التي يلتقى عندها شـارع "المدرسـة الرصاصيّة" بشـارع "ميناء الباشـا"، وبناءً على الرسـم الهندسـي للمبنى فقد كان يوجد سـبيلٌ فـي الطـرف الأيمـن لبـاب المدخل، وقبل هـذا البـاب كان يوجد مدخل إلـى مـكان تنـاولِ الطعام وهو مغطًى بقبّـةٍ كبيرةٍ، أمـا الجانب الأيمن من المبنى فقد كان ينقسـم إلى قسـمين، أحدهما فيه المطبخ، والقسـم الآخر فيـه فرنٌ من أجلِ إعدادِ أحدِ أنواعِ الخبزِ المسـمَّاةِ "فـودلا (*Fodla*)"(٢٦٩)، ولقـد كان هذا القسـمُ من المجمَّـع الخيريِّ مغطًـى بقبّتَينِ صغيرتين بكلِّ منهمـا مصبـاحٌ معلّقٌ بالسـقفِ، وإلى الخلـفِ من دارِ إطعـامِ المحتاجينَ وعلى الشارعِ كانتْ تقـعُ مخازنُ للذخيرة تتكوَّنُ من ثلاثةِ أقسام.(٢٧٠)

وقد خصَّصَ "السلطانُ القانونيُّ" و"السلطانة مِهْرِمَاهْ" العائداتِ القادمةَ مـن بعـضِ القرى الموجودةِ فـي الجانـبِ الأوروبّيّ والتي تعـودُ ملكيّتُها إليـهِ لتكونَ أموالُهـا مخصَّصَةً من أجلِ الإنفاق على هذه الدارِ المخصَّصَةِ لإطعام المحتاجين.

ويقولُ لنا الرحالةُ "أوليا شـلبي" في كتابِه الشـهيرِ "سياحت نامه" وهو يحدِّثُنا عن دورِ إطعامِ المحتاجين الموجودةِ في منطقةِ "أسكودار" موضِّحًا أن هذه الدور تبدأُ بدارِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" لإطعام المحتاجين والتي يحكي لنا عنها ما يلي:

> "في دارِ "السـلطانة مِهْرِمَاهْ" لإطعـامِ المحتاجين والتي توجَدُ عنـد مقدمةِ الميناءِ كان يُقدَّمُ الطعامُ لكلِّ شـخصٍ مرَّتَين كلَّ يومٍ، وفي كلِّ مرَّةٍ كانت تقدَّمُ للفردِ صينيّةٌ نحاسـيّةٌ فيها شـوربةُ القمحِ وخبزٌ مـع شمعةٍ لكلِّ ليلةٍ، كما كان يُقدَّمُ لكلِّ جوادٍ علفٌ كصدقةٍ

(٢٦٩) نوع من الخبز يصنع من الدقيق ذي النخالة، وكان هذا الخبز يأخذ شكل فطيرة مفلطحة وكان يُقدَّم في الدور القديمة المخصصة لإطعام المحتاجين حيث كان يُقدَّم بها هذا الخبز للطلبة والموظفين والفقراء.

(٢٧٠) خضكَانْ، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٩٨٦.

بـلا مقابـل، وإذا ما بقيَ الضيـفُ لأكثرَ من ثلاثة أيـامٍ فلا يقدَّمُ له شيءٌ، حيث كانَ هذا هو شرطُ الوقفِ."(٢٧١)

وهذا يعني أنَّهُ لا يجوزُ للفردِ أن يظلَّ أكثرَ من ثلاثة أيّام في دارِ إطعامِ المحتاجين، فالمرْءُ لا يمكنُ أن يُعتَبَرَ ضيفًا لأكثرَ من ثلاثة أيام.

* * *

وفـي يـوم العشـرين مـن تشـرين الأول/أكتوبـر مـن عـام (١٧٢٢م) اندلعـت النيـرانُ من أحدِ الدكاكيـنِ المجاوِرَةِ لجامـع "السـلطانة مِهْرِمَاهْ" في "أسـكودار"، ولم تقتصـرِ النيرانُ على المنـازلِ والحوانيتِ التي كانت بجـوارِ الجامِـعِ بل امتـدّتْ أيضًا إلى دارِ إعـدادِ الطعامِ التي أُنشِـئَتْ من قِبَلِ "السـلطانة مِهْرِمَـاهْ"،(٢٧٢) كذلكَ فقد امتدَّتْ النيرانُ إلى السـوقِ وإلى ورشةٍ لتصنيـعِ الأحذيةِ بالإضافةِ إلى حمَّامٍ صغيرٍ حيث احترقت كلُّ هذه الأماكن نتيجةً لهذا الحريقِ. (٢٧٣)

وقد شُيّدتْ أبنيةٌ جديدةٌ على أرضِ دارِ إطعامِ المحتاجين التي صارت خرابًا، ومن المحتملِ أنَّ الأنقاضَ التي هُدمت عام (١٩٣٦م) أثناءَ توسعةِ الطريـقِ،(٢٧٤) والتي ربُّما كانت تشـكِّل مبنى دار إطعـامِ الفقراءِ بالنظرِ إلى رسمِها الهندسيِّ-ربّما كانتْ هيَ- مطبخ دارِ الإطعام بالوقف الذي أنشأته "السلطانة مِهْرِمَاهْ". (٢٧٥)

أمّا الحمّام المزدوجُ الذي أنشـأتْهُ "السـلطانة مِهْرِمَاهْ" فلم يتسنَّ لأحدٍ أن يتأكّد من ارتباطِهِ بالوقفِ بشكلٍ واضحٍ، ولكنَّه يُذْكَرُ في بعضِ المصادرِ

(٢٧١) قُونْيَالي، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٤٥.

(٢٧٢) كان هذا الجزء من السوق مخصّصًا لبائعي الأحذية والنعال.

(٢٧٣) مصطفى جَزَاز، الكوارث الطبيعية والحرائق التي دمرت المباني في مدينة إسطنبول في العصر العثماني، بحوث ودراسات تاريخية عن الفن التركي الجزء الأول، إسطنبول - ١٩٦٣م، ص ٣٥٠.

(٢٧٤) كُونْيَالي، يذكر أن بقايا المبنى مع بقايا خان القوافل قد هدمت عام (١٩٣٠م).

(٢٧٥) أُوزْمَانْ، المصدر السابق، الجزء الثلاثون، ص ٤١.

التاريخيَّـةِ ويوصَـفُ بأنَّهُ كان حمَّامًا صغيرًا، وهذا الحمامُ قد تمَّ هدمُهُ عام (١٩٩٤م) وأقيمَ مكانُهُ مبنى يُستخدَمُ اليوم كدكّان ولم تعدْ تربُطُهُ -باستثناءِ شكلهِ الخارجيّ- أيّ علاقةٍ بأصلِ المكان. (٢٧٦)

عـلاوةً علـى ذلك نجدُ أن الأبنيةَ الخشـبيّةَ التي كانت أوّلًا في إحدى نواحـي الفِنـاء المطلّـةِ على شـارعِ "سـلمان آغـا" قد احترقـت في عصرِ السلطانِ "عبد المجيد" (١٨٣٩-١٨٦١م)، أما مبنى الساعة (تعيين الوقت) فقد أُمِرَ بإزالتِهِ عام (١٩٥٦م) بدعوى إعادةِ تخطيطِ المكان!

مجمّع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" في "أَدِرْنَه قَابِي"

بعـد فتـرةٍ تتراوحُ مـا بينَ العشـرةِ والعشـرينَ عامًا من بنـاءِ المجمَّـعِ الخيريّ الذي أمرت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" بإنشائهِ في منطقةِ "أسكودار" قامت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" كذلك بتكليفِ المعماريّ والفنانِ الشهيرِ "سِنَان" بإنشاءِ مجمّـعٍ آخرَ يحمِل أيضًا اسمَها، حيث نجدُ أنَّ هذا المجمَّـعَ الثاني قد شُيِّدَ في "أَدِرْنَه قَابِي" في الجهةِ الداخليّةِ لأسـوارِ (تيودوسـيوس الثاني) وذلكَ بالقربِ تمامًا من بابِ القلعةِ المعروفةِ باسم "باب أديرنة"، وبالإضافة إلى الجامــعِ الـذي يتضمّنُهُ هذا المجمَّــعُ الخيريُّ والذي اسـتمرَّ بناؤه ثلاث سـنواتٍ فقد كانَ يوجدُ كذلك ضمنَ ذلك المجمّـعِ الخيريّ مدرسـةٌ دينيّةٌ وحمّامٌ مزدوجٌ ومدرسـةٌ للصبيانِ وسـوقٌ تضمُّ عددًا كبيرًا من الحوانيتِ، هذا إلى جوارِ ضريحٍ وسبيلٍ عامّ.

وكمـا يُفْهَـمُ من الأمرِ المُرْسَـلِ إلى قاضـي إسـطنبول "برفيز أفندي" فإنّ المسـؤولَ عن الأوقافِ الصدرَ الأعظمَ السـابقَ "قره أحمد باشـا" كانَ قـد أخـذَ في إعدادِ وتجهيزِ ما يلزمُ من أجلِ بناءِ جامعٍ بالقربِ من "أَدِرْنَه

(٢٧٦) أوزمَانْ، المصدر السابق، الجزء الثلاثون، ص ٤١.

مخطط جامع ومدرسة "أَدِرنَه قَابِي" (إسطنبول)



قَابِي"، إلا أنّه لم يتمَّ السماحُ ببناءِ هذا الجامِعِ لأنّه كان قد تقرّرَ في نفسِ هذا المكانِ أن يتمَّ إنشاءُ جامعٍ آخر يحمِلُ اسمَ ابنةِ السلطان، وقد تمَّ الانتهاءُ في عام (١٥٦٦م) من بناءِ هذا الجامعِ الذي ابتدأ إنشاؤه عام (١٥٥٣م)، أما لائحةُ البنودِ التي بمقتضاها يتمُّ العملُ في هذا الوقفِ فقد نُظِمَتْ وتمَّ إقرارُها بين عامي (١٥٧٠-١٥٧١م).[٢٧٧]

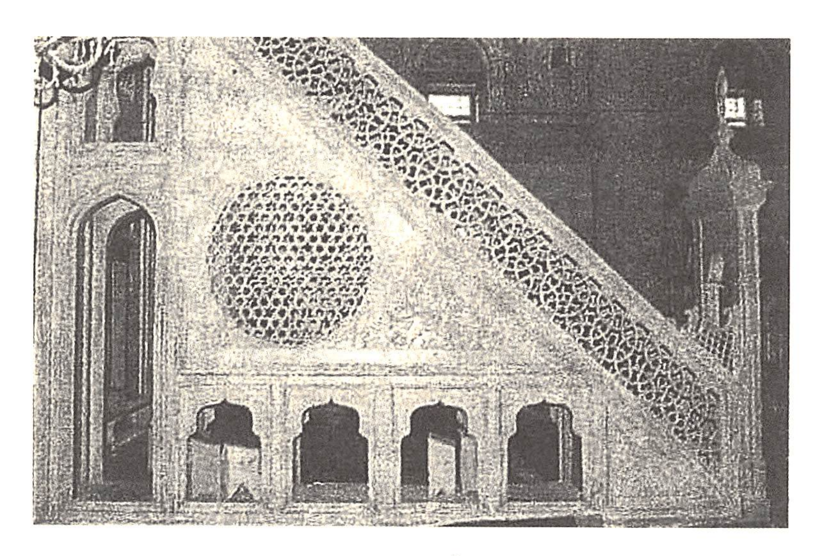
* * *

إنّ جامعَ "السلطانة مِهرِمَاهْ" الموجودَ في "أَدِرْنَه قَابِي" يحتلُّ مكانةً خاصّةً في فنِّ المعماريِّ "سِنَان"، فتصميمُ البناءِ الخاصِّ بهذا الجامعِ يمثِّلُ مع "السليميّة" -بل ربَّما حتى يمثِّلُ أكثرَ من السليميّة- العبقريّةَ الفريدةَ الموجودةَ في تصاميمِ المعماري "سِنَان"، إنَّ الفنَّانَ الكبيرَ "سِنَان" قد تمكَّنَ من رفعِ القبّةِ الكبيرةِ التي يبلغُ قطرُها عشرين مترًا والتي تستنِدُ إلى نظامٍ مربّعٍ حاملٍ للبناءِ بحيثُ جعلَهَا محمولةً على كلِّ المبنى وليسَ فقطْ على طارةٍ معدنيّةٍ أو خشبيّةٍ بل جاءَ رفعُها بالاشتراكِ مع كلِّ نظامِ القوسِ المعماريِّ الحاملِ للبناءِ، لقد استطاعَ "سِنَان" أن يجعلَ بناءَ الجامعِ يبدو سواءً من الداخلِ أو من الخارِجِ وكأنَّهُ على شكلِ قفصٍ معماريٍّ في غايةِ الروعةِ، كذلك فقد نجحَ "سِنَان" في الوقتِ نفسِهِ في أن يخلُقَ من القبّةِ -التي تأخذُ شكلًا شبيهًا بالمربّعِ ومن داخلِ مجموعةِ الأقواس- صورةً تبدو وكأنّها ستارةٌ مضيئةٌ، حيثُ استخدمَ "سِنَان" في ذلك عددًا كبيرًا للغايةِ من النوافذِ، وهكذا فإنَّ ما أنجزَهُ المعماريُّ "سِنَان" وما أحدثَهُ من تأثيرٍ -بواسطةِ هذا القفصِ المعماريِّ الذي يجسِّدُهُ أمامنا هذا المبنى المصنوعِ من الحجرِ والقرميدِ والمغطّى بقبّةٍ- يُعتبَرُ قمّةَ ما يمكنُ الوصولُ إليه وغايةَ ما يمكنُ إبداعُه في فنِّ العمارة.[٢٧٨]

---

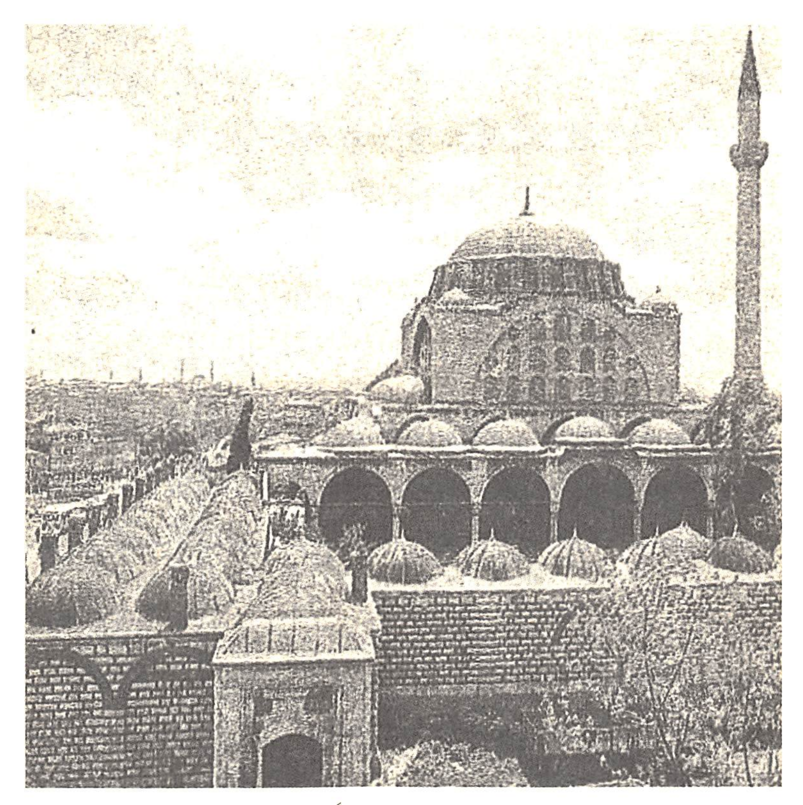
(٢٧٧) سَماوِي أَيِجَه (*Semavi Eyice*)، "مجمع وجامع أَدِرْنَه قَابِي (*Edirnekapı*)"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - ١٩٩٤م، الجزء العاشر، ص ٤٤٦.

(٢٧٨) كُوبَان، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٤٥٤.



منبر جامع "أَدِرْنَه قَابِي" (إسطنبول)





جامع ومدرسة "السلطانة مِهْرِمَاهْ" (أَدِرْنَه قَابِي/إسطنبول)

جامعٌ مضيئٌ وواسعٌ

يمكـن الدخول إلى فناء جامـع "السـلطانة مِهْرِمَـاه" الواقـع في منطقة "أَدِرْنَه قَابِي" من خلالِ السـلّمِ الموجودِ أسـفل البناءِ العالي الذي يقـعُ إلى جوارِ غُرَفِ المدرسةِ الدينيّةِ بسببِ كونِهِ مرتفعًا عن مستوى الشارعِ، وهذا الفِنـاءُ الذي يُشـبِهُ فناءَ جامِـعِ "صوكوللو محمد باشـا" الواقـعُ في منطقةِ "كديرجـا" نجدُهُ محاطًا من ثلاثِ جوانبَ بالأروقةِ، أما الطرقُ القادمةُ من الأبوابِ الموجودةِ في الزوايا الثلاثِ الأخرى من الفِناءِ فنجدُها تلتقي عند الميضأةِ الموجودةِ في الوسـطِ، حيث تقـعُ هذه الميضأة في وسـطِ الفِناءِ ولها حوضٌ واسـعٌ وجميلٌ من الرخامِ وقد غطّاهُ سقفٌ رخاميٌّ مستندٌ إلى ستة عشرَ عمود رخاميّ(٢٧٩).

إن مكانَ الصُّفّةِ بجامـعِ "السـلطانة مِهْرِمَاه" ينقسـمُ إلى سـبعةِ أقسـام نجدُها مغطاةً بقبّةٍ، أمّا أقواسُ الأروقةِ فتستندُ إلى أعمدةٍ، حيث نلاحِظُ أنَّ اثنينِ من هذه الأعمدةِ مصنوعٌ من الجرانيت أمّا بقيّة الأعمدةِ فمنَ الرخامِ.

* * *

تتميّـزُ شـرفةُ المئذنـةِ الوحيـدةُ بجامـعِ "السـلطانة مِهْرِمَـاه" الموجودِ فـي منطقةِ "أَدرنـه قابي" بأنّها قد بُنِيَتْ من الحَجَـرِ المُقَطَّعِ،(٢٨٠) كما نجدُ أنَّ مئذنةَ الجامِـعِ تأخُذُ شكلَ مخروطٍ مصنوعٍ من الرصاص، وكما يلاحَظُ

(٢٧٩) أزدَمْ يُوجَلْ (*Erdem Yücel*)، " جامع أَدِرْنَه قَابِي "، موسوعة إسطنبول، إسطنبول - ١٩٦٨م، الجزء التاسع، ص ٤٩٢٦.

(٢٨٠) كانت الجوامع التي تؤسسها والدات وأبناء السلاطين في العصر الكلاسيكي ذات منارتين، لكن جامع "السلطانة مِهْرِمَاه" الموجود في منطقة " أَدِرْنَه قَابِي " شذَّ عن هذه القاعدة، وإذا كان المعماري "سِنَان" قد أراد أن يضع جانبًا القواعدَ المتعارفَ عليها عند بناء جوامع السلاطين -وذلك من خلال الاكتفاء بمنارةٍ مرتفعةٍ للغاية مع قبّةٍ ضخمةٍ ذات خطوطٍ جانبيةٍ رائعةٍ وفريدةٍ في طرازها- فإنه بالتأكيد قد أراد أن يبعث لنا برسالة يفهم منها روعة ما يشير إليه. (كوبان، المصدر السابق، المجلد الخامس، ص ٤٥٥).

بوضوحٍ في القسمِ البارزِ من قاعدةِ المئذنةِ فإنها رُقّقت لاحقًا بعدَ أن كانتْ سميكةً في أوّلِ الأمرِ، وعلى حينِ كان من اللازمِ إعادةُ إنشائِها بشكلٍ يتّفِقُ مع المقياسِ الأساسيّ لها بعدَ انهيارِها في زلزالِ عامِ (١٨٩٤م) إلا أنها بُنِيَتْ دقيقةً أيضًا مثلَ مآذنِ القرنِ التاسعَ عشرَ، أما البراويزُ التي في أسفلِ الشرفةِ فقد زُخرفتْ في نمطِ القرنِ السادسَ عشر(٢٨١).

* * *

وتأخذُ الساحةُ الداخليّةُ لجامعِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" الموجودِ في منطقةِ "أَدرنه قابي" شكلًا مستطيلًا، وبها محفلٌ للسلطانِ وزخارفُ يدويّةٌ كما تتميّزُ تلك الساحةُ الداخليّةُ بمنظرٍ واسعٍ ومضيءٍ نظرًا لوجودِ مائتين وأربعِ نوافذَ إضاءةٍ -جبسيّةٍ وعاديّةٍ- أمّا محرابُ الجامعِ المصنوعُ من الرخامِ الأبيضِ فتوجدُ عليه كتاباتٌ وتزيّنُهُ نجمةٌ ذهبيّةٌ ومسنّناتٌ رخاميّةٌ سلّميّةُ الشكلِ إلى جانبِ ثمانيةِ صفوفٍ من الرخام على شكلِ الجليد المتدلّي من السقف، كذلك نجدُ أنَّ منبرَ الجامعِ قد صُنِعَ هو الآخرُ من الرخامِ الأبيض، وأمّا أسوارُ الجامعِ فتأخذُ شكلَ شبكةٍ تتوسّطُها عقدةٌ مزيَّنَةٌ برسوماتٍ هندسيّةٍ ونجميّةٍ، وأما قمّةُ المِنْبَرِ فذاتُ رأسٍ شبيهٍ بقطعةِ البقلاوةِ وتستند إلى أربعةِ أعمدةٍ من الرخامِ الملوَّنِ بالأخضرِ والأبيضِ، نجدُ كذلكَ أنَّ الكرسيّ الخشبيَّ في الجامعِ مزخرفٌ بأشكالٍ هندسيّةٍ ومزيَّنٌ بزخارفَ مطعَّمَةٍ بالصّدَفِ. (٢٨٢)

ترميمُ الجامعِ بدأَ في عهدِ "مَنْدَرَس"(٢٨٣)

في كتابِ "تاريخ رشيد" يذكرُ أنّ قبابَ جامعِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ"

(٢٨١) أَيجَه، المصدر السابق، الجزء العاشر، ص ٤٤٧.

(٢٨٢) لجنة، جوامع " فاتح " والآثار التاريخية الأخرى، إسطنبول - ١٩٩١م، ص ١٦٦.

(٢٨٣) هو عدنان مندرس (بالتركية: *Adnan Menderes*) (١٨٩٩م- ١٧ سبتمبر ١٩٦١م) كان رئيسًا للوزراء بين عامي (١٩٥٠ و١٩٦٠م). أعدمه العسكريون شنقًا بعد انقلاب سنة (١٩٦٠م) مع اثنين من أعضاء مجلس وزرائه. (المترجم)

قـد انهـارتْ فـي الزلزالِ الكبيـرِ الذي وقعَ عـام (١٧١٩م)، كمـا انهارتْ كذلكَ قبابُ المدرسـةِ الدينيّةِ، أما "إحتفالجي (*İhtifalci*) ضيا باشا" فيذكر أنّ قسـمًا كبيرًا من الجامعِ والمدرسـةِ الدينيّةِ والضريحِ ومدرسةِ الصبيان قـد تهـدَّمَ مرّةً أخرى في زلزالِ عام (١٨٩٤م) وتهدَّمت وتسـاقطت نصفُ المنـارةِ أيضًا، ومـع سـقوط هذه الأجزاء المنهارةِ علـى القباب التي تعلو مكان الصُّفّة بالجامع فقد تسـبَّبَ ذلك السـقوطُ في انهيارِ قسـمٍ من هذه القباب إلى جانبِ تصدُّعِ قسمٍ آخرَ من الجامع[٢٨٤].

يقـول "قونيالـي" أنـه قد تمّ البـدءُ في ترميـمِ الجامـعِ عـام (١٩٠٧م) وتـمَّ تخصيـصُ مبلـغِ عشـرين ألف ليرة ذهبيّـة مبدئيًا، ولكـن مـع إعلانِ المشـروطيّةِ[٢٨٥] فقـد أُعْلِـنَ عن توقُّـفِ عمليّةِ الترميم حيـثُ وصلَ الأمرُ بعد ذلكَ إلى أنَّ المدرسةَ الدينيّةَ والحمامَ والضريحَ ومدرسةَ الصبيان قد تحوَّلتْ في الأربعينيّاتِ من القرنِ العشرين إلى أنقاض.

واعتبـارًا مـن عـام (١٩٥٦م) فقد بـدأتْ عمليّـةُ ترميمِ هـذا الجامعِ التاريخـيّ أثنـاءَ شـقّ طريـقِ "أَدِرْنَه قَابِـي" وذلك في إطـارِ "برنامجِ ترميمِ الجوامـعِ القديمـةِ" الـذي تبنَّـاهُ رئيسُ الـوزراءِ "عدنان منـدرس (*Adnan Menderes*)"، إلا أنّ عملياتِ الإصلاحِ والترميمِ قد امتدَّت لسنواتٍ طويلةٍ.

* * *

الفِناء الكبيرُ لجامعِ "السـلطانة مِهْرِمَاهْ" يأخذُ شـكلًا مسـتطيلًا حيث تبلـغُ أبعـادُهُ ٥٧ X ٢١ متـر، كذلك نجـدُ أنَّ الأطرافَ الثلاثةَ لهـذا الفِناءِ محاطةٌ من الأمامِ بحُجُراتِ المدرسةِ الدينيّةِ ذاتِ الأروِقَةِ، حيث نجدُ في أحـدِ الطرفين اثنتي عشَـرَة غرفة أمّا في الطرف الآخرِ فتوجد عشـرُ غُرَفٍ

(٢٨٤) أيجَه، المصدر السابق، الجزء العاشر، ص ٤٤٧.

(٢٨٥) المشروطية: اصطلاح عثماني أطلق على فترة التحول من الحكم الملكي الوراثي إلى الحكم بالدستور.

على الترتيبِ، ويُعْتَبَرُ القِسْمُ الذي بِهِ قاعةُ الدروسِ أهمّ علامات المدرسة الدينيّةِ، ويُفْهَمُ من ذلك أنَّ الدروسَ كانت تُدَرَّسُ في الجامعِ، وإذا نظرْنَا إلـى اللائحـةِ التـي تُنَظِّمُ العمـلَ في الوقفِ نجـدُ بها أنّ المدرسـة الدينية تحتوي على سـبع عشـرة غرفةٍ، وبهذا الشـكلِ يتَّضِحُ أنَّ بقيَّةَ الغُرَفِ لم تكنْ مسـتخدَمَةً، واللوائحُ التي تعودُ إلى أيلول/سبتمبر من عام (١٩١٤م) نَجِدُ بها إشـارةً إلى أنَّهُ كانَ من المتاحِ أن يسـكُنَ ويقيمَ طالبانِ بكلِّ غرفةٍ من غُرَفِ المدرسةِ التي ذُكِرَ أنها تبلُـغُ العشرين غرفةً، وفي عام (١٩١٨م) خُصِّصَتِ المدرسةُ الدينيَّةُ لتُصْبِحَ مأوى لضحايا حوادثِ الحريقِ، كما تَمَّ استخدامُها لفترةٍ وجيزةٍ أيضًا كمشفى.(٢٨٦)

ضريحُ "سميز أحمد باشا"

فـي الجنوب الغربي من جامـعِ "السـلطانة مِهْرِمَـاهْ" وفي منتصف بَهْوِ الجامـعِ توجد مدرسـة للصبيان أُنشِـئتْ إلى جوارِ الضريـحِ، حيث نجدُ أنَّ تلـك المدرسـةَ قد صمِّمَـتْ بحيثُ تكونُ على هيئةِ مسـاحتين، إحدى هاتينِ المسـاحتينِ ذاتُ قُبَّةٍ، والأخـرى ذاتُ قَبْوٍ، وعندما ننتقلُ من خلالِ الممرِّ الذي يَقَعُ بينَ غُرَفِ المدرسةِ الدينيّةِ والقِسْمِ الذي توجَدُ به المنارةُ الأخرى نجدُ في الواجهةِ مباشرةً بابَ المدرسةِ المزيَّنِ بالأحجارِ الحمراءِ والبيضاءِ والذي يتميّزُ بقوسٍ مسـتديرٍ، ونجدُ أن هذه المسـاحاتِ مرتبطةٌ مـع بعضِها البعضِ من خلالِ بابٍ له عتبةٌ من الرخام ومصنوعٌ من خشبِ الجَوزِ عليه رسوماتٌ هندسيَّةٌ متداخلةٌ.

ويُظهرُ تصميمُ المدرسةِ والضريحِ سويًّا أنهما أُنْشِئا بأمرٍ من "السلطانة مِهْرِمَاهْ"؛ وأن الضريحَ كانَ لأجلِ عائلتِها، أمّا مدرسةُ الصبيان فقد أُنشِئَتْ كعملٍ خيريّ.

(٢٨٦) أيبجه، المصدر السابق، الجزء العاشر، ص ٤٤٨.

لقد أمكنَ إنقاذُ مدرسةِ الصبيان هذهِ من الانهيارِ من خلالِ عمليّةِ الترميمِ التي أُجريَتْ لها في ستينيّاتِ القرنِ العشرين وذلك بعد أن كانت قد تحوّلتْ إلى حالةٍ مزريةٍ لسنواتٍ طويلةٍ، ويخبرنا "إبراهيم حقي قونيالي" أن الكتابةَ التاليةَ كانتْ موجودةً في وقتٍ سابقٍ حيث دُوِّنتْ بخطٍّ بديعٍ على الحائطِ الذي يقعُ في مواجهة الشارع:

"قامت بإنشائها السلطانة مِهْرِمَاة،

مدرسة الأولاد الابتدائية."

إلا أن هذه الكتابة لا بدّ وأنها تعود إلى تاريخ حديث.(٢٨٧)

* * *

وفي الضريحِ المجاورِ لمدرسةِ الصبيان والذي نجدُهُ يأخُذُ شكلًا مستطيلًا وكان مغطّى في البدايةِ بسقفٍ خشبيّ يوجد قبرُ "سميز أحمد باشا" الذي كان زوجَ السلطانة "عائشة هماشاه (*Hümâşah*)" ابنة "السلطانة مِهْرِمَاة"، حيث نجدُ ذلكَ القبرَ إلى جوارِ قبورٍ أخرى لشخصيّاتٍ من العائلة، وقد انتهى الحال بالضريح -الذي يُعتبر من أعمال المعماري "سِنَان"- في السنواتِ الأخيرةِ إلى حالةٍ مزريَةٍ جعلتْهُ يبدو وكأنَّهُ قد صار خرابةً، حيث نجد أن أسقُفَ الضريح قد صارت مهدَّمةً، أما ما به من توابيتَ حجريةٍ فأصبحت مبعثرةً، وقد ظلَّ الحال كذلك إلى أن تمَّ ترميمُ هذا الضريح مع مدرسة الصبيان في ستينيّاتِ القرنِ العشرين، لكنَّ الضريحَ ما زالَ إلى يومِنا هذا على هيئةِ أربعةِ جدران وذلك بسبب عدمِ بناءِ سقفٍ له حتى الآن.

وفي فِناءِ الضريح يوجد كذلك قبرُ "خاقاني (*Hakânî*) محمد بك" الذي ألّف كتاب "حلية النبي" ﷺ حيث يُعتبر هذا الكتاب من أشهرِ الأعمال الأدبيّة الدينيّة التي خُطَّت باللغة التركية في القرن السادس عشر الميلادي(٢٨٨).

(٢٨٧) أيفِه، المصدر السابق، الجزء العاشر، ص ٤٤٨.

(٢٨٨) أزدَمْ، المصدر السابق، الجزء التاسع، ص ٤٩٣٢.

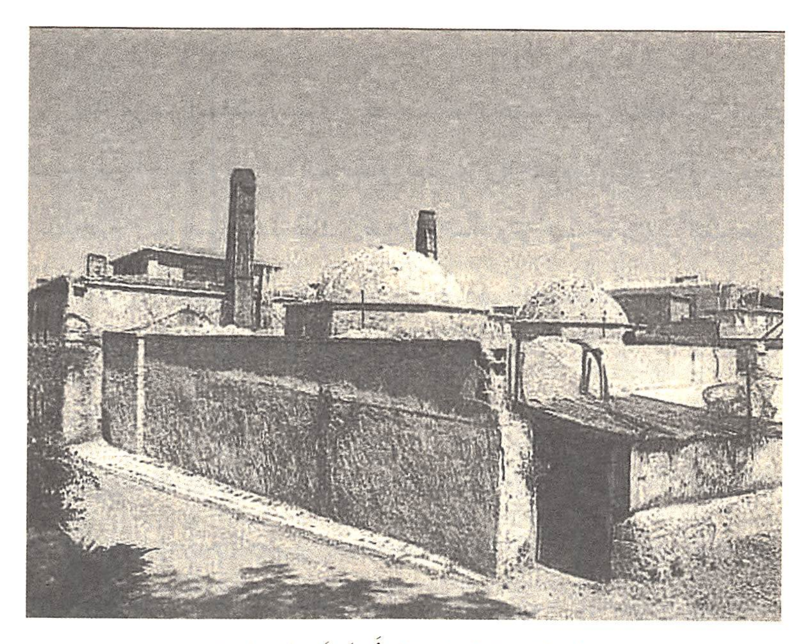
الحمامُ المزدوجُ الذي تحوّلَ إلى ورشةٍ لتصنيعِ الخيوطِ

بنـاءً علـى ما يُفهَمُ من الأمرِ الصادرِ بتاريخ سـنة (١٥٦٥م) والذي تمَّ إرسـالُهُ إلى قاضي إسـطنبول فقد أُنشِـئ كذلك حمامٌ مـزدوجٌ قربَ مبنى جامـعِ "السـلطانة مِهْرِمَاهْ" وذلك من جهةِ القِبلةِ، والحمامُ الذي يُعتبَرُ من الأبنيـةِ التابعةِ للمجمَّـع الخيريّ نجده يقـعُ في الطرفِ الأيسـرِ من شـارع "فـوزي باشـا" الذي يربِط اليـوم منطقةَ "فاتـح" بمنطقة "أَدِرْنَـه قَابِي"، أما القسـمُ الخاصُّ بالرجالِ في الحمامِ فيقـعُ في الجهةِ المطلَّةِ على الشـارع، فـي حينِ أنَّ القسـمَ الخاصَّ بالنسـاءِ يمكـنُ الدخولُ إليه من بـابٍ جانبيّ يقـعُ فـي الجهةِ الجنوبيَّةِ، أما أسـقُفُ هذا الحمام التـي تعلوهُ والمحمولةُ على أعمدةٍ خشـبيّةٍ فقد شُـيّدَتْ لتحلَّ محلَّ القبابِ التي تهدَّمَتْ من جرّاءِ الزلـزال، وقـد تمَّ بيـعُ هذا الحمامِ المـزدوجِ في فترةِ العصـرِ الجمهوريّ وأصبـحَ غيـرَ تابعٍ لمديريّـةِ الأوقافِ، حيثُ صارَ قسـمٌ من هـذا الحمامِ يُسـتخدمُ كمخزنٍ، وقسـمٌ آخر كمسكنٍ، وقد انتهى الأمر بهذا الحمام في أواسطِ الستيناتِ من القرن العشرين إلى أن تحوّلَ إلى خرابة.

لقـد تـمَّ تحويـلُ قسـمٍ -كان يُسـتعملُ في الأصـلِ لخلـعِ الملابسِ بالحمامِ- إلى ورشة لتصنيـع الخيوط، وذلك بعد أن ظلّ مدّةً طويلةً على هيئةِ حطام، إلا أنه وفي نهايةِ السـتينات من القرنِ العشـرينِ عادَ العملُ به من جديدٍ بعد أن تمَّ ترميمُه من قِبَلِ مالكِ المكان.

* * *

وفـي الكتابـة المدونة بتاريـخ (١١٤٢هـ/١٧٢٩م) على السـبيل العامّ الذي أنشـأه "جاغالزاده (*Cağalazâde*) إبراهيم بك"، والذي نجدُه قد بُنِيَ



حمام "السلطانة مِهْرِمَاهْ" (أَدِرْنَه قَابِي/إسطنبول)

إلـى جِـوارِ حمَّامِ "السـلطانة مِهْرِمَاهْ" يذكر أن هذا السـبيل قد بُنِيَ من قِبل "السلطانة مِهْرِمَاهْ" -لكن وبعد فترةٍ من الزمن تعرَّضَ هذا السبيل للحريقِ والتخريـبِ والدمـار إلى أن توقَّـفَ عن العمل تمامًا، فقـامَ بعد ذلك أحدُ أولادِ الواقفينَ وهو "إبراهيم بك" ببناءِ هذا السبيل من جديد ليُكَمِّلَ الخيرَ الذي بدأته السلطانة، وليَحِلَّ هذا السبيل الجديدُ محلَّ ذلك القديم(٢٨٩).

***

لقد أمَرَتْ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" بجلبِ الماءِ خصِّيصًا من منطقةِ "كوتشوك كوي" من أجلِ تزويدِ هذا المجمَّـعِ الخيريِّ والحمامِ بالمياهِ اللازمة، وقد استُخْدِمَ هـذا الماءُ بعـدَ ذلك أيضًا في إمدادِ وتزويـدِ جامِعَي "آتيك علي باشـا" و"نيشـانجي" إلى جانبِ تزويدِ كثيرٍ من الصنابيرِ والمواضئِ بالماءِ، وقـد ظلَّـت قناةُ الماءِ تلـك التي جُلِبَتْ من منطقة "أَدِرْنَه قَابِي" مسـتخدَمَةً حتى ثلاثيناتِ القرن التاسـع عشر(٢٩٠).

وفي اللائحةِ التي تُنَظِّمُ عملَ الوقفِ نجد أن هناك اثنين وسـتين دكَّانًا في سـوق المجمَّـعِ الخيريِّ، حيث نجدُ أنَّ هناك ثلاثةً وعشـرين دكانًا من هذه الدكاكين قد أُنشِـئت تحتَ مستوى سـطحِ فِناءِ الجامـعِ بحيثُ كانت تُجاوِرُ الحوائطَ الشـماليّة الشرقيّةَ والشماليَّةَ الغربيّةَ من الفِناءِ، ومعنى هذا أن تلك الدكاكين لم يتمّ بناؤها أثناءَ عمليّةِ التجديدِ والترميمِ للجامـعِ وإنما هي مبنيّة مـع الجامـعِ أساسًا، أما الدكاكينُ الأخرى فقد بُنِيَتْ جهة الحمام تحت سـطحِ الفِناءِ الخارجيِّ، ولقـد خُصِّصَت عائدات هذه الدكاكين من المال من أجل الإنفاقِ على المجمَّـعِ الخيريّ.

(٢٨٩) كُوبَانْ، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٤٥٤.
(٢٩٠) كُوبَانْ، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٤٥٦.

قناةٌ للمياهِ تحتَ الأرضِ بتكلفةِ خمسين مليون في مكة

في العصرِ العثمانيّ كان من الشائعِ أن تكونَ سيّداتُ القصرِ في المقدِّمةِ وإلى جانبِهِنَّ زوجات الوزراءِ والولاةِ والأغنياءِ وميسوري الحال وكل شرائح المجتمع بما في ذلك زوجات الفقراء وذلك في مسألةِ التبرُّعِ بما لديهنَّ من عقاراتٍ وممتلكاتٍ ومبالغَ نقديّةٍ لخدمةِ المشروعاتِ الخيريَّةِ، ومن بين هذهِ المشروعاتِ الخيريّةِ كانت تلك الأوقافُ الكبيرةُ التي خُصِّصَتْ من أجلِ خدمةِ الحرمينِ الشريفينِ وتلك الأماكن المقدَّسَةِ التي عاش فيها سيدنا الرسول ﷺ، ولقد استغلت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" ببراعةٍ ونشاطٍ الفرصةَ التاريخيَّةَ التي سنحَتْ لها من أجلِ مساعدةِ الناس اللذين يعيشون في تلك البلاد، حيث تمكَّنَتْ من أن تنجِزَ خدماتٍ عظيمةً في هذه البقاع المقدسة. (٢٩١)

* * *

وفي السنوات التي تلت ستينيات القرن السادس عشر تعرَّضَت قناةُ المياه التي تسمى "عَيْن زُبَيْدَة"(٢٩٢) -والتي كان قد تـمَّ تجهيزُها في مكةَ المكرمةِ من قِبَلِ السيدة "زبيدة" زوجةِ "هارون الرشيد" الخليفةِ العباسيّ- إلى الفيضاناتِ والعواصفِ الرمليّةِ ممّا أدّى إلى عدمِ استعمالِها، وقد بادرَ

(٢٩١) كانت السيدة الأميرة ابنة السلطان " مراد الثاني " هي أولى السيدات من بين نساء القصر العثماني التي تشيد وتخصص وقفًا من أجل خدمة الحرمين الشريفين.

(٢٩٢) لقد تمكنت "السيدة زبيدة" التي عرفت أعمالها الخيرية المتعددة من أن تجلب المياه من الفرات إلى مكة المكرمة وذلك بعد أن أنفقت ما يوازى مليونًا وسبعمائة ألف قطعة ذهبية في عامي (٨٢٨ – ٨٢٩هـ) وبذلك تكون "السيدة زبيدة" قد استطاعت أن تجد إلى حد ما حل لمشكلة المياه التي كانت تقع سواء في عرفات وقت موسم الحج أو في مكة طوال العام. (مصطفى يلجه (*Bilge*) " عين زبيدة "، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - ١٩٩٢م، المجلد الرابع، ص ٢٧٩).

شـريفُ مكّةَ عام (٩٧٠هـ/١٥٦٢م) إلى إرسالِ خطابٍ إلى عاصمةِ الدولةِ العليّـةِ، حيـث عرضَ في هذا الخطابِ تقريرًا حـول ذلك الموضوعِ وأكّدَ على ضرورةِ إصلاحِ مثلِ هذه القنوات، وبناءً على هذا الطلبِ من شريفِ مكّةَ فقد أمرَ "سـليمان القانوني" بما يلزمُ من أجلِ القيامِ بعمليّةِ الإصلاحِ التـي تحتاجُهـا تلك القنـوات، كما أمرَ السـلطانُ كذلكَ بحسـابِ التكلفةِ الماليّةِ اللازمةِ من أجلِ القيامِ بهذهِ المسـألةِ، كما شـكّلَ السلطانُ من أجلِ ذلك لجنةً تضُمُّ قاضي مكة "عبد القادر ابن علي مغربي" ومعه أيضًا "خير الدين بك" القائمُ بأعمالِ جدّة.

وقد قامَ قاضي مكة بعملِ تقريرٍ عرضَهُ على "السـلطان سـليمان" ذكر فيـه أنّـه يلزمُ مبلـغ ثلاثين ألف قطعـة ذهبيّة من أجل إصلاحِ قنواتِ المياه وإزالـةِ العوائـقِ التي تحولُ دونَ ذلك وأيضًا من أجلِ عملِ قنواتٍ جديدةٍ للمياهِ يتمُّ الإعداد لها[٢٩٣].

وعندما وصلَ هذا التقريرُ إلى إسـطنبول قرَّرت "السـلطانة مِهْرِمَاهْ" أن تتكفَّـلَ بالأمـرِ ولا تحمِّل ميزانيةَ الدولة أيّةَ أعباءٍ، فتبرَّعت في سـبيل هذا الأمرِ بمبلـغِ خمسين ألف قطعة ذهبيّة[٢٩٤] وهو ما يزيدُ عن المبلـغِ اللازمِ مـن أجلِ إجـراءِ الإصلاحـاتِ المطلوبةِ، كما دفعـت "السـلطانة مِهْرِمَاهْ" مبالـغَ من النقودِ الفضّيّةِ إلى دفتردار مصرَ القديم "إبراهيم بك" والذي تمَّ تعيينُهُ ليكونَ مسؤولًا عن تنفيذِ الإصلاحاتِ المُزْمَـعِ إجراؤها.

وقد أسـرعَ "إبراهيم بك" ببناءِ فِناءٍ مسـوَّرٍ من أجلِ إجراءِ التعديلاتِ،

(٢٩٣) مصطفى جُولَر (Güler)، أوقاف الحرمين في عهد الدولة العثمانية – القرنين السادس عشر والسابع عشر، إسطنبول – ٢٠٠٢م، ص ٦٦.

(٢٩٤) هذا العمل الذي قدر في البداية أنه سيكلِّف ثلاثين ألف قطعة ذهبية قد تجاوز هذا المبلغ بكثير، وبناء على بعض المصادر فقد تجاوز المبلغ الذي أنفق أكثر حتى من مائة ألف قطعة ذهبية (وهو ما يوازي اليوم حوالي خمسة وعشرين مليون دُولَار).

حيث بلغَ عددُ المهندسين العاملينَ في هذا المشروع أربعمائة مهندسٍ، كما اتّسَعَ نطاقُ العملِ باشتراكِ العُمّالِ والخبراءِ ليصلَ عددُ العاملين في مدَّةٍ وجيزةٍ إلى ما يزيد عن ألفِ شخصٍ، واستمرَّت هذه العمليّة التي بدأَتْ من عام (١٥٦٣م) وحتى عام (١٥٧٣م) مدَّةَ عشرِ سنواتٍ بلا انقطاع، وعندما لم يكفِ الحديدُ والصلبُ الخامُ الذي جُلبَ من مصرَ سابقًا لأجلِ البناءِ، فقد طُلِبَتْ كميّةٌ من إسطنبولَ عام (١٥٦٨م) لإتمامِ البناءِ، كما نُقلت باقي المواد المطلوبةِ إلى مكةَ عن طريقِ مصرَ، ومع انتهاءِ عمليّةِ الإصلاحِ عام (١٥٧٣م) نظَّمَ المفتي "الحسيني" حفلَ افتتاحٍ، دُعِيَ فيه للدولة العثمانية[٢٩٥].

وبعدَ هذهِ الجهودِ التي بُذِلَتْ فإنَّ كميّةَ المياه الذي يتمُّ إيصالُها إلى مكّة المكرمة قد زادت بشكلٍ واضح، وذلك بفضلِ الآبارِ الأخرى التي تمّ توصيلُها بقناة المياه، كما تمَّ عملُ سبل عامَّةٌ متنوّعَةٌ في كلِّ مكانٍ من المدينةِ، حيث كانَ يتمُّ توزيعُ المياهِ على الأحياءِ العديدةِ وبشكلٍ مختلفٍ عمَّا كان سابقًا، وعلى هذا النحوِ فإن هذا الإنجازَ لم يكنْ مجرَّدَ عمليّةِ تجديدٍ ولكنَّهُ كانَ في نفسِ الوقتِ عمليَّةَ إحياءٍ وتطويرٍ لقناةِ المياهِ التي سُمِّيَت "عَيْن زُبَيْدَة"[٢٩٦].

---

(٢٩٥) مصطفى ل. بيلْجه (*Bilge*)، " عين زبيدة " الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - ١٩٩٢م، الجزء الرابع، ص ٢٧٩-٢٨٠.

(٢٩٦) لقد حمل السلاطين العثمانيون بعد فتح مصر عام (١٥١٧م) لقب " الخليفة " وكذلك لقب حامي الحجاز، وكان مشروع إحياء قناة المياه "عين زبيدة" في زمن السلطان "القانوني" هو أول الأعمال الكبيرة التي قامت بها الدولة العثمانية من أجل توفير المياه في الحرمين الشريفين، وبحلول عام (١٥٢٣م) بلغ الأمر أن قنوات المياه التي توصل مياه الآبار إلى مكة المكرمة قد أصبحت غير مستخدمة على الإطلاق، وقد أبلغ هذا الأمر إلى السلطان "القانوني" الذي كان هو ولي الأمر في ذلك الوقت، وقد أمر السلطان -الذي تدارك المسألة بسرعة- بإصلاح قنوات المياه وكذلك أمر بتوفير المخصصات النقدية والعينية اللازمة، وقد عادت قنوات المياه إلى العمل من جديد عام (١٥٣١م) بعد أن تم الانتهاء من عملية الإصلاح والتى امتدت طوال ست سنوات. (مصطفى جولر، أوقاف الحرمين وأهميتها في الدولة العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، بحث دكتوراه، إسطنبول -، ص ٤١- ٤٢).

إن مجـرى الماءِ الذي أنشـأتْهُ السـيّدة "زبيدة" كان بمقـدورِهِ أن يأتيَ بالماء حتى "عرفات" فقط، لكنَّ هذا المَجرى لم يكنْ بمقدورِهِ أن يوصلَ هذا الماءَ إلى الأحياءِ الداخليَّةِ بمدينةِ مكة، أمَّا في عهد "سليمان القانوني" فقـد أمكَـنَ إيصالُ الماءِ إلـى مركزِ مدينةِ مكةَ مختـرقًـا الهضابَ الصخريَّةَ التي بين مكة وعرفات، وبهذهِ الصورةِ الجديدةِ تكون قناةُ "عين زبيدة" قد أخذت شكلًا جديدًا ومختلفًا تمامًا عمَّا سبق(٢٩٧).

وقفُ قراءةِ القرآنِ على روحِ الرسول ﷺ

إلـى جانبِ الأعمـالِ الخيريّةِ الأخرى التي تركتْها "السـلطانة مِهْرِمَاهْ" توجَـدُ سـبعةُ أمورٍ مرتبطةٍ بخدمةِ الحرمينِ الشـريفين، أحـدُ هذهِ الأعمالِ الخيريّـةِ كان إرسـالُها كلَّ عامٍ لمـا يُقَدَّرُ بحوالي ألفين وخمسـمائة قطعةٍ من الذهبِ إلى مكةَ المكرَّمةِ وألفين وخمسـمائة قطعةٍ أخرى إلى المدينةِ المنـوَّرةِ أي مـا يَصِلُ مجموعُهُ إلى خمسـةِ آلاف قطعةٍ من الذهب وذلك بشرطِ أن يتمَّ إرسالُها إلى الحرمين بواسطةِ "أمين المحمل الشريف"(٢٩٨)، وكان يتـمُّ توزيـعُ هذه الأمـوالِ على أشـدِّ الناسِ فقرًا من خـلالِ القضاةِ وعلماءِ من المذاهبِ الأربعةِ(٢٩٩).

كذلك نجد في لائحة أخرى للوقف أن "السلطانة مِهْرِمَاهْ" كانت ترسل كذلك بواسـطة "أمين المحمل الشـريف" ثلاثمائةِ عملـةٍ معدنيّةٍ من عائدِ

(٢٩٧) جُولَز، المصدر السابق، ص ٦٦.

(٢٩٨) كان هناك شخص يشغل وظيفةَ إحضار الهدايا والنقود التي يرسلها السلاطين العثمانيون كل عام في وقت الحج من أجل التوزيع على أهالي الحرمين حيث كان يتم جلبها في صورة أفواج مرتبة تأتي من إسطنبول إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة حيث توزع هذه الهدايا والأموال كأمانات من قبل ذلك الشخص.

(٢٩٩) ف. جانْجُوزَلْ (*Cangüzel*) ذو الفقار، " دراسة عن الأوقاف الخاصة ب"السلطانة مِهْرِمَاهْ"، بحث ماجستير، أنقرة – ١٩٨٩م، ص ٤٩.

الأراضي التي كانت تمتلكُها في المكانِ الذي يُعرَفُ باسم "تَاتَارْ بَازَارِي (Tatar Pazarı)" والتي حوَّلَتْها لتكونَ من الأوقافِ، وكان هناك شرطُ أن يتمَّ توزيعُ هذهِ الأموالِ بشكلٍ متساوٍ على الفقراءِ وأصحابِ الحاجةِ والمساكينِ والعَجَزَةِ في كلٍّ من مكةَ المكرَّمَةِ والمدينةِ المنوَّرَةِ(٣٠٠).

بالإضافةِ إلى ذلك فقد خَصَّصَتْ السلطانةُ مبلغَ مائةٍ وتسعةٍ وثمانين عملةٍ فضّيّةٍ لتُوَزَّعَ على ثلاثةٍ وتسعين شخصًا يُوَظَّفُ في مكّةَ والمدينةِ وخليلِ الرحمن حيثُ كان منهم تسعةٌ وثمانين قارئًا للقرآن وثلاثةٌ بدرجةِ رئيسِ القرَّاءِ وثلاثةٌ يعملونَ في ضبطِ النصِّ القرآنيّ وتشكيلِهِ وثلاثةٌ يعملون كمشرفينَ، وقد جعلت السلطانةُ هذا المبلغَ يُوَزَّعُ عليهم في شكلِ قطعتينِ من النقودِ الفضّيّةِ لكلّ منهم(٣٠١).

* * *

كذلك فقد رغِبَتْ "السلطانة مِهْرِمَاه" في أن يُمنحَ عشرُ قِطَعٍ ذهبيّةٍ لثلاثين قارئٍ من خيرة القرّاء العلماء المطبّقين لقواعد التجويد والترتيل وذلك مقابلَ أن يقرأَ كلٌّ منهم عند مقام نبيّ الله إبراهيم ﷺ جزءًا من القرآنِ عقِبَ صلاةِ الظهرِ يوميًّا، ويهبَ ثوابَ قراءَتِهِ إلى روحِ "السلطانة مِهْرِمَاه" صاحبةِ هذا الوقف.

كذلك فقد كان هناك ثلاثون شخصًا يختمون قراءَةَ القرآن في المسجد النبويّ بالمدينة المنورة والذين رغبت "السلطانة مِهْرِمَاه" في أن يتمَّ إعطاؤهم عشر قِطَعٍ ذهبيَّةٍ نظيرَ أن يتمَّ وهبُ ثوابِ عشرةِ أجزاءٍ من التي يقرأونَهَا من القرآن إلى روحِ سيدنا النبيّ محمد ﷺ وَوَهْبُ أيضًا

(٣٠٠) جُولز، المصدر السابق، ص ١٠٣.

(٣٠١) ذو الفقار، المصدر السابق، ص ٧١.

ثـواب عشـرةِ أجـزاء أخرى إلـى روحِ أصحابِهِ، أمَّـا ثوابُ العشـرةِ أجزاءِ الأخيـرةِ مـن القرآن فيتمُّ وهبُهـا إلى روحِ صاحبةِ الوقف -أي "السـلطانة مِهْرِمَاهْ"-.[٣٠٢]

* * *

لقـد كانَ سـلاطينُ الدولةِ العثمانيَّةِ والسـلطاناتُ كذلكَ يُرسِـلُون في الغالـبِ مـن ينوبُ عنهم مـن أجلِ أداءِ فريضـةِ الحجِّ، وبسـببِ ما كانت تقتضيـهِ رحلـةُ الحجِّ من وقتٍ يتـراوحُ بين الثلاثةِ والأربعةِ شـهورٍ كانت تستغرقُها المسافةُ من إسطنبولَ إلى مكةَ المكرمة نظرًا لظروفِ وإمكاناتِ السـفرِ في ذلـك العصرِ، فقد كان من الصعبِ بقاءُ السـلاطين بعيدينَ عن مركـزِ الدولـةِ لمـدَّةٍ طويلـةٍ بهذا الشـكل، وقد أفتـى لهم العلمـاء بأنَّ في إمكانِهِـم أن يُـؤَدُّوا فريضـةَ الحـجِّ عن طريقِ توكيلِ شـخصٍ آخـرَ للقيام بتلك الفريضةِ نيابةً عنهم، وهكذا فقد تمكَّنَ السلاطين وزوجاتُهم من أداءِ الحجِّ عن طريقِ الوكالةِ مستندين إلى تلك الفتوى، بالإضافة إلى ذلكَ فقد قامَ السـلاطينُ والسـلطاناتُ بإقامةِ الأوقافِ من أجلِ أن يتمَّ الحجُّ بالنيابةِ عنهم كلَّ سنةٍ، فنجدُ أنَّ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" قد وظَّفَتْ ثلاثةَ أشخاصٍ لكي يقوموا بالحجِّ نيابةً عنها، وقد خَصَّصَتْ لكلِّ واحدٍ منهم مبلـغَ ستَّةِ آلافِ قطعةٍ فضّيّةٍ سنويًا، وبذلك يكونُ مجموعُ المبلـغِ الذي خصَّصَتْهُ "السلطانة مِهرِمَاهْ" لذلك الغَرَضِ ثمانية عشر ألف قطعةٍ فضّيّة في السنة[٣٠٣].

---

(٣٠٢) ذو الفقار، المصدر السابق، ص ٤٨.

(٣٠٣) جُولَز، المصدر السابق، ص ١٤١.

المصادر

Ak, Mahmud, "Vakıf Kurucusu Bir Hanım: Mihrimah Sultan ", Vakıflar Dergisi, Ankara, 2006, (Özel sayı: Vakıf Medeniyeti Yılı).

محمود آق، "السيدة مؤسسة الوقف: "السلطانة مِهرِماة"، مجلة الأوقاف، أنقره – (٢٠٠٦م)، (عدد خاص: عام ثقافة الوقف).

Akçay, İlhan, Ayasofya Camii, Ankara, 1968.

إِلْحَانْ آقْجَايْ، "جامع أياصوفيا"، أنقره – (١٩٦٨م).

Akgündüz, Ahmed-Öztürk, Said, Kiliseden müzeye Ayasofya Camii, İstanbul, 2006.

أحمد آقْكُونْدُوزْ – سعيد أوزتورك، "جامع أياصوفيا من الكنيسة إلى المتحف"، إسطنبول، (٢٠٠٦م).

Aksun, Ziya Nur, Osmanlı Tarihi, İstanbul, 1994, C.I.

ضيانور أَكْسُونْ، التاريخ العثماني، إسطنبول – (١٩٩٤م)، المجلد الأول.

Aktaş, Ali, Türk Dünyası Tarih Dergisi, İstanbul, 1987.

علي آقتاش، مجلة العالم التركي التاريخية، إسطنبول – (١٩٨٧م).

Baltacı, Cahit, 'Hürrem Sultan ", DİA, İstanbul, 1998, C.XVIII.

جاهد بَلْطَجِي، "السلطانة خُرَّم"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول، (١٩٩٨م)، الجزء الثامن عشر.

Bayat, Ali Haydar, 'Hafsa Sultan ", DİA., İstanbul, 1997, C.XV.

علي حَيْدَرْ بَيَاتْ، السلطانة حَفْصَة، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - (١٩٩٧م)، الجزء التاسع.

Baykal, A. Nur, 'Hürrem Sultan ", Popüler Tarih, 2001, C.II.

أ. نور بيقال، "السلطانة خُرّم"، مجلة "التاريخ الشعبي"، (٢٠٠١م)، الجزء الثاني، العدد ١٦.

Baykal, A.Nur, "Hürrem Sultan'ı Kanunî mi öldürttü? ", Popüler Tarih, 2004, C.IV.

أ. نـور بيقـال، "هـل جعلت "السـلطانة خُـرّم" زوجهـا القانوني قاتـلا؟"، التاريخ الشـعبى، (٢٠٠٤م)، الجزء الرابع، العدد ٤٤.

Baysun, Cavit, "Mihr ü mâh Sultan ", MEB İslâm Ansiklopedisi, İstanbul, 1960, C.VIII.

جَاوِيتْ بَايْسُونْ، "السلطانة مهرماه"، وزارة التربية والتعليم، الموسوعة الاسلامية، إسطنبول – (١٩٦٠م) الجزء الثامن.

Bilge, Mustafa L., "Aynızübeyde ", DİA, İstanbul, 1992, C.IV.

مصطفـى ل. بِيلْجَـه، "عين زبيدة" الموسـوعة الإسـلامية، هيئة الديانة التركية، إسـطنبول - (١٩٩٢م)، الجزء الرابع.

Bozdağ, Fahrettin, "Sıbyan Mektepleri ", VIII. Eyüp Sultan Sempozyumu Tebliğler, İstanbul, 2004.

فخر الدين بُوزْدَاغْ، مدارس الصبيان، الجزء الثامن من اصدارات ندوة السـلطان " أيوب "، إسطنبول. (٢٠٠٤م).

Busbecq, Ogler G. de, Kanunî Devrinde bir Sefirin Hatıraları, Ankara, 1953.

أولجر ج.دي بوسبيك، " ذكريات سفير في عهد "القانوني"، أنقره، (١٩٥٣م).

Carım, Fuad, Kanunî Devrinde İstanbul, İstanbul, 1964.

ترجمة: فؤاد جَارِمْ، إسطنبول في عصر القانوني، إسطنبول – (١٩٦٤م).

Cezar, Mustafa, "Osmanlı Devrinde İstanbul Yapılarında Tahribat Yapan Yangınlar ve Tâbiî Âfetler ", Türk Sanatı Tarihi Araştırmalar ve İncelemeleri I, İstanbul, 1963.

مصطفـى جَـزَارْ، الكـوارث الطبيعيـة والحرائـق التي دمـرت المبانى في مدينة إسـطنبول فـى العصـر العثماني، بحوث ودراسـات تاريخية عـن الفن التركى الجزء الأول، إسـطنبول – (١٩٦٣م).

Çam, Nusret, Osmanlı Güneş Saatleri, Ankara 1990.

نُصْرَتْ جَامْ، السـاعات الشمسية العثمانية، أنقره، (١٩٩٠م).

Danişmend, İ.Hami, İzahlı Osmanlı Tarihi Kronolojisi, İstanbul, 1961, C.II.

إسماعيل حامي دَانِشْمَنْد، التسلسل الزمني المشروح للتاريخ العثماني، إسطنبول، (١٩٦١م). الجزء الثاني.

Demiriz, Yıldız, "Üsküdar'da Mihrimah Sultan Camii ", Sanat Dünyamız, İstanbul, 1980, C.IV.

يِلْدِيز دَمِيزِإيز، جامع "السلطانة مِهْرِمَاة" في أسكودار، دار نشر " صنعت دنياماظ "، إسطنبول، (١٩٨٠م)، الجزء الرابع، العدد ٢٠.

Doğan, Sema, "Haseki Külliyesi ", DİA, İstanbul, 1997, C.XVI.

سَمَا دُوغَانْ، "مجمع خَاصَكِي"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - (٢٠٠٣م)، الجزء السادس عشر.

Eyice, Semavi, "Edirnekapı Camii ve Külliyesi ", İstanbul, 1994, DİA, C.X.

سَمَاوِي أَيجَه، "مجمع وجامع أَدْرْنَه قَابِي"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - (١٩٩٤م)، الجزء العاشر.

Eyice, Semavi, "Haseki Hamamı ", İstanbul, 1991, C.IV.

سَمَاوِي أَيجَه، "حمام خَاصَكِي"، إسطنبول، (١٩٩١م)، الجزء الرابع.

Güler, Mustafa, Osmanlı Devleti'nde Haremeyn Vakıfları (XVI. ve XVII. Yüzyıllar), İstanbul, 2002.

مصطفى جُولَرْ، أوقاف الحرمين في عهد الدولة العثمانية – القرنين السادس عشر والسابع عشر، إسطنبول -(٢٠٠٢م).

Gökbilgin, Tayyib, "Hurrem Sultan ", MEB. İslâm Ansiklopedisi, İstanbul, 1964, C.V-I.

طَيِّب جُوكْبِيلْجِينْ، "السلطانة خرم"، وزارة التربية والتعليم، الموسوعة الاسلامية، إسطنبول – (١٩٦٤م)، الجزء الخامس.

Haskan, M. Nermi, Yüzyıllar Boyunca Üsküdar, İstanbul, 2001, C.I.

م. نَرْمِي خَصْكَانْ، أسكودار على مر العصور، إسطنبول- (٢٠٠١م). الجزء الأول.

Hasırcıoğlu, Talat, "Osmanlı sarayında saltanat süren kadınlardan Hürrem Sultan ", Resimli Tarih Mecmuası, İstanbul, 1956.

طَلْعَت خَصِرْجِي أُوغْلُو، "السلطانة خُرَّم" بين سيدات القصر العثماني اللاتي حكمن السلطنة، المجموعة التاريخية المصورة، إسطنبول، (١٩٥٦م)، الجزء السابع، العدد، ٧٣.

Kangal, Selmin, Savaş ve Barış, 15-19 yüzyıl Osmanlı-Lehistan Münasebetleri, Vakıflar Dergisi, Ankara, 2006, Özel Sayı.

سَـلْمِينْ كَنْجَالْ، الحرب والسـلام، العلاقات البولندية‌العثمانية في الفترة من القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسـع عشر، مجلة الأوقاف، عدد خاص، أنقره -(٢٠٠٦م).

Kanunî Sultan Süleyman, "Hürrem Sultan'a Gazel ", COGİTO, İstanbul, 1995.

سـلطان سليمان القانوني، " أشعار غزلية للسـلطانة "خُرّم"، منشورات *COGİTO*، إسطنبول، (١٩٩٥م)، العدد: ٤.

Komisyon, Fatih Camileri ve Diğer Tarihî Eserler, İstanbul, 1991.

لجنة، جوامع "فاتح" والآثار التاريخية الأخرى، إسطنبول – (١٩٩١م).

إسـماعيل حقـي قُونْيَالِـي، تاريخ "أسـكودار" مع الآثـار والكتابات المدونة، إسـطنبول – (١٩٧٦م)، الجزء الأول.

Kuban, Doğan, "Haseki Külliyesi ", Dünden Bugüne İstanbul Ansiklopedisi, İstanbul, 2003, C.IV.

دُوغَـانْ كُوبَـانْ، "مجمـع خَاصَكِي" موسـوعة إسـطنبول من الأمس إلى اليوم، إسـطنبول - (٢٠٠٣م)، الجزء الرابع.

Kuban, Doğan, "Mihrimah Sultan Külliyesi ", Dünden Bugüne İstanbul Ansiklopedisi, İstanbul, 1994, C.V.

دُوغَانْ كُوبَان، "مجمـع مهرماه سلطان"، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول - (١٩٩٤م)، الجزء الخامس.

Kuran, Abdullah, "Üsküdar'da Mihrimah Sultan Külliyesi ", Boğaziçi Üniversitesi Dergisi, İstanbul, 1975, C.III.

عبـد الله كُـورَانْ، "مجمـع السـلطانة مِهْرِمَـاهْ في أسـكودار"، مجلة جامعـة " بُوغَازْإِيجِي "، إسطنبول، (١٩٧٥م)، الجزء الثالث.

Kütükoğlu, Mübahat S., XX. Asra Erişen İstanbul Medreseleri, Ankara, 2000.

مُوبَاخَـاتْ كُوتُـوكْ أُوغْلُـو، "مدارس إسـطنبول التي بقيـت حتى القرن العشـرين"، أنقره – (٢٠٠٠)م.

Mehmed Hemdemî Çelebi, Solakzâde Tarihi, Ankara, 1989, C.II.

محمد هَمْدَمِي شَلَبِي، تاريخ صُولَاكْ زَادَه، أنقره - (١٩٨٩م)، المجلد الثاني.

Natshe, Yusuf Said, 'My Memories of Khassaki Sultan or The The Flourishing Edifice ", (Muhteşem Âbide, Haseki Sultan İmareti ile ilgili Hatıralarım) Kudüs, 2000.

يوسف أفندى ناتشي، " الأثر العظيم، ذكرياتي مع دار السلطانة خَاصَكِي لإطعام المحتاجين (My Memories of Khassaki Sultan or The The Flourishing Edifice)"، القدس، (٢٠٠٠م).

Orman, İsmail, 'Mihrimah Sultan Külliyesi ", DİA, İstanbul, 2005, C.XXX.

إســماعيل أُورْمَانْ، "مجمع الســلطانة مِهْرِمَاهْ"، الموسوعة الإســلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول –(٢٠٠٥م)، الجزء الثلاثون.

Ölçer, Nazan, 'Bir Savaşın ve Barışın Sergisi ", Savaş ve Barış, 15-19 yüzyıl Osmanlı-Lehistan Münasebetleri, Vakıflar Dergisi Özel Sayı, Ankara, 2006.

نَازَانْ أُولْجَرْ، معرض حرب وسلام، الحرب والسلام، العلاقات البولنديةالعثمانية في الفترة من القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر، مجلة الأوقاف، عدد خاص، أنقره، ٢٠٠٦م).

Özer, Deniz, "Hürrem Sultan'ın gazabına uğrayan bir sadrazam ", Türk Dünyası Tarih Dergisi, İstanbul, 1988.

دنيــز أوزر، الصــدر الأعظــم الــذي غضبت عليــه الســلاطنة "خُـرَّم"، مجلة العالــم التركى التاريخية، إسطنبول – (١٩٨٨م)، العدد رقم ٢٤.

Özdemir, Mehmed Niyazi, Türk Tarih Felsefesi, İstanbul, 2008.

محمد نِيَازِي أُوزْدَمِيز، فلسفة التاريخ التركي، إسطنبول – (٢٠٠٨م).

Özkeçeci, İlhan, "Üsküdar Mihrimah Sultan Camii ve Külliye İçindeki Türbelerin Süsleme Programı Üzerine Bir Değerlendirme ", Uluslar arası Üsküdar Sempozyumu, İstanbul, 2008, C.II.

إِلْخَــانْ أُوزْكَجَجِي، نظــرة علــى شــكل الزينة فــي الأضرحــة الموجودة بمجمـــع وجامع "الســلطانة مِهْرِمَاهْ" بمنطقة "أُســكودار"، الندوة الدولية عن "أُســكودار". إسطنبول - (٢٠٠٨) م. الجزء الثاني.

Öztuna, Yılmaz, Osmanlı Devleti Tarihi, Ankara, 1998, C.I.

يِلْمَازْ أُوزْتُونَا، تاريخ الدولة العثمانية، أنقرة - (١٩٩٨م)، المجلد الأول.

Öztuna, Yılmaz, Türkiye Tarihi, C.VI.

يِلْمَازْ أُوزْتُونَا، تاريخ تركيا، الجزء السادس.

Sakaoğlu, Necdet, 'Mihrimah Sultan ", Dünden Bugüne İstanbul Ansiklopedisi, İstanbul, 1994, C.V.

نَجْدَتْ صَقَا أُوغْلُو، "السـلطانة بِهرِمَاه"، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول - (١٩٩٤م)، الجزء الخامس.

Sınger, Amy, Osmanlı'da Hayırseverlik, İstanbul 2004.

أمي سنجر، الأعمال الخيرية في العصر العثماني، إسطنبول، (٢٠٠٤م).

Şehsuvaroğlu, Haluk, Asırlar Boyunca İstanbul, Cumhuriyet Gazetesi'nin Tarih İlavesi.

هَالُوكْ شَاهْسُوفَارْ أُوغْلُو، إسطنبول على مر العصور، الملحق التاريخى لجريدة الجمهورية.

Tanışık, İbrahim Hilmi, İstanbul Çeşmeleri, İstanbul 1943, C. I.

إبرهيم حلمي طَانِيشِيكْ، سُبل إسطنبول، إسطنبول- (١٩٤٣م)، الجزء الأول.

Tanman, M. Baha, 'Haseki Hamamı ", Dünden Bugüne İstanbul Ansiklopedisi, İstanbul, 2003, C.IV.

م. بَاهَـا طَانْمَـانْ، "حمام خَاصَكِي"، موسـوعة إسـطنبول من الأمس إلـى اليوم، (٢٠٠٣م). الجزء الرابع.

Taşkıran, Nimet, Hasekinin Kitabı, İstanbul, 1972.

نِعْمَة طَاشْكِيرَانْ، كتاب "حصاكي"، إسطنبول – (١٩٧٢م).

Togan, A. Zeki Velidi, Tarihte Usul, İstanbul, 1985.

أ.دأحمد ذكي وليدي تُوجَانْ، "الأساس في التاريخ"، إسطنبول – (١٩٨٥م).

Uçtum, Nejat R., "Hürrem ve Mihrimah Sultanların Polonya Kralı II. 'a yazdıkları mektuplar ", Belleten, 1980, C.XLIV.

نَجَاة ر. أُوجْتُومْ، الرسـائل المكتوبة من قبل السـلطانتين "خُرَّم" و"بِهرِمَاهْ" إلى ملك بولندا زيجموند الثاني، دورية علمية، (١٩٨٠م)، الجزء الرابع والأربعون، العدد، ١٧٥.

Uluçay, Çağatay, Osmanlı Sultanlarına Aşk Mektupları, İstanbul, 2001.

جَاغَاتَايْ أُولُوجَايْ، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول - (٢٠٠١م).

Uluçay, Çağatay, Padişahların Kadınları ve Kızları, Ankara, 1980.

جَغَطَايْأُولُوجَايْ، نساء وبنات السلاطين، أَنْقَرَه، (١٩٨٠م).

Uzunçarşılı, İ.Hakkı, Osmanlı Tarihi, Ankara, 1975, C.II.

إسماعيل حقي أُوزُونْ جَارْشِيلِي، التاريخ العثماني، أنقره، (١٩٧٥م)، المجلد الثاني.

Yıldırım, Nuran, "Haseki Dârüşşifası ve Hastanesi ", Dünden Bugüne İstanbul Ansiklopedisi, İstanbul, 2003, C.IV.

نُورَانْ يِلْدِيرِمْ، "مستشفى ومستوصف خَاصَكِي"، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول - (٢٠٠٣م)، الجزء الرابع.

Yücel Erdem, 'Edirnekapısı Camii ", İstanbul Ansiklopedisi, İstanbul, 1968, C.IX,

أَرْدَمْ يُوجَلْ، "جامع أَدِرْنَه قَابِي"، موسوعة إسطنبول، إسطنبول – (١٩٦٨م)، الجزء التاسع.

Zülfikâr, F. Cangüzel Mihrimah Sultan'ın VGMA'da bulunan Vakfiyelerinin Değerlendirilmesi, Yüksek Lisans Tezi, Ankara, 1989.

ف. جَانْجُوزَلْ ذو الفقار، "دراسة عن الأوقاف الخاصة بـ"السلطانة مِهْرِمَاهْ"، بحث ماجستير، أنقره – (١٩٨٩م).